تامر إبراهيم

منتديات قلعة طرابلس
ابو النور
www.tripolicastle.com

صانع الظلام

روايـة

«يعبر تامر إبراهيم بسلاسة ذلك الحاجز الفاصل بين التشويق والرعب، ليبرهن على أنه لا يوجد حاجز أصلًا، وأن هرولة الوقت ذاتها قد تكون مرعبة أكثر من قبو يعج بالتوابيت. في الوقت ذاته هو قادر تمامًا على ارتياد عوالم رعب لا أجرؤ على ارتيادها» - د. أحمد خالد توفيق

كان يوسف وحيدًا، لكن وحدته هذه لن تدوم طويلًا.

يعمل يوسف في قسم الحوادث بمجلة «المجلة»، وذات يوم يكلفه مدير التحرير بإجراء حوار صحفي مع أستاذ جامعي حُكِم عليه بالإعدام لقتله ابنه. وبدلًا من أن يحصل يوسف على إجابات عن أسئلته، يجد نفسه قد سقط في لعبة لا تحمل له إلا الأسرار والمفاجآت والأهوال التي تفوق أسوأ كوابيسه!

لعبة قواعدها لا ترحم، لعبة لا يستطيع الخروج منها. فيحارب بلا أمل وبلا هوادة، لا بحثًا عن الحقيقة، بل لينجو بحياته.

كان يوسف خليل وحيدًا لكن...

لكنه سيفتقد وحدته هذه قريبًا!

- رواية تحبس الأنفاس! -

منشورات قلعة طرابلس
أبو النور
www.tripolicastle.com

BLOOMS BURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING

١

يوسف خليل سيّئ الحظ.

هذه الحقيقة يجب أن نتفق عليها قبل أن نبدأ حكايته، وربما لو اتفقنا على هذه الحقيقة منذ البداية لحصلنا على تفسير لا بأس به لكل ما سيصيبه لاحقًا، وإن كنت لا تعرف مَن هو يوسف خليل فلا تشغل بالك بهذه النقطة، فستعرف عنه الكثير حالًا، لكن أول ما عليك فعله الآن هو أن تصدق أنه سيّئ الحظ حقًا.

تريد الأسباب أولًا لتقتنع؟ هذا حقك.

لنبدأ بأن يوسف وحيد تمامًا مع أنه رجل بالغ في الرابعة والثلاثين من العمر. والوحدة في هذا العمر ليست اختيارية، صدقني. صحيح أن والديه تُوفيا في صباه، وصحيح أنهما لم يتركا له إخوة أو أقارب - أو ميراثًا حتى - لكن وحدة يوسف تشمل ما هو أكثر من هذا وأعم.. فيوسف بلا أصدقاء، كنتاج طبيعي لافتقاره لأي موهبة اجتماعية تدفع أي شخص لمصادقته. وبلا جيران، إذ إن شقته هي الشقة الوحيدة المسكونة في تلك البناية الحديثة التي انتقل للعيش فيها منذ عامين.. باقي الشقق ابتاعها ثري لأبنائه

ليتزوجوا فيها لاحقًا، حاكمًا على يوسف بالمزيد من الوحدة والخواء. بلا أعداء حتى، فالأعداء في هذا الزمن يُولَدون أصدقاء، ويوسف لم يستطع أن يصادق شخصًا في حياته. وأخيرًا بلا زوجة، لجميع ما سبق، أو لأن سوء حظه لم يبلغ هذه الدرجة!

هكذا يستيقظ يوسف وحيدًا.. يأكل وحيدًا.. ينام وحيدًا، ولو هلك في أحد الأيام فسيهلك وحيدًا، ولن يشعر باختفائه أحد.

إذن يمكننا الآن ـ على الأقل ـ أن نتفق على أن يوسف وحيد.

لكن سوء حظه لا يتوقف عند وحدته، فجسده ذاته نموذج حي لسوء الحظ في كل تفصيلة من تفاصيله التشريحية.. إنه قصير ذلك القِصَر الذي لا يدعو للاحترام أو الملاحظة.. نحيل للدرجة التي تبرز معها عظام وجهه بصورة تشعر معها أنه يحمل جمجمة فوق كتفيه لا رأسًا آدميًا ذا ملامح.. أشعث الشعر طيلة الوقت ـ الشيء الوحيد الذي ورثه عن والده ـ وعيناه بارزتان كأنهما تحدقان بوقاحة في كل من يحيطون به، باعثةً مزيجًا من عدم الارتياح، والنفور، في نفس كل من يحدق فيهم.

أضف إلى هذا كله بعض العيوب التشريحية غير الملحوظة والمؤسفة في الوقت ذاته، نذكر منها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ضيق خلقي في جيوبه الأنفية يمنحه ساعات من الصداع النصفي مرتين أو ثلاث مرات في كل شهر، والصداع النصفي لو لم تكن تعرفه هو الجحيم بعينه.. تخيل أن هناك جمرة موقدة تتقافز في رأسك محاولة الخروج، وستفهم نوعًا ما يعانيه يوسف بانتظام مقيت.

يمكنك هنا أن تجادل زاعمًا أن لكل منا أمراضه، وأن لكل مرض

علاجًا، لكني أخبرتك بأن يوسف سيئ الحظ، لذا تجد أن تحالته الدائمة سببها ارتجاع في المريء لم يتمكن أي خبير أجهزة هضمية من تفسير سببه، وجيوبه الأنفية مع ضيقها تعاني حساسية مزمنة من الهواء كما أخبره الدكتور أشرف أستاذ أمراض الأنف والأذن والحنجرة.

نعم.. الهواء.

الدكتور أشرف أخبره بأن جيوبه الأنفية تنتفخ مع تعرضها للهواء لتنسد تمامًا وليبدأ الصداع النصفي، والحل الوحيد أمامه هو: «أن تقلل من تعرضك للهواء». وهي الصيغة المهذبة لـ«حاول ألا تتنفس حتى تختنق وتموت».

ولكني ـ ولأني أتمتع برحابة صدر غير عادية ـ سأسمح لك بعدم الاقتناع بسوء حظ يوسف بعد، مع كل ما أسلفت ذكره، وسأحدثك قليلًا عن حياته المهنية، لأحاول أن أؤكد لك هذه الحقيقة بطريقة مختلفة.

ولأن الحياة المهنية تبدأ بالتخرج في الجامعة، فعلينا أن نعرف أن يوسف حصل على شهادته الجامعية من كلية الإعلام جامعة القاهرة، بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف، فَنّ بلا أصدقاء أو حياة اجتماعية ـ كما تعلم ـ يدرسون باجتهاد رغمًا عنهم. وهذا التقدير يعني أن مستقبلًا عريضًا ينتظره مع التعيين في الجامعة، ليبدأ سلسلة من الدرجات المهنية تنتهي به أستاذًا في الكلية التي تفوّق فيها، لكن ـ ولسبب ما لم يتكرر إلا في عام تخرُّجه ـ قررت الجامعة أنها لا تحتاج إلى تعيين المزيد من المعيدين في الكلية، لتضيع على يوسف فرصته، وليتخرج في الكلية كسائر من تخرَّجوا فيها من دون تقدير أو مستقبل.

هكذا بدأ يوسف البحث عن عمل في أي صحيفة حكومية أو خاصة، ليجد ـ وفي كل مكان يتقدم فيه ـ حسناء تبتسم له قائلة:

ـ باب تقديم الطلبات أُغلق اليوم.. تأخرت قليلًا يا عزيزي.

وذلك الرد كان ينتظره حتى لو كان أول الواصلين.

لكنه في النهاية حصل على عمل في إحدى المجلات، وقبل أن تصرخ قائلًا إن هذا دليل دامغ على حُسن حظه، اسمح لي بأن أخبرك بأن هذه المجلة اسمها «المجلة»! ولو كنت يا عزيزي ترى نجاحًا يُنتظر من مجلة اسمها «المجلة»، فلا داعي لأن أضيّع وقتي معك في محاولة إقناعك بسوء حظ يوسف خليل.

في مجلة «المجلة» أوكلوا إليه صفحة الحوادث، ومن خلالها يحصل يوسف على راتب لو حصلت أنت عليه لظهرت صورتك في هذه الصفحة. لكن يوسف كان يدرك سوء حظه ويتعايش معه بصبر لا نهاية له؛ فلم يعترض، وإن بدا أن هذا التعايش السِّلمي سيصل إلى نهايته اليوم.

مدير تحرير المجلة طلب منه أن يمر على مكتبه في نهاية اليوم، وهذا لا يعني ـ في لغة الصحافة ـ إلا أن هناك مصيبة تنتظره، واليوم لا يشي بالسعادة منذ بدأ.

اليوم الذي تستيقظ فيه قبل الفجر على صراخ الطفل المزعج لجارتك بنابتك، والذي تجد فيه أن سيارتك جثة هامدة ترفض التحرك من أمام منزلك، وأن جيوبك الأنفية تنبض في وجهك منذرة بصداع نصفي مقيت، بينما كمبيوترك في المكتب لا يستجيب لأي شيء بعد أن أصابه فيروس

لم يُصب أي كمبيوتر آخر على كوكب الأرض، هو يوم لن ينتهي بخير مهما تمنيت في أعماقك.

إن مصيبة تنتظر يوسف خليل مع نهاية اليوم، وهذه المصيبة مجرد علامة من علامات سوء حظه الذي لو اقتنعت به الآن فسيمكنك أن تواصل معي حكايته من دون مشقة.

• • •

نهاية اليوم الصحفي تعني السادسة مساءً لكل العاملين في مجلة «المجلة»، والتاسعة والنصف بالنسبة إلى يوسف خليل وحده من دون سائر المحررين، لمجرد أنه تساءل في يوم من الأيام عن سر الخصومات المنتظمة من راتبه المخجل، ليذكره مدير التحرير ببنود العقد ـ تلك البنود التي لا يقرأها أحد ولا يعمل بها عاقل ـ وليخبِّره ما بين الالتزام المُطلق بها أو الرحيل.

لماذا لم يقرأ يوسف العقد جيدًا يوم أن ذيَّله بإمضائه؟ يومها حاول يوسف أن يخفي نظراته الحادة خلف نظارة طبية عجز معها عن رؤية أي شيء أمام عينيه، ومن يومها وهو يدفع ثمن هذه المحاولة.

المشكلة أن عمله الفعلي لا يستغرق أكثر من ساعتين، فهو لا يمارس مهنة صحفي الحوادث كما تتخيلها أنت، بل هو مجرد محرر لصفحة الحوادث في مجلة اسمها «المجلة». لذا تجد أن عمله يتلخَّص في نقل أخبار الحوادث من الصحف الأخرى ومواقع الإنترنت، مع تعديل العناوين بأخرى أقل سذاجة، وإضافة بعض الصور الأرشيفية و.. ولا شيء آخر!

أي أن يوسف يصل إلى مكتبه في تمام التاسعة والنصف صباحًا..

يُنهي عمله في تمام الحادية عشرة والنصف.. ثم يجلس على كرسيّه غير المريح لعشر ساعات متواصلة، حتى يفقد الإحساس تمامًا بنصفه السفلي، قبل أن يعود إلى منزله ليأكل.. وينام لو نام الطفل المزعج لجارس البناية، والذي لا يتوقف عن الصراخ إلا ليلتقط أنفاسه.. ليعيد هذا العذاب السيزيفي من جديد.

هذا هو روتين يومه الذي اختل اليوم حين طلب منه مدير التحرير أن يمر عليه في نهاية اليوم، ليقضي يوسف ما تبقى له من ساعات اليوم يتخيل ما سيقوله له مدير التحرير بالضبط.

من المؤكد أنه لا يحمل له أخبارًا سارة، فنظراته حين طلب منه المرور على مكتبه لم تكن نظرات شخص يعاني سعادةً مفرطةً أو يدّخر مفاجأة سارة لآخر. وبهذا يمكنه أن يستبعد الاحتمالات المبهجة ليركز طاقته في تخيل أسوأ السيناريوهات المتوقعة.

قد يخصم منه المزيد من راتبه الذي يعتبر في حد ذاته نوعًا من أنواع عقاب القدر له على خطأ لم يقترفه. الاحتمال لا بأس به والأسباب عديدة.. هناك التخفيض في ميزانية المجلة بناء على طلب رئيس مجلس الإدارة.. هناك مشاكل المبيعات التي تنخفض طيلة الوقت.. هناك الخصم كنوع من الجزاء على خطأ لا وجود له على أرض الواقع لكنه وبالتأكيد اقترفه من دون أن يشعر. المهم أنه سيخصم منه، وأنه لن يجرؤ على الاعتراض. فالبديل الوحيد أمامه هو الجلوس في المنزل والتحديق في الجدار إلى أن يصاب بالجنون.

لكن مهلًا.. ماذا لو كان هذا ما سيحدث؟ ماذا لو كان ما ينتظره هو الإقالة من المجلة؟

«اجلس يا يوسف.. أريد أن أنقل إليك خبرًا مؤسفًا.. أنت تعرف مدى تقديرنا لمجهودك معنا طيلة السنوات الماضية.. إنه ليس قراري كما تعرف و... وداعًا يا عزيزي.. حظًا أطيب في مكان آخر لو عثرت عليه!».

الإقالة ليست بعيدة بهذه الدرجة، والأسباب لن تختلف كثيرًا عن أسباب الخصم.. هناك المبيعات والإهمال، والإدارة المتعصبة ضد كل من يحملون اسم «يوسف»، والأزمة الاقتصادية العالمية، وأحداث الفاتيكان الأخيرة.. ومهما كان السبب فالنهاية واحدة: الجلوس في المنزل ثم الإصابة بالجنون.

إذن لدينا احتمالان حتى الآن.. الخصم أو الإقالة.. ماذا أيضًا؟ المزيد من العمل من دون مقابل.. هذا الخيار يكاد يتحول إلى أمنية في أعماق يوسف بعد الاحتمالين الأولين.. لو كلّفه بالمزيد من العمل فسيوافق طوعًا، وربما قبّل يديه كذلك امتنانًا منه وعرفانًا بالجميل.. ومهما كان العمل الزائد فسيتقبله.

لو طلب منه أن ينظف المكان، ويحمل القمامة، ويوزّع نُسخ المجلة بنفسه على المشتركين فيها في منازلهم فسيوافق بلا جدال، وستدمع عيناه فرحًا.. هذا هو الاحتمال الثالث، لكنه ليس الأخير.

ربما طلب رؤيته لأنه اكتشف سرًا من أسراره ويريد مواجهته به.. نعم.. يجب ألا ينسى يوسف سوء حظه، وبالتالي عليه ألا يستبعد أي كارثة قابلة للحدوث مهما ضعفت فرص حدوثها.. احتمال أن مدير التحرير اكتشف سرًا وسيواجهه به احتمال لا بأس به على الإطلاق، وما على يوسف معرفته الآن هو: ما هذا السر؟ وما مبرره لإخفائه عن مدير التحرير طيلة هذه الفترة الماضية؟

إنه لا يدخن، ولا يدمن المخدرات، ولا يعاقر الخمر، وعلاقاته النسائية منعدمة. إنه لم يسرق، ولم يرتشِ، ولم يقتل، ولم يغتصب، ولم يزوِّر، ولم يتجاوز حتى إشارة مرور في حياته. ما السر الذي يخفيه إذن والذي اكتشفه مدير التحرير ليدمر به حياته؟

سؤال سيحتاج إلى وقت، والساعة الآن السادسة والرُّبع.. ليَتْنه مؤقتًا وليركِّزْ في باقي الاحتمالات قبل أن تحين ساعة الصفر.. لدينا حتى الآن الخصم أو الإقالة أو العمل الزائد أو اكتشاف سر.. ماذا أيضًا؟

الواقع أنه لم يتبقَّ سوى أن يحاول قتله أو اغتصابه أو الاثنين معًا!

وليُنظِّمَ أفكاره بدأ يوسف كتابة الاحتمالات والتعديل عليها ودراستها واحدًا تلو الآخر، ثم رتَّبها تصاعديًّا وتنازليًّا، ثم بدأ رسم تخيلٍ كامل لما سيحدث وأين سيجدون جثته في مكتب مدير التحرير، بعد أن ينتهي من قتله واغتصابه، وكيف ستتناثر دماؤه على الجدران، وكيف سيصنعون له صفحة «كلنا يوسف خليل» على الفيس بوك و... و...

وفي تمام الثامنة وعشر دقائق تعالى رنين تلفون مكتبه، فانتفض وجال في خاطره أن يسرع هاربًا من المكان بدلًا من أن يعرف ما سيحدث له لو ظل، لكنه وبصورة لا إرادية تمامًا التقط السماعة ليجيب:

ـ سيادة المدير...

ـ أريدك في مكتبي.. الآن.

ثم انتهت المكالمة وانتهت معها قُرص يوسف في تخمين أي مصيبة تنتظره.

أعاد السماعة.. أحكم ربطة عنقه.. وقف في بطء وألقى نظرة وداع على مكتبه، ثم اتجه إلى مكتب مدير التحرير.

وفي منتصف الطريق جالت في رأسه فكرة أن يحمل له مدير التحرير خبرًا سارًّا على الرغم من كل الساعات التي أضاعها في تخمين الأسوأ.. قد يفعلها سوء حظه ويخيِّب ظنه بعد ساعات من الترقُّب المرير، لكن لو فعلها..

لو جرؤ مدير التحرير وأخبره بأي شيء مبهج أو سار..

سيقتله!

* * *

وفي تمام الحادية عشرة مساءً دخل يوسف السجن.

لا لم يقتل مدير التحرير، بالطبع لا تكن سخيفًا.. إنه هنا الآن في مهمة صحفية بحتة، هي الأولى منذ أن تولَّى منصبه كمحرر صفحة الحوادث في مجلة «المجلة»، أرسله فيها مدير التحرير الذي استقبله في مكتبه ليبادره:

ـ يوسف.. هل ذهبت إلى السجن من قبل؟

فبُوغت يوسف بالسؤال وأوشك على الاعتراف، مع أنه لم يره من قريب حتى، لولا أن واصل المدير:

ـ أريدك أن تذهب إلى هناك الليلة.. ستُجري حوارًا مع محكوم عليه بالإعدام.

قالها لتتلاشى التساؤلات القديمة من رأس يوسف، وتحل تساؤلات أخرى جديدة بدلًا منها، بدأ المدير في الإجابة عنها من تلقاء نفسه، شارحًا:

ـ أنت تذكر تلك الجريمة التي حدثت في العام الماضي، والتي نشرنا

تفاصيلها في المجلة.. أستاذ التاريخ الذي قتل ابنه.. لقد كانت جريمة بشعة حقًا.. الرجل هشم رأس طفله وهو نائم بمطرقة، واعترف بجريمته ليُحكم عليه بالإعدام، الذي سينفذ فيه خلال أيام، لكنه لا يعرف هذا بعد.. صديقي في مصلحة السجون أخبرني بهذا، ولهذا عليك أن تُسرع.. أريدك أن تلتقيه وأن تُجري معه حوارًا قبل أن يتدلى من حبل المشنقة.. أريدك أن تعرف منه ما أخفاه طيلة الفترة الماضية.

ومال عليه المدير ليردف بخطورة لا داعي لها:

ـ أريدك أن تعرف لماذا قتل ابنه.

ثم شرح له مدير التحرير ما عليه فعله بالضبط.. سينطلق الآن إلى السجن وسيطلب لقاء اللواء حمدي، مدير مصلحة السجون هناك، والرجل سيمنحه غرفة مُغلقة، وساعة كاملة مع أستاذ التاريخ الذي قتل ابنه.. ساعة تكفي لإجراء حوار كامل مع الرجل، لكن عليه أن يضع في حسابه أنه رفض التحدث مع الجميع طيلة العام الماضي، وحتى من حققوا معه فشلوا في معرفة سبب قتله ابنه بهذه الطريقة الوحشية.

لكن الليلة على يوسف، وخلال ساعة واحدة لا أكثر، أن يقنعه بتغيير رأيه قبل فوات الأوان ليجيب له عن سؤال مدير التحرير: لماذا قتل ابنه؟

هكذا وافق يوسف ـ بالطبع ـ وهكذا كان يعبر بوابة السجن الداخلية في تمام الحادية عشرة مساءً، ليقتاده الحرس إلى مكتب اللواء حمدي، الذي استقبله بفتور مَن يستقبل صحفيًا في مثل هذه الساعة المتأخرة، قبل أن يقتادوه من جديد إلى غرفة صغيرة احتوت على طاولة ومقعدين، طالبين منه أن ينتظر حتى يأتوا له بأستاذ التاريخ قاتل ابنه.

في الغرفة جلس يوسف، وعلى الطاولة جهز أوراقه وقلمه وجهاز تسجيل صغيرًا ـ أتى به من باب الاحترافية لا أكثر ـ ثم بدأ تصفح عدد المجلة الذي نُشرت فيه تفاصيل الجريمة، فهو ـ وعلى عكس ما يظن مدير التحرير ـ لم يكن يذكر أي شيء عنها.. لقد نقلها من أحد المواقع أو إحدى الصحف ونشرها، لكنه لم يقرأها حتى، والآن عليه أن يعرف كل المتاح عن هذه الجريمة قبل أن يلتقي مرتكبها ليحاوره.

الخبر كان صغيرًا يحتل الرُّبع السفلي من صفحة الحوادث، ترافقه صورة قديمة لأستاذ التاريخ، بدا فيها أنيقًا واثقًا في نفسه ومكانته العلمية، وكان العنوان يقول باقتضاب «أستاذ تاريخ في كلية الآداب بجامعة عين شمس يهشم رأس ابنه بمطرقة»، وفي الأسطر القليلة التالية قرأ يوسف أن أستاذ التاريخ هذا اسمه مجدي الرفاعي، وأنه أرمل، في أواخر الخمسينيات، مشهود له بالنبوغ والاحترام بين زملائه في الجامعة، وأنه كان يعيش حياة طبيعية تمامًا حتى أتت الليلة التي قرر فيها أن يبتاع بمطرقة ثقيلة.. يدخل غرفة ابنه ذي السنوات العشر.. ينهال بالمطرقة على رأسه الصغير حتى حوَّله إلى فتات تناثر في كل أركان الغرفة.

هكذا، ومن دون سبب أو مبرر!

الشهود، وهم من الجيران، قالوا إنهم سمعوا صوت ضربات ثقيلة قادمة من شقته أعقبتها ضحكات الدكتور مجدي المجنونة، قبل أن يبدأ الصراخ فجأة ليقتحموا عليه شقته ويجدوه غارقًا في دماء ابنه الذي لم يعد لديه رأس ثلاثي الأبعاد.

في البداية صُدموا، ثم أبلغوا الشرطة التي جاءت وألقت القبض على مجدي، فلم يقاومهم أو يعترض، اعترف بجريمته، ثم لاذ بعدها بصمت

ثقيل راسخ لم يتزحزح حتى حين نطق القاضي حكمه بإحالة أوراقه إلى فضيلة المفتي.

مجرد جريمة بشعة من الجرائم التي طالما نشرتها صفحات الحوادث، لكن هذه المرة كان التساؤل المسيطر على الجميع هو: لماذا؟

لماذا قرر أستاذ تاريخ أن يُنهي حياته وحياة ابنه الطفل بهذه الطريقة البشعة؟

الكشف الطبي عليه أثبت عدم جنونه، ولو كانت النتيجة عكسية لأراح الجميع من حيرتهم، لكنه فعلها بكامل وعيه وإرادته. ابتاع المِطرقة.. تأكد من ثقلها.. تسلل إلى غرفة طفله الغافي في فراشه، فلم يشعر تجاهه بذرة حنان أو إشفاق، بل رفع المِطرقة بيده ثم...

ثم أتى تقرير الطبيب الشرعي ليعلن أنهم لم يعثروا على عظمة واحدة سليمة في جمجمة ابنه الصغيرة.

الطفل دُفن بعدها في مقبرة العائلة من دون رأس، ومجدي أستاذ التاريخ أودع هذا السجن، حيث قضى أشهُر مدته صامتًا لا يستجيب لأي ضغط أو إغراء تعرَّض له ليخرجه من صمته هذا.. واليوم على يوسف، وخلال ساعة واحدة فقط ـ لسوء حظه ـ أن يحل عقدة لسانه، وأن يحصل منه على إجابة وإلَّا...

تعالَى صوت خطوات تقترب، فأعاد يوسف نسخة المجلة إلى حقيبته، واعتدل على مقعده وقد بدأ قلبه يخفق بقوة وبصوت أعلى من صوت الخطوات التي بلغت الباب أخيرًا. يدخل أحد حراس السجن يقتاد مجدي الرفاعي الذي ارتدى «بدلة الإعدام» ذات اللون الأحمر، فلم يستطع يوسف

إخفاء ذهوله، وهو يقارن في خياله ما بين صورة الدكتور مجدي التي رآها في المجلة، وبين شبحه الذي يقف أمامه الآن.

في الصورة كان الدكتور مجدي رجلًا في الخمسينيات من عمره، لكنه يبدو أصغر قليلًا مع شعره المصفف بعناية، والصحة البادية عليه، وابتسامته الواثقة المُرحبة، أما من وقف أمامه الآن فكان عجوزًا يبدو كأنه تجاوز السبعين من عمره بسنوات عديدة، وقد نحل جسده وزاغت عيناه بصورة شعر معها يوسف ولأول مرَّة في حياته بالوسامة!

ـ أمامك ساعة واحدة.

قالها الحارس بلامبالاة، ثم خرج وأغلق الباب عليهما، فلم يتحرك يوسف من مكانه، بل ظل مكانه يُحدق ذاهلًا في مجدي الذي بدا كأنه لا يراه حتى، وعيناه ترمقان اللاشيء بثبات. وبعد لحظات، احتاج إليها يوسف ليتمالك نفسه، وقف ليقول بصوت حاول أن يجعله هادئًا مرحبًا، فخرج من فمه مرتعشًا متخاذلًا:

ـ أنا.. أنا يوسف خليل.. من مجلة «المجلة».

قالها ومدَّ يده ليصافح مجدي الذي لم يبدُ عليه أنه سمعه حتى.. فقط ظل واقفًا مكانه تاركًا يوسف يصافح هواء الغرفة، قبل أن يستعيد يده ليشير بها، طالبًا:

ـ اجلس من فضلك!

رفع إليه مجدي عينيه ليراه لأول مرَّة، قبل أن يجلس على المقعد المواجه له ببطء، ليعود بعدها إلى التحديق في اللاشيء، فجلس يوسف

أمامه وهو يفكر في بداية مناسبة تليق بمثل هذا الموقف، وقد أيقن في أعماقه أنه لن يحصل من هذا الرجل على شيء.

مَن يجلس أمامه الآن هو بقايا رجل يعرف أن ساعاته في هذه الدنيا معدودة، ولن يضيع منها ساعة مع يوسف ليفتح له قلبه فيها وليجيب فيها عن أسئلته قبل أن يبكي على كتفه، لكن على يوسف أن يحاول رغم كل شيء:

ـ أنا هنا لأتحدث معك قليلًا.. إذا سمحت لي.

لم يجبه مجدي، تمامًا كما توقع. لكن يوسف قرر مواصلة دوره بصورة ميكانيكية بحتة، ليضغط زر التسجيل وليمسك بقلم يعرف أنه لن يخط به حرفًا واحدًا على الأوراق أمامه، قبل أن يقول:

ـ أريد أن أعرف منك ما الذي حدث في تلك الليلة بالضبط.

قالها من دون ذرة شك في مدى سخافة ما قاله، لكنها البداية الوحيدة التي تكرّم بها عقله عليه، فلم يتراجع وواصل قائلًا:

ـ هل قتلت ابنك بالفعل؟

وهو لم يكن في حاجة لإجابة عن هذا السؤال، لكنه افترض أن سؤالًا منطقيًا كهذا قد يشجّع مجدي على التحدث، وهو افتراض أثبت مجدي خطأه حين استمر في تحديقه الصامت للفراغ.. وفي أعماق يوسف تعالى صوت سوء حظه يردد ضاحكًا:

ـ أنت تضيّع وقتك هنا.. هذا الرجل لن يتحدث مهما حاولت.

لكنه تجاهل هذه الحقيقة، وجلس ينتظر أي علامة من مجدي تدل

على أنه لا يزال على قيد الحياة.. مرت دقيقة.. دقيقتان.. عشر دقائق، تتابع بعدها سوء حظ يوسف في رأسه، وأعلن:

ـ أمامك ساعة إلا الربع.. والرجل لن يتحدث.

فهمس يوسف لنفسه: أعرف.. لكني مضطر!

ـ يوجد حل واحد.. لكن.. هل ستجرؤ؟

قالها سوء حظه في رأسه، فأدرك يوسف ما يقصده، لكنه قرر تجاهله بالطبع مقررًا أنه ليس بحل ـ أو فلنقل ليس بحل يعتمد على الأمانة الصحفية التي يجب أن يتحلى بها أي صحفي يعمل في مجلة «المجلة» ـ ولذا كرر:

ـ دكتور مجدي.. هل قتلت ابنك؟

فلم يجبه مجدي، وقد أخذت الساعة إلا الربع المتبقية من عمر الحوار في التآكل.. أربعون دقيقة وسيأخذونه من الغرفة وسيعود يوسف بخفي حنين إلى مدير التحرير، الذي سيتهمه بالإهمال ويخصم من راتبه أو يفصله أو يغتصبه ويقتله.

ـ دكتور مجدي.. هل تسمعني؟

فأجابه سوء حظه في رأسه:

ـ بالطبع يسمعك.. إنه يجلس أمامك مباشرة أيها الأحمق!

لكن مجدي كان يجلس وكأن صوت يوسف لا يعرف لأذنيه طريقًا.. الدقائق الأربعون تتناقص لتصبح ثلاثين.. وبصبر وأمل وتوسل يكرر يوسف:

ـ دكتور مجدي.. أرجوك أجب عن سؤالي.. هل.. قتلت.. ابنك؟

وهذه المرَّة انتظر حتى تناقصت الدقائق الثلاثون إلى خمس وعشرين، قبل أن يقرر أن الحل الذي اقترحه سوء حظه عليه ليس بهذا السوء.

إنه الحل ـ مهما كانت درجة عدم أمانته ـ الوحيد.

[illegible]

لن تتحدث، وأنا لن أرحل من دونه، لذا سأوفر عليك المجهود، وكل المطلوب منك هو التصحيح لي إذا أخطأت.. اتفقنا؟

[illegible]

نعم، لقد كنت أعرف ما أفعله جيدًا.

[illegible]

كان معه بجسده فقط.. عظيم.. على الأقل لن يعترض.. استرخى يوسف وواصل

ـ إذن.. لماذا ارتكبت جريمتك؟ لأني كنت أريد التخلص منه.. بعد أن تُوفيت زوجتي تحمَّلت مسؤولية ابني بمفردي لأطول وقت ممكن، بكيت، وفي النهاية.. لم أعد أتحمَّل.. يأسي وحزني لفراق زوجتي دفعاني لارتكاب الجريمة.

نظرة أخرى إلى محدثي الذي منحه موافقته بصمته، ثم واصل وقد بدأ يشعر بالضجر بموهبته في تأليف الحوارات، والتي اكتشفها لتوِّه:

[illegible]

[illegible] تكفحر من رأسه من دون أن يحبرك هذا على التوقف؛ مثيرة

[illegible] حقًا.. لقد مات مع الضربة الأولى لكنك واصلت ضربه و...

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] دخول يوسف مرات ومرات، واحتاج إلى دقيقة كاملة ليتمالك

ـ ما الذي تقوله؟

فأجابه مجدي بأن مدَّ يديه ليأخذ القلم من يد يوسف المأخوذ. تأمله للحظة . وفي اللحظة التالية غرسه في عنقه قبل أن يحد يوسف فرصة لتفهم أو الاعتراض!

غرسه حتى نهايته فشهق يوسف مزاحفًا في مقعده، لكن مجدي نظر إليه والقلم يتدلَّى من عنقه ليهمس بما تبقى له من صوت:

ـ ابحث عنه.. ولو عثرت عليه فاقتله.

قالها وانتزع القلم من عنقه بحركة سريعة انفجرت معها الدماء من شرايينه التي تمزقت، وارتطمت بوجه يوسف كصفعة، فهبَّ من مكانه صارخًا وقد تهرب من جسده صنابير بركة صغيرة أسفل جسده الخيل

وعلى الرغم من أن خمس عشرة دقيقة أو أكثر بقليل من الساعة التي

مجدي على وجهه وملابسه بالشرح

وحين وصل اللواء حمدي أخيرًا، مع من وصلوا لإسعاف مجدي، كان السؤال الوحيد الذي سأله بكل ذهول الدنيا هو

ـ ما الذي حدث هنا؟!

وهذه المرَّة كان يوسف هو من أجاب بالصمت التام

ـ لا شيء

تركه ينطلق، وعاد يوسف إلى ارتعاشه يحاول السيطرة عليه وعلى

حطه تحدّث، ليكون كل ما قاله له هو أن ابنه لم يمت.. لم يمت وعلى يوسف أن يبحث عنه ويقتله!

التفسير الوحيد المنطقي لما قاله هو أنه خُبِّل.. الدكتور محدي فقد عقله ويدأ يهذي. هذا هو التفسير الوحيد المنطقي لما حدث الليلة، وهو تفسـ

أنه وفي أعماقه يدرك أن هذا التفسير ـ مهما كان منطقيًا ـ غير صحيح

وربما هو الصدق في صوت محدي حين قال ما قاله.. وربما لأن نظرة

لم تكن نظرات رجل فقد عقله بقدر ما هي نظرات رجل يائس يشعر بالخوف.. وربما لأنه سوء حظ يوسف لا أكثر. المهم أن نظرية جنون

يوسف محاولة الإجابة عنها حتى.

هل لم يقتل محدي ابنه حقًا؟ أيعني هذا وجود قاتل آخر، أم أن ابنه لـ

تهشم رأسه بمطرقة حديدية على قيد الحياة أصلًا؟!

لكن لا بأس.. لا بأس.

إنه غير مضطر للإجابة عن هذه الأسئلة، فمهمته هنا انتهت.. بقـ

تلقى الدكتور محدي وحصل منه على حوار ـ حتى لو كان هو مؤلفه

صحيح ـ ما كنته تلوّث بدماء الدكتور محدي، لكنه لا يزال قاتلًا للقراءة

من جديد.

لا بأس

سـ[illegible] الحوار.. سيُسلمه لمدير التحرير الذي سينشره في العدد القادم..

سـ[illegible] القصة بالنسبة إلى يوسف عند هذا الحد.. نعم ستنتهي، فالدكتور

محدي لن يقرأ الحوار حين يُنشر، ولن يعترض عليه.. ما ينتظره هو أن

[illegible] البيعة ليعدموه ما إن يسترد صحته!

قصة انتهت، ولا داعي للقلق ولا للإصغاء لصوت سوء حظه في

[illegible]

لا لم تنته بعد [illegible]

لا [illegible]

عزيزي [illegible] أخفقت معك من قبل!

بسبب سوء حظه، فيرتجف جسده أكثر محبذًا عن السؤال: إن سوء

حظه لم يُخطئ معه من قبل، لكنه سيتمنى أن تكون هذه مرّته الأولى..

فقط عليه [illegible] حتى تنتهي هذه الليلة

عاد مدير التحرير إلى المستشفى أخيرًا ليبحث عنه بنفسه، قبل أن

يسمع ما وقد بدت عليه لهفة الدنيا بأسرها:

ما الذي حدث؟

ذهب يوسف على الفور وعلى نحو عزيزي تمامًا.

ـ أخبرني بأن ابنه لم يمت.

ذلها لبشعر بالندم على الفور وليتهد سوء حظه في رأسه كمن توقع هذا، لكن مدير التحرير قال بحماس أصاب يوسف بالذهول

ـ عظيم . هذا مثير.. يعتقد أنه لم يقتل ابنه وحاول الانتحار هذا أفضل مما توقعت.. المهم.. هل أنقذوه أم لا؟

ـ أنقذوه... لكن...

ـ رااااائع.. القصة لم تنته إذن.. بل بدأت.

لقد توقع يوسف على الفور ما سيقوله بعدها، لكنه لم يستطع مقاطعة مدير التحرير الذي واصل بحماس:

ـ هكذا استعدت القصة إثارتها، وسيكون السبق لك.. سنعقد اجتماعًا بالكامل معي في سيارتي، سأعطيك لتأخذه معك قبل أن ترحل أريدك أن تتفرغ تمامًا لهذه القصة.. أريد أسرارًا.. مفاجآت.. أريد ملفًا كاملًا لأنشره عن القصة، وأريده بسرعة.. أتفهم؟

[redacted]

ملك، وكما أريد تمامًا، ولا فـأحد من يعده وفي هذه الحالة

[redacted]

الحصن أو الإقالة أو القتل و لاعتصاب . لداهر رأسه باستسلام تدعو معه الموقفة، فابتسم مدير التحرير بارتياح، ليقول:

ـ عظيم . إنها فرصتك يا عزيزي

ـ ها مدير التحرير ليلتهم، فتنهد سوء حظ يوسف ضاحكًا في [redacted]

ـ و كان سوء حظه يعرف ما سيحدث له بعدها.. لو كان لديه أدنى [redacted]

• • •

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted]

[redacted] التي بدأت تتصارع في رأسه.

ـ كنه الآن أن يفتح الملف ويبدأ العمل. ويمكنه أيضًا أن يتصل بمدير [redacted] ليخبره برغبته العمل في هذا التحقيق.. يمكنه أيضًا أن يعدها أن [redacted]

[redacted]

[redacted] حبة ثقيلة ستحرمه أثير بعدها، وستساعده [redacted] لكنه ـ ولسوء حظه ـ نسي أن يتناول ما يصلح للأكل وهو في [redacted] المنزل، وهو يعيش على العدم الحاضر مع فشله الدائم في طهي

أو الاستقالة. كشف سر جريمة الدكتور محدي، أو ... اسمه تصدّ

حبار الاستقالة يبدو مرعبًا الآن، لكن الحذار أمامه الآن يسأله: هل ستطيق التحديق فيّ لأشهر قادمة؟

قرر يوسف أن يُحرِّك، ليبدأ التحديق في الحذار الذي مادله العزيز ...

ولديه ابن مراهق يعيش معه تحت ذات السقف.. صورة لرجل لم يعرف ...

من طفل في العاشرة لا ... في ...

برجل بالغ، وكان شاحبًا ...

وجه أبيض تمامًا، اسدل عليه شعر أسود فاحم طويل، أسفله عينان ...

أوراق القضية

الساعة الآن الثالثة والنصف صباحًا، وما سيقرأه الآن سيحسم سؤاله: هل سيقبل بالعمل على هذا التحقيق.. أم لا؟

* * *

في ... السادسة صباحًا كان يوسف قد انتهى من كتابة استقالته.

... ليتأكد من أنها تحتوي على الأخطاء النحوية والإملائية، ثم مزقها، ... سبب العصبية، وقد أدرك أنه سيبدأ العمل على التحقيق؛ استحالة ... الذي قتل قصدًا لا حصر لها من قبل، لكن.. لكن عليه أن ينام ... حين يستيقظ سيصدق إلى هناك

... الدكتور محدي.

٣

صداقات، ولو كنت تظن أنها كذلك فأنت ساذج!

لن أتعبك بوجهة نظري الآن، بل سأعرّفك أحد مَن يرتبط بهم يوسف بعلاقة عمل، وهو المُعدّم عصام فتحي.

يعمل في المباحث هو لذا لك أن تتذكر كل التصورات السذجة التي يظهر بها ضباط المباحث في الأفلام والروايات، لتجد أنه نقيض

جماهير لا يراهم سواه. مغرور؛ يؤمن بأن أمن البلاد والعباد متوقف على مجهوده الفردي. ثرثار ونديه قاعه بأنه لا ينطق عن هوى، وأن كل ما يخرج من فمه هو حكمٌ على الأحيال تذكرها وترديدها وو.. في خشوع

لو كان هذا الظهور يتمثّل في نشر صورته في مجلة اسمها « المحقه ولأن يوسف هو محرر صفحة الحوادث في هذه المجلة فقد قرر عصام

في محدي.. بعدها ستتحول إلى شقة من حديد، وستسلمها

وجاب يوسف

فهي

حكى له يوسف

فهم عصام

- لا داعي.. فقط أرسل معي مَن يفتح الشقة و...

- غيرتك بأنها مسرح جريمة.. ولا يمكن لأحد أن يفتحها سواي.. بن كاميرتك؟

- معي

ـ إذن.. هيا بنا

انطلق معه يوسف إلى هناك حاملًا حقيبته التي تحوي ملف القضية.

[illegible]

ـ [illegible]

جريمة رأيته في حياتي.. مختلف تمامًا

ـ كيف؟

ـ سترى بنفسك.

• • •

[illegible]

فارتجف ولاحظ عصام ارتجافته ليبتسم قائلًا:

ـ كل مسارح الجريمة باردة يا عزيزي.. إنها برودة الموت.. لكن هذه لن يكون أغرب ما ستراه اليوم.

[illegible]

[illegible] بأستاذ تاريخ أرمل: أثاث عتيق لكنه أنيق في الوقت ذاته.. مكتبة [illegible] أحد الجدران، مليئة بكتب ذات عناوين ثقيلة لا تشجع على [illegible]

[illegible] عن.. صورة وقاف مُعلَّقة لمجدي مع زوجته الراحلة يبتسمان [illegible] وهما في أوج شبابهما، بينما على إحدى الطاولات استقرت [illegible] جرى لهما في بروار، وقد وقف بينهما هذه المرّة ملتفتهما بوجهه [illegible] وتلك النظرة الجادة المحيية في عينيه.

[illegible] عادية تمامًا لا يميزها إلا نقمة داكنة على أحد الجدران، اقترب منها [illegible] وقد بدا عليه الفضول، لكن عصام أشار إلى إحدى الغرف، متسائلًا:

ـ [illegible] الذي تنتظره؟

[illegible] يوسف على الفور أنه يشير إلى غرفة نوم الطفل، ليتجه إليها [illegible] أمام بابها يتنظر أن يفتحه عصام الذي قال بدرامية

ـ [illegible] أن أصنع إليَّ جيدًا.. ما ستراه الآن غير صالح للنشر مهما كان [illegible] أكرر.. مهما كان السبب.. كل ما ستراه في الداخل ستحتفظ [illegible]

[illegible] وأنه لولا واجبي لما دخلت معك الآن لأراه من جديد.. لكن [illegible] أن أدخل معك.. يجب.. فربما لن تتحمل ما ستراه.

[illegible] يوسف بملل واضح حتى أنهى، ليقول بهدوء:

ـ [illegible]

ـ [illegible].. لكن...

[illegible] عصام وفتح الباب بحركة سريعة كاشفًا عن مسرح الجريمة [illegible] الذي رأى أخيرًا ما حدث بالفعل في هذه الغرفة

[illegible] أن عصام كان محقًّا في قوله.. فما حدث هو أنه فتح باب

العرفة ورأى يوسف ما في داخلها.. شهق بعنف وانتفض جسده وعيناه ثم تهاوى على الأرض فاقدًا الوعي!

* * *

وحين استيقظ يوسف كان لا يزال في شقة الدكتور مجدي، وكان عصام يربت على خده بقوة مرددًا:

ـ استيقظ.. استيقظ.. استيقظ!

تأوه يوسف ليتوقف عصام عن صفعه، وتراجع قائلًا:

ـ أخبرتك بأنك لن تتحمل ما ستراه.

تذكر يوسف ما رآه على الفور، وانتفض من جديد، ليعتدل حالًا وقد

ـ أعتقد أن عليا الرحيل.. لقد رأيت ما يكفيك و...

ـ لا.

قاطعه يوسف بنبرة لم يفهم هو نفسه سرها، وجاهد ليسيطر على رجفته، مرددًا

ـ يجب أن أدخل الغرفة ثانية!

ـ ما ينتظرك في الداخل لا يقل بشاعة عما رأيته بالفعل.. الأفضل أن ترحل الآن وتذهب إلى مكان آخر لـ...

ـ يجب أن أدخل الغرفة!

ـ يوسف بإصرار وهمّ واقفًا محاولًا ألا يترنح أو يرتجف خوفًا

عصام الذي هزّ كتفه باستسلام، ليقول:

إلى باب الغرفة الذي أعتقه بعد أن حرّر يوسف العقد الوعي إلى

فاتحه يوسف إليه وأمسك بالمقص ليمنق عينيه لحظة مترددًا،

منحهما ليفتح الباب من جديد، ليجد ذات ما أفقده الوعي سابقًا

هذه المرّة لم يفقد يوسف الوعي، لكنه انتفض رعبًا من

معدته الخاوية بعنف حمد الله معه أنه لم يتناول أي طعام منذ

فيما

* * *

في

بعرارة غير مسوغة.

دماء على الفراش.. دماء على حرارة الملابس.. دماء على جسده في الألعاب وعلى الجدران.. دماء على الباب.. دماء على كل شيء.. كل شيء

انغرس في الجدار أعلى فراشه!

جسد يوسف في الارتجاف بصورة دفعت عصام لأن يقول

فتساءل يوسف ما إن استعاد صوته

ـ كيف؟

يشرح عصام متحاشيًا النظر إلى الوجه المخيف:

محاربي الطُرق عليها بالمطرقة إلى أن أصبحت جزءًا من الجدار

مصريين"!!

بدأ قليلًا ليختلس نظرة إلى الوجه وليرتجف هو الآخر قبل أن

في انتزاع الجدار داته أو.. أو فصل رأسه عن جسده.. المشكلة أن

فتهشيمه، لذا اضطررنا إلى... إلى...

لم يستطع يوسف أن يجد في حلقه صوتًا يتساءل به.. فقط

مكانه وقد عاد الدوار إلى رأسه، ليترنح من جديد، وليقول عصام

بلهجة لا تقبل النقاش.

يتساءل يوسف بخشونة

بخشونة يسمح بخروج شيء ما منها، قبل أن يلتفت إلى يوسف قائلًا:

في هذا

وأشار إلى البقعة الداكنة في جدار الصالة، فالتفت يوسف إليها وقد تذكرها لتبدو عليه الحيرة، وليشرح عصام

ـ أحدنا عبث منها لنجد أنها دماء الطفل . والسؤال الآن هو: كيف

من أن تكون يدا الدكتور مجدي الملوثتان بدمائه قد ستتهدد.. وم ربطت بين هذه البقعة وبين شهادة شهود الذين قالوا إنهم سمعو ضحكات الدكتور مجدي، فصراحة، ستجد أن الاحتمالات الوحيد للتصديق أمامك محسمة حقًّ

أكمل يوسف مأخوذًا وقد فهم ما يقصده

ـ كأن الطفل خرج من الغرفة ليترك هذه البقعة

ـ وهذا مستحيل تمامًا.. لقد كان جسده يتدلّى من رأسه المعروس في

ولا إجابة، وصدقني.. لن أحاول أن أجيب عنها مهما كان السـ

استغرق يوسف في صمت حائم على المكان الذي اشتدت برودته فجأة من دون سبب مفهوم، حتى قال عصام أخيرًا

لنخرج من هنا.. لم أعد أتحمّل البقاء.

فلم يعارضه يوسف، ولم يجد مبررًا واحدًا ليفعل.. فقط سأله حين خرجا من الشقة أخيرًا:

ـ لم أعرف اسم ابن الدكتور مجدي من كل أوراق القضية

ـ لا يـ ـ يجد ورقة واحدة تذكر اسمه، والدكتور مجدي يحرص على تسميه ـ على الرغم من كل محاولات الانتزاع لاسم منه.. يوسف.. يا عزيزي.. هذه القضية ملعونة، وإنه لمن سوء حظك أن تكلف بالتحقيق فيها

ـسم يوسف ابتسامة ساخرة مريرة، ليجيب:

ـ بها منذ البداية

• • •

ـ الجاني . لكن لا تذكر حرفًا مما ستقرأه فيها.. كما

ـ الجاني.. صاح إليها عصام وهو يقول:

ـ جيد، لكن لا تذكر حرفًا مما ستقرأه فيها.. كما

الحقيقة في النهاية،

إذن الخطوة التالية المنطقية هي...

٤

حين

حتى هو لم تبحل عليه باتسامته، ولم يرد هو عليها أبدًا سوى بنظراته

لم تكن نادية أجمل فتاة رآها.. ولم تكن أكثر فتيات الجامعة شعبية

كانت نادية، وكان هذا يكفيه تمامًا

لم يحاول أن يقترب منها قطُّ كأنه يخشى أن يحترق لو فعل.. بل

لكنها كانت دومًا تمنحه ابتسامتها، ليحقق فيه صارخًا فيه برجوه أ
يصل إلى قلبها بأي طريقة، فلم يفعلها أبدًا.. كان يعرف سوء حظه،
لو حاول.

ولقد قدمها بالفعل بعد أن انتهت سنوات دراسته، ليتوقف عن رؤيتها.

وجه كل فتاة تمر به، واثقًا في أنه لن يراها من جديد

لكن لا يأس.

إنه ليس هنا من أجلها.. إنه هنا من أجل الدكتور محدي الذي عرض

لها ولا إجابات، ومن أجل مطلب وحيد طلبه منه الدكتور محدي قبل أ
يحاول قتل نفسه.. ابحث عن اثنين.. وإن عثرت عليهما.. فاقتلهما.

لكن المطلوب منه أولًا هو أن يجد من يعرف الدكتور محدي جيدًا

ووجه ياسم لا يشي بسنوات عمره التي تجاوزت الخمسين.. حين كا

رأس يستقر على جسده، لا في الجدار في غرفة نومه التي يسميها
عصر الآن مسرح الجريمة

الحكاية التي ما كان ليوسف أن يعرفها أبدًا.

• • •

طبيعي للهوس بالظهور الإعلامي

بعد أن بلغ يوسف قسم التدريج في كلية الآداب في الجامعة،
عن الدكتور محدي، وكانوا من المقربين له
يحتضنهم بأدق أسراره، وجميعهم يعرفون عن قصته ما لم تنشره
الصحف - وما لم يحدث على أرض الواقع - وكلهم صُدم في أدنى يوسف
لا نهاية له من هراء أصغى هو إليه في صبر، باحثًا طيلة الوقت عن
الوحيد الذي لن يتطوع بنثر لعابه وأكاذيبه في وجهه

في الأيام.. الحقيقة ستجدها عند من يتحاشونك.. هؤلاء الذين يعرفون
من اللازم ويحذرون أن تورطهم معرفتهم هذه بصورة أو بأخرى لو
عرف من هذه الشلة

في حالة يوسف هذه كان الوحيد الذي تحسه هو الأستاذ قدري،
ملخص وجهه حين عرف أنه صحفي، قبل أن يعلن أن لديه محاضرة
تحضير التأجيل، ليسرع مستعدًا تاركًا يوسف الذي أدرك على الفور أنه
سيجد عنده متعاونًا.. فقط عليه أن يستمع أولًا، لكن من أحدوا يرددون

الذي يُبقي فيه الأستاذ قدري محاضرته ينتظر أن تنتهي.

المحاضرات عادةً ما تمتد لساعة أو ساعتين على الأكثر، لكن، ولأن يوسف هو من ينتظر هذه المرّة، امتدت المحاضرة لثلاث ساعات كاملة.

نفلص وجهه ثانية ليقول:

ـ لا يوجد لديَّ ما أقوله.. أرجوك لا تضيّع وقتي

قرر يوسف استغلال الكارت الوحيد الذي يمتلكه ليُثير اهتمامه،

لحب

ـ الدكتور مجدي أخبرني بأنك على قيد الحياة.

يمسك بيوسف قائلًا.

ـ سنتحدث في مكتبي.

• • •

لم يكن الأستاذ قدري من مواليد القاهرة، ولا من محبيها، وكان

على وجهه بلا توقف، ونظرة الاحتقار من زحام المدينة وصخبها

من عجبه بلا توقف.. إنه رجل ريفي ولد وترعرع في قرية اعتاد

حيث الخضراء الشاسعة والهواء النقي والحضر الطارح

«القُلل» الرطبة دومًا، لكنه حارب ودرس وعمل باجتهاد طوال

من العمر ما لن يكفيه ليعترض أو أن يحاول البدء من جديد.. ورجل

حتى الساعي ما سيُديب جدار معدته، وأحدهم

ـ

ـ

ـ

في

حتى

ـ تحدثت الدكتور مجدي ليلة أمس.. زرته في السجن وتحدثت معه.

ـ وهو.. هل تحدث معك؟

ـ أخبرني بما أخبرتك به.. أن أمه لا يزال على قيد الحياة.

ـ فقط؟

تردَّد يوسف قبل أن يهز رأسه بأن «نعم»، مقررًا أنه لا داعي لذكر

التي لا ترحم.

ـ لقد فقد عقله إذن.. هذا ما توقعته.. مع الأسف!

ـ ربما.. لكني هنا لأعرف قصته قبل أن يحدث هذا كله.. لأعرف حقيقته

فشهد قدري وبدأ.

ـ لن أصبِّع وقتك في تفاصيل لا داعي لها. الرجل كان طبيبًا تمامًا طيلة الفترة التي عرفته فيها.. رجلًا يعشق التاريخ ويدرسه كما يدرِّسه. زوجته أيضًا كانت تعشق التاريخ، لكنها كانت تعمل مترجمة متخصصة في اللغات القديمة المندثرة.. والاثنان كانا يمضيان حياتهما بين الكتب والمراجع، فلم يكن لهما سواها، خصوصًا أن زوجته لم تكن قادرة على الإنجاب.

ـ لم تكن ماذا؟!

ـ هذه معلومة لا يعرفها الكثيرون.. أمام الكل كانا يرددان أنهما لا يملكان وقتًا للأطفال، لكني كنت أعرف الحقيقة

ـ [illegible]

ـ لكن [illegible]

ـ [illegible] بالطبع، هذا الطفل كان ابنهما بالتبني.. ما حدث هو أن [illegible] حصل على إجازة وسافر إلى روسيا ليزور المواقع الأثرية [illegible] وظل هناك حتى انقضت أجازته قبل أن يظهر فجأة ليخبرني بأنه [illegible] عثر عليه في إحدى دور الأيتام هناك.. أخبرني

[illegible]

ـ [illegible]؟ أيُّ طفل يطيق بعينيه هذه النظرات؟ دعك من أن محدثي [illegible] كان يشعر بأن هذا الطفل لم يكن طبيعيًّا لدرجة أنه قرر عرضه [illegible] في طب الأطفال لتشخيصه.

[illegible] وصف بحاسة الصحفي التي بدأت تنمو في أعماقه

- ما اسمها؟

- الدكتورة ليلى فاروق.. معي عنوان عيادتها.. أرجو ألا أكون قد تحمّست معه

[illegible]

إياها، مردفًا.

[illegible]

وأن مجدي توقف عن زيارتها منذ تُوفيت زوجته.

- أكانت وفاة طبيعية؟

- أتمنى هذا.. لكنها على الأقل لم تمت مهشمة الرأس بمطرقة. المهم أنها ماتت وتركت مجدي وطفلهما المحبب وحدهما. بعد وفاتها بدأ مجدي في التعبير حقًا.. [illegible] أولًا.. ألست من المهتمين بالتاريخ؟

- لا

- حسنٌ هذا.. الأغلبية يكرهون قراءة التاريخ لأنهم حمقى. إنهم [illegible] صعب مع ندرة مصادره وتضاربها، لكنه كان يعشقه.. جرّب أن تقضي سنوات من عمرك تحاول فك طلاسم مخطوطة ما لتثبت أنها تنتمي إلى عصر محدد، وستدرك مدى صعوبة ما كان يفعله طيلة عمره حتى تُوفيت زوجته.. بعدها قرر مجدي هجر دراسة التاريخ كله.

- كله؟!

[illegible] مفتوحة من الجامعة، واتبع [illegible] لأنه واحد في المائة من [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

طال صمت هذه المرأة، فلم ينطق يوسف بحرف، محاولًا استيعاب ما سمعه.. وحين يئس من العثور على تفسير منطقي قال:

ـ إذن وفاة زوجته لم تكن طبيعية

ـ ربما.. لكن لن يمكنك أن تثبت هذا أبدًا.. دعني أخبرك بشيء عن الطريقة التي ماتت بها زوجته.. في البداية أصيبت بقشعريرة لا سبب له. ثم توقف كبدها عن العمل [illegible] والقدرة على تحريك أطرافها.. ثم في النهاية [illegible] محدثي في أحد الأيام ويجدها جثة هامدة ترقد بجواره. والآن حول معي أن تبحث عن تفسير منطقي لإصابتها بهذا كله في أسبوع واحد لا أكثر.

ـ !!!

[illegible]

لأستاذة لا تزال مطروحة أمامنا: كيف ماتت زوجته بالضبط؟ الهدف علاقة بطلهما الغريب؟ لماذا قرر مجدي دراسة التاريخ كلية بعد وفاتها؟ وفي النهاية يأتي السؤال الأهم: لماذا قتل ابنه نفسه بعد البشعة؟

تراقصت الأسئلة في عقل يوسف لتصل إلى أسئلته، وليشعر بأن رأسه سينفجر. ومن وسط كل الأسئلة تصاعد صوت صوته خطه بعض

ـ لا يمكنك أن تطلق [illegible] *العمل.. لم يعد لديك مبرر للمواصلة.*

دهرٌ يوسف رأسه مؤمنًا، ثم وقف بطء معتذرًا أنه انتهى مما أتى من أجله، فابتسم قدري ابتسامة من توقع رد فعله ليقول

ـ لو أردت نصيحتي.. حاول أن تنسى الدكتور مجدي وكل شيء يعني

[illegible] حكم الإعدام فيه قريبًا وستنهي قصته عند هذا الحد، ولو كان هناك شيء تعلمته من كل السنوات التي درست فيها التاريخ فهو: هناك [illegible] تحدث بلا تفسير، فلا تضيّع عمرك محاولًا البحث عن شيء لا وجود له.

[illegible]

ـ [illegible].. آسف على تضييع وقتك!

ـ [illegible] حيل.. لكن الأستاذ قدري استوقفه متسائلًا

ـ [illegible]

ـ [illegible]

ـ [illegible]

ـ خرج من المكان وقد قرر أنها نهاية علاقته بالقصة كلها

• • •

كنه لم يكن قراره عند هذه المرحلة

نفسه لم تنته منه بعد وهو اقترب أكثر من اللازم حتى لو لم يدرك [illegible] خرج يومها من قسم التاريخ في مبنى كلية الآداب، ليجدها [illegible].. طالبة بحيلة مثله، لكنها تبدو أكثر آدمية، وعلى درجة من [illegible] تندّى في عينيها مزيج من البهجة والتوتر والقلق حين سألته:

ـ [illegible] الصحفي الذي أتى ليسأل عن الدكتور مجدي؟

ـ نعم.. لكني حصلت على ما أريده و...

ـ أنت لم تعرف شيئًا بعد.

ـ بل عرفت ما يكفيني وأكثر.. ولم أعد أ...

دفعته ثانية بإصرار:

ـ انه على قيد الحياة فعلًا.. ويجب أن نجده قبل فوات الأوان

ـ !!!

في ركن الكافيه القريب من الجامعة جلس يوسف يستمع إلى ما ستقوله [illegible]. وإلى أين معدته وهو يحتسي فنجان قهوة جديدًا.

[illegible] من، وهي تلتفت طيلة الوقت حولها كأن هناك مَن يراقبها

[illegible] تليق بعمرها، وإن لم تدل على ولع صارخ فيه بالموضة..

[illegible] لم تُنقص من جمالها شيئًا؛ بل أضافت له ذكاءً محببًا يشع

[illegible] في وجهها بحث يوسف عن بادية قدم بجلدها.

[illegible] لم يعارفها منذ أن رآها

[illegible] أولًا.. ما الذي تعرفه حتى الآن؟

فحكى لها يوسف باختصار كل ما مرَّ به منذ أن التقى معدي في السجن [illegible] من مكتب [illegible] صعب هي [illegible] صعب حولها، لتقول في النهاية.

ـ [illegible] أن هذا الطفل لم يكن طبيعيًا [illegible]

لي الوقت الذي كنت سأقنعك فيه بهذا.

ـ تقولين إنه حي وإن عثورك عليه قبل فوات الأوان؟

ـ سأشرح لك حالًا.

وتلفتت حولها مرّة أخرى قبل أن تبدأ

ـ أن طالبة في قسم التاريخ، في السنة النهائية. والدكتور مجدي لم يكن مدرسي فحسب، بل كان بمثابة أبي، وكنت الوحيدة المقربة له من بين جميع طلبته. أعرف أن كل من قابلتهم اليوم أخبروك شيئًا داته، لكنها الحقيقة هذه المرّة.. ربما لأني أشاركه عشقه للتاريخ، أو ربما لأني كنت مؤمنة بنظريته.. لكن.. أتعرف شيئًا عن الفترات

الآن، ولأني لا أملك وقتًا لشرح، أن هناك فترات مظلمة في تاريخ أي حضارة، وأن هذه الفترات لم تأت من قبيل المصادفة أو سوء الحظ.. بل كان هناك سبب وراءها.. أو بالأحرى كان هناك شيء

لم يفهم يوسف حرفًا واحدًا مما قالته ـ بالطبع ـ فكرر:

ـ شيء؟

ـ نظرية الدكتور مجدي.. هناك شيء ما هو المتسبب في كل الفترات المظلمة التي مرّت بها الحضارة الإنسانية. شيء موجود منذ البداية، وظل موجودًا حتى الآن.. شيء بحث عنه الدكتور مجدي

ـ في قبره بلا رأس.. لو لم يكن هذا دليلًا على وفاته فماذا يصنع

حسنًا، مات نعم.. لكنه لا يزال موجودًا.

ـ بالأحرى مرّة أخرى حولها لترد همسة هذه المرّة:

ـ سيعود بعد؟

ـ ربما!!

ـ ربما لك قريبًا.. استعد.. لن يتركك الآن بعد أن عرفت بوجوده.

علاقة بها.. واليوم سأ.

فقاطعته وقد علا صوتها بصورة لفتت انتباه رواد الكافيه

ـ إنه ليس قرارك بعد الآن.. حاول أن تفهم.. الشيء سيحدث ثم نجده أولًا وتقصي عليه.. لكني هنا لأساعدك.. سبحث عنه معك، وسنحاول تنفيذ ما فشل الدكتور مجدي في إتمامه.. هذا هو الحل الوحيد.

ـ أنت مُحقة.. لا يوجد أمامي سوى حل وحيد

على الطاولة ويقف معلنًا نهاية النقاش، فهبت هي بلهفة.

ـ أعرف أنك لن تصدقني الآن.. لكنك ستعمل قريبًا جدًا.. حينها ستجدني هنا أو في الكلية.. سأنتظرك.

ـ صدقني .. سيطول انتظارك.

ومن دون أن يمنحها فرصة للإجابة تركها وابتعد، فلم تحاول في اعتراض طريقه.. فقط بدت قاتمة

ـ حاول ألا تتواجد في مكان ما بمفردك أبدًا.

فتصاعدت ضحكات سوء حظ يوسف في رأسه وهو يغادر المكان من دون أن يجيب.

• • •

لهذا ترك سوسن واتجه إلى المطعم

رجال الداخلية في مصر! ـ ليجدوا الدكتور مجدي

متكوماً في ركن الصالة يرتجف هلعاً ودماءه تغرقه.. وفي الغرفة [illegible] جثة [illegible] الذي هو ليس [illegible] الجدار، [illegible] العديد من [illegible] التي [illegible] عصام [illegible] مع التقرير [illegible] خطه.. ثم بدأوا البحث عن أدلة، فلم يجدوا سوى المطرقة (سلاح الجريمة) والكثير من [illegible] في كل مكان.

[illegible]

[illegible]

العصبية التي توقف أمامها يوسف لأول مرة. لقد كانت هناك حروق [illegible]

[illegible]

إلى درجة الاحمرار!

ها هو سؤال جديد ينضم إلى قائمة الأسئلة الطويلة، وها هو صاحب [illegible]

[illegible]

[illegible]

ـ ما رأيك؟

[illegible]

[illegible] المطعم رأسه في [illegible] وتركه يتمنى أن [illegible] يأكله [illegible]

[illegible] ليخبره بما [illegible] في رأسه:

ـ الدكتورة ليلى التي فحصت ابن مجدي.. ربما كان لديها جديد [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

● ● ●

[illegible]

البدية في الهديه و

ـ أستاذ يوسف.. دورك

مكنها، لكن المعرضة البدية استوقفته مستكرة:

ـ ثمن الكشف.

ولا هو هنا ليكشف أصلًا، لكن المعرضة ردت باستهانة

ـ ثمن الكشف.. ثمن الكشف.. ثمن الكشف

يدفعه لها يوسف، لا لشيء إلا ليحرسها، لتتسم هي أخيرًا

ـ الدكتور هدى في انتظارك

ـ الدكتورة ليلى لم تأت إلى العمل منذ عام أو أكثر.. الدكتورة هدى تعمل هنا بدلًا منها، وهي لا تقل عنها كفاءة

ـ وأنا هنا من أجل الدكتورة ليلى!

صفقه؟

د عد لها يوسف جزءًا من نقوده، عارضًا صفقه

تعدت الابتسامة لتشع في وجه المعرضة البدية، وهي تدس النقود

ـ لكنْ، ولا يو

ولن تقبل لقاءك.

وتركها ليغادر المكان مستعدًّا للأسوأ.

• • •

عرف هدا حين بلغ قبلتها ليجدها تفتح له الباب قبل أن تمس يده جرسه لتدرة

ـ ادخل رجاءً.

هذه ـ أة تعيش بمفردها.. رائحة الوحدة تعم المكان، ويوسف ـ ي قضى حياته وحيدًا قادر على تمييز هذه الرائحة ببراعة، وها يأتي ـ ـ دامت الدكتورة ليلى تعيش بمفردها! فأين زوجها وطفلاها،

لآخر"؟ فمجرد كونها لها علاقة بابن مجدي اللعين كفيل بالإجابة عن

قهوة يُسهم في مشروع إصابته بالقرحة.

ـ

وأجابت:

ـ ما الذي تريد معرفته؟

ـ ابن مجدي مع أنني لم أذكره له

فابتسمت الدكتورة ليلى ابتسامة مريرة وقالت

ـ إذن هو لم يزرك بعد.. لا تنظر إليّ في حيرة هكذا.. فستفهم أكثر قريبًا.. لكن.. وإلى أن تفهم.. لديّ نصيحة بالغة الأهمية لك

قال هو بتمهل:

ـ عليّ ألا أتواجد بمفردي أبدًا مهما كان السبب.

ـ حاول.. أعرف أن هذا ليس سهلًا، وأنك مهما حاولت فستأتي لحظة ستكون فيها بمفردك.. لكن حاول.. حاول.. وامتنع بكل لحظة تحياها الآن.. فما أنت مُقدم عليه أسوأ من كل كوابيسك

ـ لهذا أنا هنا.. لأعرف ما أنا مُقدم عليه.

افترصت أنه مثلنا.. لهذا

ليوم لأجري فحوصاتي

ـ حسنًا.. لكن الأقل أخبرني عن هذا السؤال أين زوجك وطفلاك؟

ليلى وشحب وجهها لتأخذ في التنهد

ـ سأرحل حين تجيبين عن سؤالي.. أين هـ...

لكنها انفجرت فيه صارخة بمزيج من الهلع والغضب:

ـ اخرج من هنا حالًا.

فلم يشعر يوسف إلا بقدميه وهما تقتادانه إلى الخارج، قبل أن تغلق

أو التصديق

منحصر الزيارة.. لا شيء!

فقط هناك صوت سوء حظه يهمس في رأسه بخوف هذه المرة

ـ ولأي سبب ما سيعود إلى منزلك وحيدًا وأنها تهتك هذه

وحيدة

وكانت الخصلة الكبرى التي حكم بها عليه

وحيدًا هو أن يوسف عاد إلى منزله ليلتها وحيدًا ينتظر الأسوأ، ويتمنى

هذه الساعة، فلم يحدث أي شيء.. انتظر لساعات طويلة تساقط رأسه

فيها عدة مرات لفرط إرهاقه الجسدي والذهني، وفي النهاية نام بعمق

شديد من فرط

ثم في صباح هذا اليوم لم يستطع في يوم

من الأيام أن يحدد كيف بحث عن هاتفه ولم يجده، ثم سمعه

على مكتبه في محاولة للبحث عن أي رابط بين كل ما سمعه ورآه.

وقف أمام المرآة في الحمام ينظر إلى وجهه بتركيز، هو

يعلم أنه لا يزال حيًا، وأن على يوسف أن يعثر عليه ويقتله، وهو اعتقاد

أنه فيه صواب.. عصام يؤكد له أن الجريمة كلها غير طبيعية.

ليلى تؤكد له أن هذا الأمر كله غير طبيعي وأنه سيزوره قريبًا.

وكل هذا لا يصلح ليواجه به مدير التحرير الذي ينتظر منه الآن:

«حاول أن تحيب عن أيٍّ من هذه الأسئلة وسترى اشتراك سوف يُنشر في مجلة «المجلة»!».

فترح من السهل تحيل رد فعل مدير التحرير لو سمعه، لذا فور يوسف

كتفسير منطقي لكل ما حدث.

الدكتور محدي أصابه الحنون فقتل ابنه.. والدكتورة ليلى أصابها الحنون فتخلصت من روحها وطفليها، وهي الآن في منزلها

ابن الدكتور محدي الذي لا يزال حيًّا ويجب أن يُقتل قبل قوات الأو

ورجال المعمل الجنائي كلهم أ

الابن مدفون في الحدار ليدفنوا جسده مع جيرانهم.. نعم..

يجيب عن كل التساؤلات لو أردناه، ولكنْ من قا

التحرير في النهاية؟

[illegible]

[illegible]

[illegible]

• • •

[illegible]

[illegible] مدير التحرير كما توقعها يوسف.. يقولها ثم يطوي أوراق

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] حصل دائمًا.. مَن أصدقاؤه؟ أي مدرسة كان يذهب إليها؟ ما الذي حدث له بعد وفاة أمه؟ أكان الدكتور محدي يضربه أو يعامله بقسوة؟

[illegible]

[illegible] ليه بلا اسم مثير.. وكونه

[illegible] أهم طرف خيط أمامك يا يوسف.

[illegible] يوسف ملهمة حقيقية

[illegible]؟

[illegible] حصل دائمًا.. مَن أصدقاؤه؟ أي مدرسة كان يذهب إليها؟ ما الذي حدث له بعد وفاة أمه؟ أكان الدكتور محدي يضربه أو يعامله بقسوة؟

[illegible]

[illegible]

[illegible]

فقاوم يوسف أن يشرح له وجهة نظره في كون هذا الطفل العجس
صحية، وسأل

ـ هل يمكن أن أحصل على هذه المعلومات الآن؟

الدكتور مجدي لا يعرفون أكثر مما كتبه بالفعل.

ـ الدكتور مجدي ذاته لا يزال حيًا.

ـ لكن

ـ لا يوجد أحد في مستشفى السجن

لكن المستجوبين

حقائق.. أريد أسرارًا.. أريد إثارة.. فقط لا تتركه يحاول الانتحار
مرّة ثانية لو استطعت.. على الأقل إلى أن تحصل منه على ما تريده

عليه أي فرصة للاعتراض.

إلى مستشفى السجن إذن.. واللقاء الثاني مع الدكتور مجدي

سيكون من أقسى التجارب التي سيمر بها يوسف في حياته.

لإطلاق

* * *

وللسجون برودة تصداق الوحدة واليأس والتعاسة، فما بالك
مستشفى سجن؟!

حين حاول يوسف في قسم السجن المخصص
لا يوقف مصدوم من حالات
يكاد يمكن كل
يحتجز في
في مصلحة

حين
حيث
حيث للأحمق الذي سيتولى منصبه في المجلة من بعده، وهذه
لم تكن بل سيفعلها.

سيخرج من المحكمة
على
أكثر من اللازم، وأنه لم تعد أمامه فرصة للتراجع أو
المحاولة، استقبل
المحاولة
المحاولة

؟
في
حيث
مستشفى

ـ حاول أن تستمع له بالحديث طويلًا.. لا ترهقه ولا تضيّع وقتك في
سفاسف الأمور.

ـ لن افعل

ـ سأسمح لك بحصص دقائق معه لا أكثر . ومهما حدث لا تسمح لأي شيء يمكنه استخدامه ليكرر محاولة الانتحار.. أي شيء . وتزكى منديلًا ورقيًّا

ثم فتح باب الغرفة وأشار إليه بالدخول، فتنهد يوسف باستسلام ودخل

ففي الدقيقة الثالثة سيموت الدكتور مجدي!

• • •

كان الدكتور مجدي في أسوأ حال ممكنة.

له.. هذا هو ما تبقى من الدكتور مجدي، وهذا هو ما كان على يوسف

بين يوسف والدكتور مجدي بالضبط.

ويوسف الآن يقف يحدق في مجدي عاجزًا عن العثور على بداية مناسبة . ضيع بضعة مكالمة.. أنت الآن تقف أمام رجل حاول الانتحار،

محكوم عليه بالإعدام لأنه قتل ابنه الذي هو ليس ابنه، وليس طفلًا،

يوسف أن يتأكد من أن مجدي لا يزال صالحًا للتعامل الإنساني،

مجدي.. أنا يوسف الصحفي.. لقد التقينا من قبل.

ويتعذر أي رد فعل منه، فلا يتكرم عليه سوء حظه بأي شيء،

مجدي لم ينظر تجاهه حتى، ولم يبدُ عليه أنه شعر بوجوده أصلًا..

لأني أحتاج إلى مساعدتك

حتى ولو كان لا يعرف ما هي المساعدة التي يحتاج إليها حقًا.. حتى

بأن مجدي لم يعد يصلح لتقديم أي مساعدة لأي شخص

وأربعون ثانية

لشعر بالرعب.. يقول:

ـ لكني لا أصدق.. كل ما عرفته منهم غير قابل للتصد
لم يكن طبيعيًا لكنه مات.. لقد رأيت ما تبقى من جثته في الشقة
منه لأن هذا ما يريده مجدي في النهاية
بعد أن قتله بنفسي.

فيقول الدكتور مجدي أخيرًا بصوت يخرج من فمه كالفحيح

ـ إنه يعرف أنك تسعى وراءه.. يعرف ولن يسمح لك بإيقافه

يسمع يوسف أحد الممرضين يصرخ في
عن كيفية الوصول إلى جثة ، يبحث عنه ، يسحب الكرسي
مجدي به على عجل ، يهدئ من روعه ، يهدد ، يحذر ، يقول
هذا ، يقول إنه يعرف أن ما يحدث هو بسبب
وهي بعيدة في الغالب لأنها ليست

دقيقتان وثلاثون ثانية

ويوسف الآن يشعر بأنه يضيّع وقته لا أكثر.. يشعر بأنه لن يحصل
على شيء ، منذ أن جاء إلى هنا وهو يحاول
يهدئ من روعه ، فيحتمي بحجة أن ما يحدث

ـ دكتور مجدي.. دعنا نتفق على حقيقة واحدة.. ابنك الذي هو ليس
ابنك كما تعرف جيدًا ، يبحث عنه ، يريد
لأنه يعرف أنه في مكان ما يحتفظ
بالإعدام و..

يقاطعه مجدي بصرخة تعرف هو وجميع

ـ يبحث عني من جديد.. يجب أن نستعد.. ابحث عنه في التاريخ
عن أي شيء

يقول يوسف لا أحد يفهم ما يحدث هنا
وهو نفسه لا يكاد يصدق ما يحدث ، يريد أن يعود إلى
بيته ، يريد أن يستيقظ من هذا الكابوس ، فقط

إلا أن ، أتاه الأمر من مدير التحرير طلب مني المجيء وها أنا ذا
لأن هو من
أخبرني بأنك وحيد في هذه
يحتاجك
يوسف في مكان
يقاطعه

يقول يوسف بعد تحقق من
كيف عرف أني وحيد؟

لا يجيبه مجدي بل تدور عيناه في المكان كأنما تبحثان عنه.. عن ابنه!

كيف عرفت أنني وحيد؟

يكرر يوسف بعصبية هذه المرة.. ويلتفت إليه مجدي ليقول بأسى

إنه من أعدته.. إنه خلقني.. لكني لم أكن أعرف.. صدقني لم أكن
أعرف!

هي ترسمه التي
يقول يوسف بعد تحقق من

ولأخير، لكن لتركه هذا الحين. الآن هو يشعر ببرودة عجيبة تغزو المكان، وقبضة مثلجة تعتصر روحه ذاتها، فيقول:

[illegible]

[illegible]
لكنها ستدفع الثمن هي الأخرى.

فيصرخ يوسف صارخًا:

- سوسن لا تعرف أي شيء.. سوسن وقدري والدكتورة ليلى لا يعرفون أي شيء.. كلهم أصابهم الحزن، وكلهم يرددون [illegible] أصدقها مهما حاولت.. ابنك مات وهذه هي نهاية القصة!

فيبتسم مجدي ربما لأول مرة منذ سنوات طويلة، لكنها ابتسامة مريرة حزينة، ويقول:

- بل هي بدايتها.

دقيقة وأربعون ثانية

ويوسف الآن يقرر الرحيل.. لقد اتخذ قراره قبل أن يدخل عيادة [illegible] حصل على ما يكفيه ويريد لينفذ قراره هذا.. هكذا يقف، ويقول بلهجة لا تقبل النقاش:

- دكتور مجدي.. أشكرك على وقتك.

ويستدير ليهمّ بالرحيل، وعقله يبحث عن تفسير لبرودة المكان المتزايدة العجيبة، لكن مجدي يستوقفه قائلًا:

[illegible]

[illegible] هنا يقول: «وما قيمة هذه المعلومة بعد موت ابنه؟» لكن [illegible] يطالب به يوسف وهو يسمع هذه المعلومة من رجل يدّعي [illegible] الذي مات هو قاتله؟ ابنه الذي هو ليس ابنه، وليس عقلًا، والذي [illegible]

لهذا يتجه يوسف إلى فراش محدي مأخوذًا، بينما يقول محدي

ـ ميرورك قريبًا.. لقد حاولت أنا منعه، لكني.. لكني فشلت
سأدفع الثمن.

فيحدق فيه يوسف داهلًا متجاهلًا كل ما قاله، ليسأل في الهدبه

وهنا أرجوك أن تتذكر أنا نتحدث عن رجل قضى عمره كله وحيدً

متأخرًا.. متأخرًا جدًّا.

أربعون ثانية.

أنه عاجز تمامًا عن التقاط أنفاسه ليتوتر.

الأطباء.. يجب أن يتدخل أحدهم ليفك الدكتور مجدي،
عنه، لا أن يتخلص من حالة الذهول المسيطرة عليه.

يحاول محدي استخدام كل ما تبقى في جسده

سيرورك؟

سمع يوسف همسه من ذهوله أخيرًا الهمس:

ثم سمع خلفه من يقول على عجل

طبيب سيرورك؟

ابحث عنه في التاريخ.. وحين تجده لا تتردد في قتله.

أنه الذي دهوا حتفه لكنه لم يمت بعد.. ثم إنه يعرف أنه سيموت

تكرّ ممر المستشفى حتى أمامه، وكأنما وحل الجميع..

أعلى:

أي طبيب [illegible]

يتردد صدى صوته في الممر ويتلاشى من دون أن يجد

ست ثوانٍ

يعود يوسف إلى الغرفة وقد قرر التصرف بنفسه حتى وإن لم يجد

خمس ثوانٍ

يجب أن ينقذه.. يجب.. لكن كيف؟

أربع [illegible]

ثلاث ثوانٍ

يحتضر مجدي ما تبقّى من حياة في جسده، ليطلق أخيرًا بصوته الأوب
إلى الحشرجة

ـ اقتله

ثانيتان

يصرخ يوسف بيأس وقد أدرك أن صراخه لم يعد له جدوى.

[illegible]!

[illegible]

[illegible]

[illegible] لحظة واحدة هوت عشرات المطارق الحجرية على جسد الدكتور
[illegible] عظامه بصوت مسموع امتزج بالصرخة الأخيرة التي

[illegible]

[illegible] تَمُتُّ له بصلة ـ إلى جسد رخو بشع لا توجد فيه عظمة

[illegible]

* * *

[illegible] وحين استرد قدرته على التفكير والاستيعاب، وحين
[illegible] التي أحرزوها معه كان أول ما فعله هو أن اتصل بمدير

[illegible] وأنهى المكالمة في وجه مدير التحرير الذي انفجر

[illegible]

[illegible]

لكن الآن لم يعد هناك محل للشك أو الجدال.

معها.

٧

وبصفة عامة كان هناك وقت كانت فيه سوسن فتاة طبيعية تعيش وتحلم وتدرس وتحب . وكان هناك سامح أيضًا!

لم تكن سحر تعرف الآن تلك الفتاة الغريبة الأطوار التي تتلمذت حولها طيلة وقت ورددت نظريات تاريخية عجيبة، لكنك لو رأيتها قبل أن يبدأ دورها في قصة تعرف أنها كانت تحيا حياة هادئة أقرب إلى التقليدية كذلك، وكل ما كان من حولها تشير إلى نهاية سعيدة تنتظرها متمثلة في نجاح في الثانوية بتقدير كاف للتعيين فيها، وفي سامح زوجًا لها في حين تعيش في بهيج

كانت سحر فتاة مجتهدة تعشق التاريخ حقًا ـ لا تدرسه مضطرة لأن سيدرسه في الثانوية العامة أجبرها عليه ـ عشقًا لازمها منذ طفولتها، وتلخصه [illegible] الذان وحدا أنها لا تقرأ قصة إلا إذا كانت بدايتها تقول: في [illegible] زمان» أو «في زمن بعيد بعيد». تلك القصص التي تحكي عن [illegible] الذروع.. أو قبائل غزت العالمات.. أو جنود حاربوا وهلكوا في [illegible] بعد تذكر حتى متى حدثت، فقرر والداها أن التاريخ هواية

وحين كبرت لم تعد القصص والروايات التاريخية
اقتناء أي كتاب يتحدث عن تاريخ أي حضارة في أي مكان
هذا لحسن حظ والديها، فكتب التاريخ
يقرأها في عصر اندثرت فيه القراءة عامة، وقر
جارهم الخجول الذي تبادل معها الطرات والهمسات دون
الحب التي نطقا بها، والذي كان ينتظره مستقبل مشرق بعد أن يشع
سوسن، وكانت هي نحبه، إلى أن أتى اليوم الذي اكتشف فيه أن حبه
من دون أن يتبادل معها كلمة وداع واحدة.

هكذا تنتهي أغلب قصص الحب عادة، وهكذا تجد سوسن وقد
بين كل طلبته، وليقرر أن يمنحها اهتمامه وتشجيعه وثقته لأحقّ
في البداية لاحظ ذكاءها وقدرتها الخارقة على الحفظ والاستيعاب

يصبح حبها بالطمع

سوسن، بكل امتنان أدخلها الدكتور مجدي عالمه، ليحوّل
إلى أسلوب حياة اتبعته سوسن بكل تفانٍ وإخلاص، تاركة
مجدي يشكل طريقة تفكيرها كيفما يشاء، فالرجل كان يستحق
كل

مجدي

* * *

كون أن هذا التكرار ليس تفسيرًا مقنعًا لما هو سؤال.. سؤال

مجدي لم يكن ممّن يبحثون عن أسهل الحلول، وحين
بطريقته، صارحته بأنها ساورها

شدت الدهشة في عينيها الذكيتين، وسألت:

ـ عثرت عليه؟ كيف؟

ليجيب الدكتور مجدي بصوته الأبوي الذي لم يكن تسمح له بعد

ـ بسنوات الدراسة يا عزيزتي.. لا تنسي أني أمضيت عمرًا ومعه ثم إني أمضيت سنوات طويلة من حياتي محاولًا البحث عن لسؤال واحد، وفي بعض الأحيان ترضى عنّا الحياة لتمنحنا

في الوقت ذاته.. وفي كل مرّة كنت أصل إلى طريق مسدود وحيرت أترك الأمر كله لشأنه.. لكني في النهاية عثرت على الشيء الوحيد الذي يربط بين كل العصور المظلمة

ـ وما الرابط بين هذا كله؟

ـ شيء ما.. هناك شيء ما يربط هذا كله.. شيء موجود ومعه به أحد، لكنه لعب دورًا فارقًا في تشكيل التاريخ دائمًا لا أعرف إن كان ماديًا حتى أم لا، لكني على يقين بوجوده.. ولهذا قررت البحث عنه وإعادته

ـ إعادته؟!

إعادته.. لقد توصلت إلى طقوس استدعائه وأعتقد أني فهمت جزءًا لا بأس هذه الطقوس لازمة لإعادة هذا الشيء.. لو عثرت عليه الطقوس بالطريقة الصحيحة، فسأجد أخيرًا إجابة سؤالي بحثت عنها طويلًا.

صمتت سوسن هذه المرّة ولم تصارحه بأنها لم تفهم.. خشيت فعلت، وفي أعماقها لم تصدق موضوع الطقوس هذا ولم تشعر به أيضًا.. كلّ ما قررته يومها هو أن أستاذها ليس بأحمق، وأنه في إنجاز ما، فلم تشأ أن تعارضه أو تجادله، ليقول هو بعد أن

سيطول سفري.. لكني سأعود ومعي

ولم يحاول الدكتور محدي الاتصال بها بعد عودته قطُّ

مرَّت أيام فأقنعت سوسن نفسها بأنه يحتاج إلى بعض الوقت [illegible] عاد بعد سفر طويل ومعه ابن من زوجته التي كانت تظن هي أنها لا تحبه ولا بد أنه مشغول.. مرَّت أسابيع فشعرت سوسن بالقلق وخشيت أن [illegible] مريضًا أو يواجه مشكلة ما، لكنها لم تجرؤ على التدخل [illegible] أن الدكتور محدي يثق بها ويختصها بأدق أسراره، ولو كان [illegible] ما حدث ولا يريد أن يحرجها بهذا حقه

لكن، وبعد أن مرَّت أشهر طويلة على عودته من دون أن يزورها [illegible] حتى، قررت هي زيارته.

كان أداؤها الدراسي قد تأثر بغيابه، وكانت تقضي ساعات طويلة يومها شاردة تحاول تخيُّل ما فعله الدكتور محدي في روسيا [illegible] وما سر اختفائه، ليطمئن قلبها أنها تحبه.. القاعدة تقول إن [illegible]

عندها كان هناك.

مع الدكتور محدي وألعابه التاريخية، وسر انقطاعه عن الجامعة بعد عودته من روسيا.

[illegible] وسعاد هي تقف عاجزة في حيرتها سمعت صوتًا باردًا يبعث [illegible]

[illegible]

[illegible] وتقفز في مكانها [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] استغرقت سوسن لحظات في التفكير فيهما، ليفتح الدكتور [illegible] الشقة فجأة، ولتتقافز سوسن مرَّة ثانية بمجرد أن رأته

[illegible] الدكتور محدي التي يبدو فيها أنيقًا متسمًا بثقة والتي [illegible] في معه؟ هذا هو الدكتور محدي الذي تعرفه سوسن والذي قضت [illegible] تتعلم منه وتستمع إلى نظرياته.. لكن من فتح باب الشقة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الدكتور محدي.. آه.. آه...

[illegible]

[illegible]

أحيرة قبل أن تسرع متعلة ودموعها تسيل على وجهها عاجزة عن

تبتعد عن المكان أكثر فأكثر.

يومها قضت ساعات طويلة تجوب الشوارع وتبكي حتى جفت دموعه

الأعطية وقد استعادت قدرتها على البكاء من جديد.

انصوت البارد المخيف.. مَنْ صاحبه؟ وكيف شعر بوجودها؟ وما

يقصده بأن دورها سيأتي لاحقًا؟

بالطبع لم تحصل سوسن على إجابات لأيلتها.. فقط أخذت ترتجف

وتبكي حتى غلبها النوم فنامت.

وفي اليوم التالي عرفت أن زوجة الدكتور مجدي ماتت

* * *

وكما بدأت سوسنُ سامح حاولت تسيان الدكتور مجدي

مجدي ذات يوم ليبعدها هو الآخر من حياته وإلى الأبد

* * *

في القصة بدأ مع هذه الزيارة العجيبة، ولو كانت تعرف

لها بعدها لما قصت مع الدكتور مجدي لحظة واحدة

وحيدة في الكافيه ذاته الذي اعتادت الجلوس فيه بعد

تحصل على بضع ساعات من القراءة من دون أن يقاطعها أحد،

الدكتور مجدي

تستعدي.. في هذه الحالة يجب أن تعثري عليه وأن تقتنصه

وهي بداية عجزت معها سوسن عن قول أي شيء.. لن تجد معها ما تقوله، وستكتفي بالتحديق داهشة في محمدي ندي و

ـ سامحيني يا سوسن.. لم أكن أتمنى أن تصل الأمور إلى هذه الدرجة لكنك على الأقل ستعرفين ما لم أعرفه أنا منذ البداية

ثم بدأ يشرح لها كل شيء.. فلم تقاطعه سوسن.. ولم تنطق بعد أن انتهى

وبعد أن تركها ظلت مكانها لساعات طويلة تترنح وتحاول تستوعب ما سمعته

وفي اليوم التالي عرفت أن الدكتور محمدي قتل امه.

• • •

وحين وجدت يوسف ينتظرها أمام المدرج في الجامعة وكأنها كانت تتوقع مجيئه.. لكنها حين رأت شحوب وجهه شعرت بغصة في صدرها وسألت:

ـ كيف قتله؟

فحكى لها يوسف ما حدث باختصار مقتضب لتحول كامل

قصة في خلقها.. لقد مات أمتدهد، والآن يأتي دورهما.. احتاجت بعض الوقت لتتمالك نفسها ولتقول في النهاية

ـ يجب أن نجلس لنتحدث أكثر.. لم يعد هناك وقت

فلم يعترض يوسف.. ولم يجادلها هذه المرة

فقادها باستسلام إلى حيث سيقرران ما عليهما فعله

٨

في المرة الأولى التي رآها فيها كانت سوسن

الخوف.. الخوف والعطش!

لديه القدرة على تقبل أي شيء، قبل أن تنتهي هي

- إذن فقد رأيت ما يكفيك لتصدق

هكذا بدأت سوسن.. وهكذا أصغى لها يوسف صامتًا، لتو

[illegible]

[illegible] هذه كانت لعنته التي مارسها طويلًا قبل أن يختفي فجأة [illegible] دون سبب مفهوم - إلى أن اكتشف الدكتور مجدي وجوده [illegible] يبحث عنه.

[illegible] لبحثت لتمنح يوسف فرصة للتعليق على قرار الدكتور [illegible] لم يعمل.. فقط الحمقى من يرددون عبارة «لو ليته ما فعل» [illegible] على إعادة الرمز إلى الوراء، أما يوسف فيملك من صوه الحظ [illegible] أن ما حدث قد حدث ولم يعد هناك مفر من مواجهته.. لهذا [illegible] أصلت سوسن مجيبة عن سؤال يوسف الذي لم يسأله

[illegible] استدعاه، وهو لم يكن بالأمر اليسير، لكنه وحدها ووجده [illegible] الطفل إلى هنا ورغم أنه ابنه

[illegible] أن هناك طقوسًا خاصة لاستدعاء الشيء.. هناك طقوس [illegible] عنه.. طقوس بحث عنها الدكتور مجدي طويلًا

ـ لقد استغلت منه

ـ أحسنت عملًا . لا أصدق أنك كنت في محنة اسمها «المحنة»

الذي دفعك للعمل فيها؟

فأجابها يوسف بسخرية لم تفهمها:

ـ حسبي الله

ثم بدأ قراءة أسماء الكتب في القائمة، فلم يجد فيها اسمًا واحدًا يد

للقراءة . قالت سوسن وهي تستعد للرحيل:

ـ لا يوجد لديَّ شيء آخر لأقوله.. ابدأ فورًا.. ولو عثرت على

شيء فستجدني هنا

فطوى يوسف الورقة ودسها في جيبه ليقول

ـ لديَّ سؤال أخير.

ـ اسأل.

ـ لأن هذه المحادثة لا تحدث إلا في روايات الرعب

يا عزيزي.. وعلى أرض الواقع

وقفت لترد مبتسمة وبنهجة درامية لازمة.

• • •

عاد يوسف إلى شقته حاملًا أطنانًا من كتب التاريخ وذكريات

يوم بدأ بتكليف من مدير التحرير، فمثل الدكتور محمدي أمامه

لقائه بسوسن، فأدراكه أنه أصبح جزءًا مما يحدث رغم أنفه..

يستحق أن ينتهي باليوم.. نعم.. اليوم هو الخيار الأفضل بعد

سيستيقظ وقد استعاد قدرته على التفكير ليبدأ مهمته

الشاقة التي تفرغ لها تمامًا.

• • •

لن ينسى يوسف هذه الليلة ما تبقّى له من عُمره، فيها التقى عبد الشو
ترتيب حدوثه.

والمشهد أمامنا الآن واضح وسهل تحليله.. يوسف يعبر
النحيل نائم على فراشه في غرفة نومه المصدوم إذ
تصدر ذات الأصوات التي تعتاد الشقق إصدارها لمن يعيشون
فيها.. عقارب الساعة تتحرك ببطء مسطم مقتربة من منتصف الليل ت
وبعض الهواء
لغرفة من دون أن يستمتع برقصها أحد.

في الصالة ترقد كتب التاريخ على العدولة الوحيدة في المكان،
شعرها، قبل أن تسرع هاربة لشعرة شيء ما سيحدث بعد قلي
لكن.. وفي اللحظة التي أشارت فيها العقارب إلى تمام منتصف
حدثت عدة أشياء في الوقت ذاته، لو رآها يوسف لتقوس
شعره قبل أن يولي دبره هاربًا من المكان هو الآخر، لكنه كا
حظه هذه المرّة.. أو لسوئه!

في لحظة واحدة انقطعت الكهرباء عن الشقة لتحمد أصواتها، و
رجاج بغرفة النوم لتتوقف الستائر عن الرقص مرعوبة، وعزف
برودة عجيبة شعر بها يوسف على الرغم من نومه فتح عيو

يوسف من هو وأين هو ليتصاعد ذلك الصوت البارد العابث من ركن
غرفة النوم

أنت تحت عني

سمع يوسف الصوت فانتفض معتدلًا وقد تذكر مَن هو، وأنه في غرفة
نومه بالفعل، بيد أن مصدر الصوت من الظلام المطبق على المكان، والذي
يبعث من جديد

هل أنت من
بصحبته

ونتفض يوسف من جديد من دون أن يجرؤ على التحرك من مكانه،
بعد عن رؤية أي شيء من حوله، كأنما فقد بصره.

يستطيع في
حين

تحقق يوسف أن يكون هذا الصوت هو صوت سوء حظه يداعبه
من
وصوت

هل أساعدك؟ *الساعة لن تكون ممتعة لو لم أساعدك.*

ويتلفت يوسف إلى مصدر الصوت ليجد الظلام أمامه يتوهج، قبل أن
يتجلى له جسد طفل صغير في العاشرة، يقف ينظر إليه

قسيتين.. الطفل ذاته الذي رآه يوسف في الصوره والذي رأى ر
العيبين.. وكان يتسم!

حدقه، ليقول الطفل الذي ليس طفلا

تنتظرك هناك، في مرلها

فانها فأدرك يوسف على الفور أنه يتحدث عنها.. عن الدكتو

لم يفهم كيف عرف أنها الدكتورة ليلى، ولا لماذا، لكنه
المقصودة، فلم يسأل ولم ينتظر الشيء رده، بل قال

ـ في مرلها ستعرف أكثر مما أنت مُقدِّم عليه.. وبعدها ستس
ستستمتع كثيرًا، وهذا ما أعدك به.. لكنك في النهاية

واقترب منه الطفل وقد تلاشت ابتسامته ليردف بصو
حسد يوسف مرَّة ثالثة

ـ ستدفع الثمن.

وفي المحطة التالية عادت الحية لمصباح العرفة فجأة بيضاء بعو
وليعتق يوسف عينيه مرغمًا، قبل أن يفتحهما ليجد أنه عاد إلى وحدته
جديد.. تلفت حوله داخلًا فلم يجد أحدًا. انتزع نفسه من الفراش وحد
شقته كلها فلم يجد أحدًا.. بحث أسفل الفراش وفي حجرة ملابسه وا
الثلاجة فلم يجد أحدًا.

على الرغم من هذا أسرع مغادرًا المكان ليدخل سيارته ولتحكم

٩

وهذه المرَّة لم يجدها في انتظاره.

وأمام منزلها جلس في سيارته يحاول استجماع ما تبقى من أعصابه، محاولًا إقناع نفسه بأن ما حدث كان كابوسًا لا أكثر . فلم يقتنع وفي رأسه تعالى صوت سوء حظه يردد مؤكدًا:

ـ لم يكن كابوسًا.. لقد كان هو.. هو.

فهمس يوسف لنفسه:

ـ أعرف.. اخرس كي أتمكن من التفكير.

ـ التفكير في ماذا؟ أنت لن تحاول التسلل إلى منزلها.. أليس كذلك؟

فلم يجب يوسف وإن أدرك أنه يعرف إجابة السؤال.

بالطبع سيدخل!

لقد تلقى زيارته الأولى من هذا الشيء، وهو الذي أرسله إلى هناك ليحصل على طرف الخيط.. إنه يريد مساعدته ليجهزه للمعة . أي لعنة؟ سيعرف حين يحصل على طرف الخيط.

وطرف الخيط ينتظره هناك.. في الداخل.. في منزل الدكتورة ليلى سي رفعت لتحدث إليه، والتي لن تغيِّر رأيها لمجرد أن يوسف قرر زيارتها بعد منتصف الليل بساعة أو بأكثر.. الحل إذن هو التسلل إلى منزلها من دون أن تشعر به.. لكن...

كيف؟

يوسف سيِّئ الحظ، نعم.. كان يعمل صحفيًّا في مجلة اسمها «المجلة»، نعم عليه الآن أن يبحث عن شيء ما غامض قديم قِدَمَ التاريخ ذاته ليقتله، نعم لكن أن يتسلل إلى منزل دكتورة تعيش بمفردها فهذا شيء آخر.. شيء قد ينتهي بكارثة لو شعرت به.

ـ لو شعرت بك فستبلغ الشرطة وسينتهي بك الأمر في السجن.. سيحدث لك ما حدث للدكتور مجدي.

قذف سوء حظه في رأسه، فانفجر صارخًا:

ـ قلت لك اخرس!

فحرس الصوت في رأسه، وبدأ هو في تجهيز الخطة التي سيقتحم بها منزل الدكتورة ليلى.

* * *

وأمام باب الفيلا الخلفي وقف يوسف محاولًا استرجاع كل ما كتبه عن حوادث السرقة، علَّه يجد طريقة مناسبة للدخول.

هناك من يقتحمون الشُّقق بغرس أداة خاصة في الرتاج لفتحه، لكنه لا يملك تلك الأداة، ولا يجيد استخدامها.. هناك من يدهنون الرتاج بأداة

لحام، لكنه ـ مرّة أخرى ـ لا يملكها، ولن يخاطر بالصوصاء التي ستحدثها هناك من يركلون الأبواب برشاقة لتتحطم من إطارها، لكن هؤلاء لا وجود لهم إلا في الأفلام الرديئة.. وهناك ذلك اللص الذي كتب عنه يوسف ذات مرّة، والذي كان يعتمد على حقيقة أن أصحاب الفيلات يتركون مفتاحًا احتياطيًا مخبأً في مكان ما خارج الفيلا، ليتمكنوا من دخولها في حالة ضياع مفاتيحهم.. هكذا كان اللص يبحث بدأب وصبر عن المفتاح الاحتياطي حتى يجده ليدخل الفيلا ببساطة كصاحبها ويتركها وقد أخذ منها كل ما خفّ حمله وعلا ثمنه.

والآن يتمنى يوسف لو يفارقه سوء حظه ولو لساعة، لتكون الدكتورة ليلى ممن يتركون مفتاحًا احتياطيًا في مكان ما حول الفيلا، وليجده ليبحث المكان من دون أن تشعر هي به، فقرر سوء حظه تحقيق أمنيته، لكنه قال

ـ *حتى لو دخلت.. فما الذي ستبحث عنه في الداخل بالضبط؟*

ـ طرف الخيط.

ـ *والذي هو... أنت لا تعرف ما تريد العثور عليه.*

ـ سأعرف حين أجده.

فلم يجادله سوء حظه هذه المرّة وانحنى حبًا ليتركه يبدأ البحث عن المفتاح الذي سيقوده إلى الداخل.. إلى حيث لقاؤه الثاني مع الدكتورة ليلى

* * *

وأنت تعرف أنه عثر على المفتاح في النهاية، فأنت تعرف الآن أنه سيدخل، وأنه سيلتقي الدكتورة ليلى ثانية.

عثر على المفتاح مخبأً في مكان ما قُرب الفيلا.. لن يُمكنني أن أخبرك ـ رغم أنه قد يأتي اليوم الذي ستحاول فيه دخول الفيلا أنت الآخر لتقوم بما قام به يوسف ـ والفيلا لا تزال هناك حتى يومنا هذا، ولا تزال الأسرار التي لم يعثر عليها يوسف ليلتها موجودة تنتظر من يجدها لتدمر حياته.. ما يهمك الآن معرفته هو أن يوسف عثر على المفتاح ليتسلل داخلًا من الباب الخلفي، ويجد المكان في انتظاره مظلمًا باردًا، يحوي طرف الخيط الذي عليه أن يبحث عنه ليبدأ اللعبة.

وفي اللحظة التي دخل فيها يوسف الفيلا ارتجف لحقيقة أنه الآن في الداخل، وأن الدكتورة ليلى ترقد الآن في غرفة نومها من دون أن تشعر بما هو وأنه الآن ـ ومهما كان مبرره ـ يُعتبر لصًا، ولو شعرت هي به فسيكون من حقها أن تبلغ عنه أو أن تقتله حتى لو أردت من دون أن يلومها أحد.

وأنه الآن يملك ما طلبه منه هذا الشيء من دون أن يحرؤ على مخالفة أوامره!

هذه النقطة بالذات ستوقفه طويلًا، ومنذ اللحظة التي قاد فيها سيارته متجهًا إلى هنا، لكنه لم يعثر لها على تفسير يرضيه.. الشيء أخبره بأنه يحاول مساعدته.. لكن لماذا؟

لماذا لعبته؟ وما هي لعبته؟ وكيف ستنتهي؟ بدفع الثمن كما وعده شيء؟ وفي هذه الحالة.. لماذا استجاب له؟

لماذا هو لم يحاول الهرب والنجاة بنفسه من هذا كله؟

كلها أسئلة سيضمها إلى قائمة أسئلته التي ليس لها إجابات، وكلها أسئلة عليه أن يتجاوزها الآن ليبدأ بحثه عن طرف الخيط الذي

سيساعده على فهم ما هو مُقْدِمٌ عليه.. والسؤال الأهم الآن هو: من أين سيبدأ بحثه؟

الفيلّا أمامه واسعة مكونة من طابقين، وعدد لا بأس به من الغُرف، وفي كل غرفة عشرات الأشياء، وفي كل شيء احتمال أن يكون هو طرف الخيط الذي عليه أن يعثر عليه.. دعك من أن الساعة الآن تجاوزت الثانية صباحًا، ومن أنه لن يقضي يومه كله هنا.. الشمس ستشرق بعد ساعات قليلة، وحبيبه ستستيقظ الدكتورة ليلى، وسيكون من الأفضل له ولها أن يكون قد عثر على ما أتى من أجله ورحل وإلّا... هكذا وقف وبدأ على ضوء القمر البحث بعينه عن نقطة البداية، ليتوقف عند صورة الدكتورة ليلى وزوجها وطفليهما، والتي يبتسمون فيها بسعادة يبدو أنها لم تجد للفيلّا طريقًا منذ زمن طويل

تلك الصورة التي رآها يوسف لتسري قشعريرة باردة في جسده من دون سبب مفهوم، قبل أن يقرر أن نقطة البداية ستكون هناك.

في قبو الفيلّا.

* * *

لماذا القبو؟ لأن كل الأسرار توجد في القبو دائمًا!

ضع نفسك مكان يوسف في هذه الليلة وستجد نفسك تتجه إلى القبو لا شعوريًّا وأنت تتوقع الأسوأ في انتظارك، لتحد أن تصرف يوسف كان أقرب إلى المنطقية بصورة أو بأخرى.. والآن سترى بنفسك أن يوسف كان موفقًا في اختياره.

باب القبو كان أسفل الدرج الذي يقود إلى الطابق العلوي، حيث تنام الدكتورة ليلى في غرفتها من دون أن تشعر بيوسف الذي فتحه بحذر

شديد، ليتلفته إلى ظلامه متذكرًا ـ بعد فوات الأوان ـ أنه لم يُحضر معه أي شيء يصلح لإضاءة الطريق أمامه، لكنه لم يتوقف مكانه بل أخرج هاتفه المحمول وأضاء شاشته، ليتحسس بصوئها الخافت طريقه هابطًا الدرج ببطء شديد.

أسفل قدميه أخذ السلم الخشبي يئن مع كل خطوة، فتوسل إليه يوسف أن يصمت وأن يتحمّله إلى أن يبلغ نهايته، متجاهلًا حقيقة أن القبو كان مزودًا بصورة غير طبيعية.. برودة لن تشعر بمثلها في أقسى ليالي الشتاء.. برودة لم يشعر بها يوسف إلا حين زاره ذلك الشيء في شقته.. برودة أخبرته بأن ما يبحث عنه يوجد هنا.. في القبو!

بلغ الدرج أخيرًا ليجد يوسف نفسه في ظلام مطبق بارد أحاط به من كل صوب من دون أن يؤثر فيه ضوء شاشة هاتفه المحمول ولو قليلًا، فتوقف مكانه للحظات مفكرًا قبل أن يهمس لنفسه:

ـ ربما لو بحثت عن زر الإضاءة فلن أجده، أو سأجده لا يعمل.

لم يخيِّب سوء حظه ظنه، إذ عثر على زر الإضاءة بعد دقائق طالت يتحسس فيها الجدران كالعميان، ليجد أنه لا يعمل بالفعل، فتنهد وعاد يتحسس طريقه داخل القبو باحثًا عن شيء ما لا يعرفه، ليشعر بيديه تقبض على أشياء غير مفهومة.. شيء خشبي ذي مسامير حادة.. شيء بلاستيكي يقوم يبدو كلعبة أطفال.. شيء قذر من المستحيل معرفة كنهه في هذا الظلام.. ثم شيء رخو بارد يبدو كيد بشرية!

بدت قبض عليها يوسف في الظلام ليتفض صارخًا، قبل أن يضع يده على فمه مُخرِسًا نفسه، ومتمنيًا ألا تكون صرخته قد بلغت الدكتورة ليلى

في الأعلى.. احتاج إلى لحظات ليسيطر على نفسه قبل أن يَمُدَّ يده بحذر شديد ليتحسس تلك اليد البشرية من جديد؛ ليتأكد من أنها كذلك بالفعل، ويبتعها إلى جسد صغير رقد على مقعد في ظلام القبو، وعاونه ضوء الشمس، فلم يحتج يوسف لضوء ليعرف من هي، فقد رأى صورتها منذ قليل وكانت تبتسم فيها بسعادة، لكنها الآن ترقد جثة هامدة في قبو مظلم!

ومتحمِّلًا امتعاضه وتلك الرغبة العنيفة التي داهمته ليفرغ حمضه المعدي على أرضية القبو، واصل يوسف تحسس الجثة ليجد جثة أخرى تحتل بجوارها، لكنها كانت هذه المرَّة لطفلٍ تكوَّر على نفسه بجوار جثة أمه محتضنًا دميته، وبجوارهما كانت جثة الأب على مقعد آخر أشد برودة ومهشمة الرأس.

ثلاث جثث لأسرة كانت سعيدة يومًا، وكانت ليلى جزءًا منها قبل أن تفقد عقلها، لتعيش بمفردها في هذه الفيلا البعيدة، وحتى وجودها ترقد في القبو ثلاث جثث هي طرف الخيط الذي كان على يوسف أن يجده، وها هو يتحسسها الآن عاجزًا عن معرفة ما عليه فعله بالضبط.

لن يبلغ الشرطة بالطبع إلا إذا أراد أن يفسر لهم ما أتى به إلى هذا المكان. لن يهرب، فهو لم يحصل على شيء ما فعليًّا، ومجرد عثوره على الجثث لا يكفي لاعتباره طرف الخيط المنشود. ولن يستحق لبث براءة المسيرة عليه الآن بل يحرق الفيلا بمن فيها قبل أن يبرحها بلا عودة، فما الذي عليه فعله إذن؟

إنه الآن في قبو بارد يحوي ثلاث جثث يبدو من انتفاخها أن مرَّ عليها هنا.. فما.. الذي.. عليه.. فعله؟!

يصدر صوت سوء حظه في رأسه يصرخ هلعًا

ـ عليك أن تهرب.. ما الذي تنتظره؟

ـ لكني لم أحصل على شيء

ـ وما الذي تريده أكثر من هذا؟! ثم إني أسمع صوت خطوات تقترب

اهرب قبل فوات الأوان!

تجمد يوسف على صوت الخطوات التي بدأت هبوط الدرج متجهة نحو القبو فيتوقف قلبه عن الخفقان في صدره

ـ اهرب!

تهبط الدرج خطوة خطوة بشكل مستفز لحشيته، وليست بوسف على ثلاثة أشياء في الوقت ذاته، أولًا هي تهبط الدرج من دون أن تحمل شيئًا يضيء الظلام الدامس، كما أنه لا يرى في الظلام أي هيئة شيء ما ترتدي، ثم ثالثًا هي تهبط الدرج ببطء شديد وكأنها تتعمد إثارة أعصابه، وأخيرًا.. وهذا هو الأهم.. حقيقة أن الجثث الثلاث في القبو لا تعني أنها هي من قتلتهم! هذا هو الاحتمال الأقرب إلى المنطقية، ولا أحد يحتفظ بجثث قتلاه هكذا!

تذكر يوسف كيف قلبت وجوه وأجساد جثثهم في القبو، وهذا هي تهبط إلى القبو لأنها شعرت بأنه لم يفتش سواها! ما الذي يفكر فيه الآن؟ ما الذي عليه فعله الآن؟

ـ اهربي أيها الأحمق!

يصرخ بها سوء حظه في رأسه، فاستجاب له على الفور، ليطفئ شاشة هاتفه المحمول ويسرع مختبئًا خلف المقعد الذي رقدت عليه جثة طفلة

الدكتورة ليلى، التي تبعت النفق فيه صامتة للحصاد، مزقت عن يوسف كأعوام وأعوام

ولا إراديًّا توقف يوسف عن التنفس وكأنه يخشى أن تسمع الدكتورة ليلى صوت أنفاسه، تعود قدمه إلى الخلف بقوة معترضٍ ويدوي صدى في رأسه، بينما وقفت الدكتورة ليلى في ظلام النفق من دون أن تصدر أي صوت، كمن يستعد للهجوم على صحيته. وعلى الرغم من الظلام تمكن على الإمكان تحليل يوسف تقف أمامه على مسافة منه بشعر ثائر وبصر رفيعة، تنتظر أن يكشف يوسف عن مكانه لتقفز عليه

أو ربما هي تقترب منه الآن من دون أن يشعر بها أو يراها!

ربما كانت الآن تقترب منه بحذر تمامًا مع هشم رأس زوجها الذي يرقد الآن على مسافة سنيمترات منه بنصف رأس وجسد متفحم لسوء التهوية!

ربما هي الآن ترفع يدها في الهواء لتهوي بمطرقة أو سكين أو حتى بمعول سامورائي على رأسه، وحينها لن يشعر هو إلا بشيء يرتطم برأسه، ثم سينتهي كل شيء!

ـ على الأقل سينتهي دورك في هذه القصة عند هذا الحد

همس لها سوء حظه في رأسه، فلم يجرؤ على الرد، بل أغمض عينيه في قوة منتظرًا الموت. لكن... لكن لم يحدث شيء!

لم تهوِ الدكتورة ليلى على رأسه بشيء، ولم تحتل هو كعادتها أكثر من ذلك فترك صدره يحدث بعض هواء الحياة إلى رئتيه، بينما عاد صوت الدكتورة ليلى تقول بهدوء مرعب

ـ لن أعرف أنك هـ

لا مبرر للاختباء. إذن... إنها تعرف أنه موجود. لكنها لا تراه كما إنه، أو هذا ما تظنه. وفي هذه اللحظة لن يكشف لها عن موقعه تخلص عليه وتقتله

إنها تحافظ على صمتها، فلو صدرت هي بدايات الهدوء المخيف

ـ لكنك أعرف أنك ستعود

ـ على الرغم من أنه عاد إلى التنفس، فإن قلبه واصل الخفقان بعنف في صدره، يرتطم هي

ـ سأسألك عن شيء أنت الآن تعرف إجابة سؤالك لكنك لم تفهم بعد

ولأن عقله لم يتوقف عن العمل، لسوء حظه، تذكر دبت الشيء اللامع في قبضته، وقرر أن عليه أن يحصل عليه ليخرج من هذا فورًا. إنه طرف الخيط. نعم، نعم، أكيد هو. ما هو بالضبط؟ لا يعرف. لكنه كان يشعر، ومجرد وجوده في قبضته يعني أنه طرف الخيط!

ـ هو من يدعي نفسهم. أخبرني بأن هذا سيحميهم مما هو قادم

إنها الدكتورة ليلى، فقرر هو تجاهلها مفكرًا في الطريقة التي سيحصل بها على الشيء الذي في قبضته، تواصل

ـ أخبرني بأن هذا هو الخيار الوحيد. وأني لو قتلتهم الآن فسيعيدهم هو في الوقت المناسب

تحاول أن يمد يده بحذر، مستعلًا أنها لا تراه. إلى أن تصدر سيتحسس بها عنه وسيجد هو حقيقة كونها حية وتصدر أصواتًا. مهلًا. أقالت سيعيدهم؟!

- لقد وعدني.. لكنه طلب مني مقابل.. أخبرني بأنك ستأتي.. [illegible] عليّ أن أتركك أول مرّة.. لكن في المرة الثانية...

وهنا أردفت بهمس [illegible] حذرًا [illegible]

- يجب أن أقتلك

فتجمد يوسف مكانه وفقد رغبته في التنفس من جديد

هكذا ستنتهي القصة إذن.. ستقتله الدكتورة ليلى وستعيش [illegible] القبو مع عائلتها السعيدة، وسيكون الشيء قد خدعه بأن أرسله [illegible] منذ البداية.. نهاية تليق به وبسوء حظه، لكن الفارق الوحيد هذه [illegible] أنه قرر ألا يستسلم لسوء حظه.

سيحصل على طرف الخيط وسيخرج من هنا بأي طريقة

هكذا أخذت يده تتحسس وجه الطفلة بسرعة وتقفز إلى [illegible] فمها ليدس أصابعه فيه، وليبدأ استخراج [illegible] في اللحظة [illegible] قالت الدكتورة ليلى فيها:

- أرجوك لا تحاول الهرب أو المقاومة.. سأقتلك بأسرع طريقة ممكنة ولن تشعر بشيء.. أعدك بهذا.

لكنه لا يريد الموت.. وذلك الشيء المعدني في فم الطفلة لا يريد الخروج.. الوغدة الصغيرة تقبض عليه بأسنانها.

- والآن.. أين أنت؟

تسأل الدكتورة ليلى بهدوء [illegible] يعد مقبولًا بعد كل ما قالته، بينما يجاهد

[illegible] أصابعه أنه مفتاح من فم الطفلة، قبل أن تبدأ الدكتورة [illegible] البحث بحثًا عنه

- لا أستطيع [illegible] ولا أكشف مكانه [illegible]

[illegible] قد [illegible] في كل شبر فيه حتى في [illegible] على [illegible] وهذا المفتاح اللعين لا يريد الخروج من فم الطفلة اللعينة!

[illegible] الدكتورة ليلى بلهجة أقرب إلى المداعبة، لكنها لا تبث إلا الرعب في [illegible]

- يوووووووسف.. أين أنتتتت؟

يحسب سوء حظ يوسف في رأسه:

- هه!!!!!!

تحكم أصابع يوسف المرتجفة على المفتاح أخيرًا، لتبدأ في جذبه [illegible] إلى خارج فم الطفلة.

- يوووووووسف.. أنا أعرف أنك هنا!!!!!!

[illegible] يلعبان «الاستغماية» مع فارق أنها ستقتله لو عثرت عليه.. [illegible] في التحرك، وإن بدأ يحتك بأسنان جثة الطفلة بصوت مسموع.

- يووووووووسف.. لا أريد أن أقضي الليلة هنا فأنا لم أنم جيدًا.

وهو يكره أن تحرمه من حقه في النوم كما يكره أن تحرمه من حقه في [illegible] المفتاح يكاد يخرج.. كل ما يحتاج إليه هو ستبصر [illegible]

وهبطت يد الدكتورة ليلى على كتفه فجأة، ليتفض ويصرخ صارخًا ظافرًا قاسيًا هذه المرّة وهي تقول:

- عثرت عليك.

* * *

وحين خرج يوسف أخيرًا من المصلّى كان يحفف يديه من دماء الدكتورة ليلى في ملابسه وكان قد تعبّر إلى الأبد

ثمة شعور بسيطر على المرء حين يقتل لأول مرّة، هو مزيج من الخوف والاشمئزاز والثقة والارتياح.. وهذا الشعور كان مسيطرًا على يوسف تمامًا، فاتجه إلى سيارته بخطوات هادئة، واستند إليها ليفرغ معدته جوفها قبل أن يدخلها ليجلس، يحاول تمالك نفسه مسترجعًا ما حدث في اللحظات الأخيرة

لقد قتلها قتلها قتلها قتلها

قتل الدكتورة ليلى!

انتزع السكين الضخم الذي كانت تمسك به من يدها وغرسه فيها لينقذ حياته.. لم يكن أمامه خيار آخر، ولم يرّ حتى في أي مكان غرسه في جسدها.

كل ما شعر به هو أن السكين يمزق بعض الملابس والأنسجة تنهي العظام رحلته في الجسد، ثم تراخى الجسد ليتحول من «جسد» الدكتورة ليلى إلى «جثتها»، قبل أن تتكوم على الأرض بجواره ودماء الحياة تغرق جسدها بلا رجعة.

قد قتلها قتلها قتلها

لقد كان مضطرًا!

وحين استقرت جثتها أسفل قدميه وحدث نفسه يهمس لها

- الدكتور محمد يعتذر لك

ثم تركها وغادر المكان بلا رجعة

هذا ينهي فصله الثاني والأخير مع الدكتورة ليلى، وهكذا ستفقد حياتها في قبو منزلها بحي حتى عائلتها إلى أن يأتي اليوم الذي سيكتشف جثتها فيه، وحتى ذلك الحين فلن يكون هناك ولي أن يأتي هذا اليوم عليه ألا يشغل باله بما سيحدث، فقد حصل على المفتاح

خرج الجثة

لقد قتلها قتلها قتلها قتلها

لكنه كان مضطرًا!

وفي نهاية أدار محرك سيارته، ليهمس لنفسه بقسوة وجدت طريقها إلى فمه

- على الأقل التأم شمل العائلة من جديد.

ثم انطلق بسيارته مبتعدًا عن المكان.

١٠

ثم اختفت سوسن!

في تلك الليلة التي ارتكب فيها يوسف جريمته الأولى ـ قتل سكان هناك جرائم أخرى! ـ نام يوسف في سيارته بعد أن اكتشف أنه لن يجد على العودة إلى منزله أو أي مكان ذي أربعة جدران.. وفي اليوم التالي انتظرها في الكافيه ليخبرها بما حدث، لكنها لم تأتِ.

انتظرها طويلًا حتى نضبت قدرته على الانتظار، فانطلق إلى كشك لكنها لم تكن هناك كذلك. لم يتحمّل فكرة أن ينتظر إلى اليوم التالي فجاهد حتى حصل على رقم هاتفها وعنوان منزلها، لكن هاتفها كان معطلًا ومنزلها كان خاويًا. قضى يومه بأكمله يبحث عنها بلا جدوى، وفي المساء نام في سيارته من جديد.

وفي اليوم التالي انتظرها من جديد فلم تظهر.

وفي اليوم التالي لم تظهر.

وفي اليوم التالي كرر هو كل المحاولات المتاحة للعثور عليها فلم يجد

وفي اليوم التالي بدأ اليأس يتسلل إلى قلبه، وبدأ عقله يدرك حقيقة أن سوسن اختفت.

هكذا وببساطة ومن دون مقدمات.. اختفت.

في بداية رفض الاستسلام لهذه الحقيقة، وأخذ يقضي أيامه في التنقل بين مقهى وكشك والكافيه، ومحاولات لا تنتهي، لكنها أصبحت كلها بلا أثر اختفت بلا أثر أو سبب أو أمل في ظهورها من جديد.

ومع الوقت بدأ رفضه لهذه الحقيقة يلين.. بدأ يصدق، لكنه لم يفهم، فتحول رفضه إلى حيرة.. ثم تحولت حيرته إلى قلق.. ثم تحوَّل قلقه إلى غضب.. ثم ذاب الغضب وترك في نفسه فجوة تماثل في حجمها تلك الفجوة التي تركتها سوسن في ذاكرته.

بدأ يتساءل كل يوم وهو يبحث عنها: لم لم تهتم "شيء" بعلاقته بها مجرد سوء حظه، لكن تساؤله ظل حتى النهاية بلا جواب.

وفي النهاية لم يعد أمامه سوى حقيقة واحدة لا تقبل الجدل: لقد فقد سوسن!

١١

وفي النهاية عاد يوسف إلى منزله

بعد خمسة أيام قضاها في سيارته اكتشف أنه مضطر إلى العودة إلى هناك، حيث ملابسه وسريره والحمام. لقد فرَّ بالكتب التي سيبحث فيها عمَّا هو أهم من سوسن وأخطر.. انتظر حتى أطلَّت شمس يوم جديد عليه، ثم دخل شقته ليجدها كما تركها آخر مرَّة، خاوية إلا من وحدته التي استقبلته بشوق وحنين.

كان أول ما فعله هو أن فتش الشقة جيدًا بحثًا عن أي أثر لتوقيع أعينهم فلم يجد منهم أحدًا، لكنه لم يكن ينوي البقاء طويلًا فنزع ملابسه التي التصقت بجلده، وألقى بجسده في حوض الاستحمام ليجد أن زوجة الدكتورة ليلى الجافة لا تزال معلقة بأظافره.. اغتسل وارتدى ملابس غطتها الأتربة، ثم جمع كتب التاريخ التي ابتاعها في حقيبة وألقى نظرة وداع على الشقة قبل أن يفر منها ليعود إلى سيارته.

لكنه لم يكن ينوي البقاء فيها كذلك، فقادها هذه المرَّة إلى أرخص فندق عثر عليه، ليدخل تلك الغرفة القذرة التي تناسب ميزانيته، وحين

على المقعد الوحيد فيها ملقيًا بحقيبة الكتب على الأرض بجواره ليبدأ رحلة بحثه الجديد.. لا فارقَ كبيرًا بينها وبين منزله القديم.. ما دامت وحدته تصاحبه أينما ذهب فلن يشعر بالغربة.

كان جائعًا ومعدته تتلوَّى في جوفه رافضة الانتظار، لكنه قرر تجاهلها وخرج إلى الكتب من الحقيبة ليبدأ رحلة البحث عن «شيء ما» في التاريخ يساعده على اختلاق ردٍّ لتصميم قرار «نهاية الحضارة الفيكية»، فتنوَّعت بين متعاضد هذه الفكرة، لكنه ـ وكما أخبرته سوسن قبل اختفائها ـ لا يقرأ لحضرة الدكتورة، كل ما عليه هو البحث عن أي شيء مريب وربما يساعده

تأتي دور الكتاب الثاني.

كان الكتاب مملًّا كعنوانه، ومع الصفحة الأولى أصابه ذلك التعاس المعتاد الذي يصيب من يقرأون لكتب مصطرين، فأخذ يتمرك عينيه بحثًا عن شيء يثير اهتمامه، لا سيما بعد أن اكتشف بعد ست دقائق أنه يقرأ في السطر ذاته من دون أن ينتقل إلى السطر التالي من مقدمة الكتاب، فأغلقه وألقى بجسده على الفراش، مقررًا أنه في حاجة إلى النوم حقًّا.

سيبدأ الآن قليلًا، وحين يستيقظ سيعرف كل شيء عن نهاية الحضارة الفيكية المزعومة، فقط عليه أن يتأكد أنه سيستيقظ قبل أن يخيِّم الظلام، ولا أيقظه هذا الشيء.. لذا عليه أن يضبط منبه هاتفه قبل أن ينام. مدَّ يده في حسه بحثًا عن المفتاح الذي عثر عليه في فم طفلة الدكتورة ليلى، وضعه على الفراش ممسكًا به بتوتر، متذكرًا أنه طرف الخيط الذي منحه هذا الشيء

طرف الخيط الذي نسيه تمامًا في غمرة بحثه عن سوسن، وهو الذي يحتم له الآن تساؤلًا منطقيًا وشديد الأهمية: ما الذي يفتحه هذا المفتاح.. صندوقًا

ـ بابًا أم صندوقًا؟

قالها سوء حظه في رأسه، فمن هو معتاد

ـ أتعرف عدد الأبواب والصناديق في كوكب الأرض؟

ـ لا يهم عددها.. فمعك سيكون الحرف التالي: *أو صندوق تحرره هو الصحيح*

فلم يحب هذه الجزء، وأخذ يتأمل المفتاح بين أصابعه لعله يجد في النقوش عجالة لم تحب عن سؤاله.. أخذ يحدق فيه بشرهة أدت به إلى أن فقد رغبته في النوم، ليغادر فراشه، وليرتدي حذاءه مقررًا الاتصال بالشخص الوحيد القادر على مساعدته الآن.

إلى الأستاذ قدري.

* * *

ـ من أين حصلت على هذا المفتاح؟

تساءل الأستاذ قدري وهو يتأمل المفتاح باهتمام بالغ، فسرح رحمه في جسد يوسف، عقله يحث على سؤال.. بينما لسانه يقول بالحقيقة

ـ مصادفة.

فمنحه الأستاذ قدري نظرة شك سريعة قبل أن يعود لتفحص المفتاح بخبرة، قائلًا:

ـ لنفترض إذن أنك لا تعرف ما الذي يفتحه وأنك هنا لتعرف.. وفي هذه الحالة سنحتاج إلى ترجمة هذه النقوش المحفورة عليه.

ـ ترجمة؟ أتعني أنها ليست مجرد نقوش؟

ـ [illegible] لم أنبهك مثلًا على مدى سنوات دراستي للتاريخ لكي أحضر لكافية لأخبرك أنها لغة ما [illegible]

ـ أشار إلى النقوش في المفتاح شارحًا

ـ هذه الرموز المنقوشة [illegible] حروف وليست مجرد رسوم [illegible]

ـ وكيف تكون بعض الرموز؟ هذه ليست مصادفة.. لا بد أن هناك مصادفات في مثل هذه الأشياء [illegible]

ـ [illegible] الأستاذ يوسف قائلًا

ـ لكن في هذه الحالات يجب أن نتأكد أولًا من عُمر المفتاح، وهذا يحتاج إلى خبير.. ثم عليك أن تجد خبيرًا في اللغات القديمة ليخبرك في أي عصر تنتمي هذه النقوش، وربما حتى أكتب أعرفهم وقد تكون مساعدتك هي

أكمل يوسف بحماس

ـ [illegible] الدكتور محمدي

فهز قدري رأسه بأسف، وقال:

ـ لقد [illegible] في مستشفى سجن [illegible] كتب يوم صرع حقًا كما تقول؟

هنا منحه يوسف نظرة طويلة أخذت عن سؤاله، قبل أن يقف قائلًا:

- أشكرك على وقتك.

وحمل مفتاحه وأسراره معه غادر المكان وقد قرر أنها آخر مرة تطأ فيها الأستاذ قدري.. لا داعي لتوريطه أكثر من هذا، فهو يدرك جيدًا سيصيبه لو عرف أكثر من اللازم

والآن يعود إلى عرفته في الصدف حيث سطره كتب الدرج وحين سيكون لقاؤه الثاني مع الشيء

* * *

لكن.. وقبل أن يحكي قصة لقائه الثاني، اسمح لي أن أترك له مساحة قليلًا لأحكي لك ما حدث للمُقدّم عصام

كان قد انتهى من زيارة يوسف ليصطحبه إلى دكتور محسن وما تعرفه عنه لم يتغير، إنه مرجع يثق به ثقة لا تهتز في حياته عشق لا يضاهى مع نفسه.. والليلة يمكننا أن نضيف أنه عصبي المزاج، خصوصًا أنه خرج لتوّه من جدال مرير مع زوجته، وأي رجل يجادل زوجته لأي سبب يعلم به الأمر مخططًا، وتنتابه حالة عصبية تصاحبه لأيام وأيام، يصبح معها على أهبة للانفجار بمجرد اللمس.

ولهذا حين اتصل به الرائد علاء في هذه الليلة ليوقظه انفجر فيه صائحًا:

- ما الذي تريده؟

- سيادة المُقدّم.. نحتاج إليك الآن.

وهنا علاء يذكره مستخدمًا لقبه «النحاس بيك» لترضي غرور عصام، ويردف:

- كالعادة.. لماذا هذه المرّة؟

- جريمة قتل.. لكن يجب أن تأتي بنفسك.. العنوان هو

بلاه العنوان، فأجابه عصام في انتباه ملحوظ:

- سآتي حالًا

ثم أنهى الاتصال وألقى نظرة عطوفة على زوجته النائمة مبتسمةً ابتسامة من ألف وسبعين اعتذار لعلها تشفع له عندها، قبل أن يغادر فراشه ليرتدي ملابسه ويسرع إلى حيث ارتُكبت تلك الجريمة، والتي لن يحلها سواه، خصوصًا أن كلّ من في الإدارة أغبياء، وهو العبقري الوحيد الذي يسخر على الدوام بمجرد وصوله إلى هناك.. لهذا همس لنفسه وهو يغادر محرك سيارته

- كلهم حمير!

ثم انطلق إلى تلك البناية في ذلك التجمع السكني الجديد القريب من القاهرة، ليجد المشهد التقليدي في انتظاره.. سيارات شرطة تضيء سكون الليل الأزرق، وسيارة إسعاف يقف قائدها مستندًا إلى سيارته يدخن سيجارة بشراهة، وينتظر أن ينهي فريق المعمل الجنائي من عملهم ليحمل جثة القتيل المشرحة.. وعند مدخل البناية بعض الجنود والسكان يقفون يتطرون ما حدث، وقد بدا عليهم الوجوم، يخرج هو بينهم من سيارته مرتديًا نظارته الشمسية - مع أنه في الليل - والتي تضفي عليه مهابة تساعده أكثر من قدرته على التفكير

وكان أول ما لاحظه عصام مع وصوله هو حالة الصمت المخيم على المكان.

في المعتاد، وحين تحدث جريمة قتل، تجد الجميع يقفون يتحدثون ويحللون ويفترضون أسباب هذه الجريمة ودوافعها، ويتكهنون بطبيعة علاقتهم بالمجني عليه وكيف أنه كان «في حاله» ولا يستحق هذه النهاية المؤسفة، حتى لو كان الفقيد تاجر مخدرات متهمًا في قضية قتل واغتصاب، لكن هذه المرَّة كان الجميع يقفون صامتين يتبادلون النظرات التي التقط فيها عصام رائحة الخوف، ثم بدأ هذا الصغير يتشغل باله طويلًا وهو يتجاوزهم ليصعد إلى حيث الشقة التي تحولت إلى مسرح جريمة.

أمام الشقة وقف الرائد علاء ينتظره وقد بدا عليه التوتر الشديد، فقال عصام بلهجة آمرة:

- ما الذي حدث؟

- جريمة قتل شاب في أواخر العشرينيات، يعيش بمفرده في شقته الجيران اكتشفوا الجثة حين وجدوا باب شقته مفتوحًا و... ليبلغونا و...

فقد قدرته على المواصلة لفرط توتره، فانفجر فيه عصام:

- وماذا؟

- سيادة المُقدَّم.. صدقني.. أنا لم أرَ شيئًا مماثلًا على مدى سنوات خدمتي.. وأشك في أنك رأيت أو سترى شيئًا كالذي ينتظرك في الداخل.

وهنا تدخل عصام رأس الـ لدكتور محمدي المعروس في الحدث، وسأله في ثقة قائلًا:

- لن يكون أسوأ مما رأيته بالفعل.

لم يجبه علاء هذه المرَّة ولم ينتظر هو إجابته، بل دخل الشقة التي يتردد فيها رجال المعمل الجنائي وقد سيطرت عليهم حالة الصمت المريبة التي تسللت إلى عصام وجعلته يتأمل الشقة بمظهرها الأهمية شقة عادية في تصميمها تبدو حديثة لكن المشروع السكني ذاته حديث.. مؤثثة بعناية وأغلب الظن تحمل طابعًا أنثويًّا مميزًا من السهل معه أن تعرف أن المجني عليه من جنسه، وربما على وشك الزواج كذلك.. لا دماء ولا آثار عنف أو تخريب ولا حتى

بكل من يعرف خرج له ذلك قريب المعمل الجنائي بوجه شاحب

عصام يرتعش لفرط توتره، ليقول:

- جثة ملقاة في الداخل!

- هل هذا كل ما لديك؟

- لا يوجد لديه لا يوجد أي شيء ولا حتى تفسير

- ما الذي تقصده؟

- سترى بنفسك

تمتم عصام بكلمة ضبه بى عصام شارحًا

- ما تحمل من جثة!

فأمسك به عصام من دون أن يرتدعها وتجه إلى الغرفة التي تحو
الجثة بتمادٍ صر واصح و و

وبمجرد أن سقطت عينه على جثته في الداخل شهق داهلًا هو

شهق وانتفض وفهم وارتجف

وللحظات ظلَّ واقفًا مكانه فاغر الفم عاجزًا عن السيطرة على نفسه
فوقف قائد فريق المعمل الجنائي وراءه مرتديًا كمامة صحية وقال له:

- لم أرَ مثيلًا لما تراه الآن حتى في سنوات دراستي، وصدقني لقد
الكثير في حياتي.. أكثر ممَّا كنت أتمنى رؤيته بكثير. لكن هذا
تراه أمامك الآن هو الأسوأ والأبشع على الإطلاق.

فلم يجبه عصام ولم يكن ليستطيع حتى لو حاول.. فقط التقط أنفاسه
الرائحة الشنيعة التي أفعمت المكان، وترك قائد المعمل الجنائي يشرح له
الهول الذي يراه من دون أن يستوعبه:

- هكذا عثرنا عليه.. جالسًا خلف مكتبه كما تراه الآن.. أسود تمامًا
لأنه احترق من الداخل، وأرجوك انتبه إلى حقيقة «من الداخل» هذه
إنه لا يحمل آثار أي حرق ناري أو كيماوي أو حتى كهربائي
هو احترق من الداخل وكأن عظامه تحوَّلت إلى جمر متقد أذاب
عضلاته ودهونه وسوائله، ولهذا ترى أن جلده مترهل كأنه يرتدي
جلدًا أوسع من حجمه الحقيقي.. وترى أن عينيه منتفختين لأبعد
بضجتا، لو صح التعبير.. لاحظ أيضًا أنه لم يتحرك من مكانه، وكأنه
لم يجد وقتًا ليفعل، والأسوأ أن ملامحه لا تحمل الألم أو الخوف
الذي تنتظره من رجل حُرِقَ حيًّا.. بل هو الرعب الذي تراه في وجهه

هذا الرجل رأى شيئًا أخافه إلى الحد الذي جعله يعتق عينيه
بشدة، لكنَّ يديه ثبتتا وانتصبتا بوجهه.. شيئًا لم يأتِ ليفتشه أو يهدده
أو حتى يستجوبه.. شيئًا أخافه حيًّا من الداخل إلى الخارج

- كيف؟!

ونظر عصام أخيرًا ذاهلًا مرتجفًا، فكانت الإجابة:

- لا يوجد لديَّ تفسير.. حتى نظرية الاحتراق الذاتي بغرابتها لا تصلح
لتفسير هذا.. الحقيقة الوحيدة التي يمكنني هي أن هذا الرجل
في داخله بشع صريبة ممكنة من الخوف؟ وكيف؟ هذا يأتي دورك

منحه عصام نظرة ذاهلة، عاجزة، دامت للحظات، قبل أن يتمالك نفسه
ويجد بكفي ليسأل:

- من هو؟

- مهندس شابٌّ اسمه سامح.. سامح سمير.

* * *

- لا يمكنك العودة إلى يوسف في عزبته في الصدق، لأحكي له
قصة عامه الثاني مع الشيء.

هذا الذي ستبدأ معه اللعبة.

١٢

حين تقرأ عن الحضارة الفينيقية وأنت لا تملك أي معلومات تذكر عن تاريخ أي شيء يتعلق بأي حضارة، ستجد أنك أمام مهمة ممتعة ومثيرة حقًا حصوصًا لو كان خيالك خصبًا!

وقبل أن أشرح لك السبب دعني أقدم لك مثالًا شهيرًا:

سنقرأ معًا هذه الجملة.. «يعيش السـ.. ك في الماء».. نعم تلك السمك مكتوبة من دون حرف الميم، لكنك عرفتها وتمكنت من قراءتها لأن عقلك استكمل لك الحرف الناقص، وهي خدمة يقدمها لك عقلك من دون مقابل، وعلى مدار الساعة يوميًا من دون أن تشعر بها. هذه الخدمة تعتمد على نقطتين مهمتين: أولاهما هي الخبرات المتراكمة التي يخزنها عقلك، ففي المثال أمامنا ستجد أن كلمة «سمك» مرّت عليك على مدى حياتك ملايين المرّات ـ إلا لو كنت كائنًا فضائيًا يقرأ هذه الصفحات ليتعرّف على حضارتنا الجميلة ـ أما النقطة الأخرى فهي قدرتك على التخيل، وهي قدرة تتفاوت من شخص إلى آخر، لكنها تنشط بشدة عند من يُعانون الوحدة والانطواء، وبالتالي فهي في دروتها مع شخص مثل

هذا.. وحين نقول «تعيش.... في الكهوف».. ستجد أن تصوُّرك من يعيشون في الكهوف متوقفٌ على قدرتك على التخيل.

هناك من سيفترض أنها الوطاويط.. هناك من سيفكر في الزواحف والحشرات.. وهناك من سيتخيل غيلانًا بأعين متسعة وأنياب ملوثة بالدماء تعيش في أركان الكهوف المظلمة.

ولكن لنعد إلى يوسف ولنطبق عليه هذا الدرس الذي تعلمناه لنرى كيف قرأ يوسف كتاب «نهاية الحضارة الفينيقية»، واضعين في الاعتبار أن كلمة عربية سيتم عليه سيتحول إلى قراءة في لحظة عليه أن يملأه بعقله وخياله.

اختلف العلماء حول في تفسير معنى كلمة فينيقي (هنا استنتج يوسف أنها المكان الذي عاش فيه الفينيقيون!) وقد افترضوا أنهم كالكنعانيين من نسل حام بن نوح، والذين عاشوا في كنعان (المكان الذي يعيش فيه الكنعانيون!) والتي بدأت حدودها من خليج إسكندرون (هنا افترض يوسف أن إسكندرون أرض أسطورية تعيش فيها الدببة!) حتى لعريش في مصر. بعض المؤرخين افترضوا أن كلمة فينيقيا مشتقة من كلمة فينيكس والتي يعرف يوسف أنها تعني العنقاء التي يبدو أنها كانت تعيش مع الفينيقيين!).. عَبَدَ الفينيقيون الآلهة وكان إيل بعل الرب هو سيد الآلهة، وقد أقاموا العديد من المعابد، منها معبد أدونيس ومعبد عشتروت (هنا قرر يوسف أنه حروف صار هائل الحجم!) في أفا (أرض أسطورية أخرى لا تعيش فيها الدببة!) وفي هذه المعابد كانوا يقدمون الأضاحي لآلهتهم وكانت تتمثل في حيوانات يقتلونها ويحرقونها مرددين ترانيم قرر يوسف أنها شيء مماثل لأغنية بكّار!).

كما اخترع الفينيقيون أبجديتهم الخاصة التي كانت عبارة عن مجموعة صوتية تُكتب بالطريقة المسمارية (أي أنها تكتب بالمسامير!) فيما يستقون إلى أبجديته التصويرية (شيء أشبه بالكوميكس!) قبل أن يتحول إلى أبجدية جبيل المكونة من ٢٢ حرفًا، والتي اشتُقت منها كل الأبجديات الحديثة فيما بعد.

أما في مجال الفنون فلقد كان الفن الفينيقي شبيهًا بقصته (مزيج جلدي!) والسبيبة (لا بد أن لها علاقة بسباء!) والإبحبة (لا بد أنها حمراء مطبخي!). وفي الأدب تجد ملحمتهم الشهيرة ملحمة (بعل كاسر الحروف آخرا!) والتي كتبت بالأبجدية الأوغارتية في القرن الرابع عشر

هكذا لك أن تتخيل الليلة التي قضاها يوسف في قراءة كتب تلك الحضارة الفينيقية، ولك أن تتفهم تمدد سقوط رأسه في النهاية على كتب المفتوح، مستسلمًا لنعاس دوامه طويلا

* * *

وفي أحلامه رأى نفسه هناك.

في غرفة نصفي الذي هو بنفس صغيرًا، في شقة محدثي يرقد على فراشه ويتأمل القمر عبر نافذة الغرفة.

وفي أعماقه تساءل كيف هناك قمر في السماء في لبنان التي حدث فيها مجدي قتل ذلك الشيء؟

* * *

ثم استيقظ فجأة ليعتدل على الفراش

...لاء بقمر الكون من حوله لكنه كان يتوقعه.. نوعًا ما كان يتوقعه ...ء.. وكان يشعر بأنه عقابه على استسلامه للنوم.. لَمْ يَلُمْ نفسه ...ل عتدل على فراشه عاجزًا عن رؤية أي شيء، منتظرًا الصوت ...سمع أخيرًا من ركن الغرفة يقول:

... أن مستعد.. بعد كل ما رأيته وكل ما عرفته أصبحت مستعدًا ... أعرف أكثر.. وأنا هنا لأساعدك.

... يوسف في هذه اللحظة يحاول أن يقنع عقله بأنه لا يحلم.. ... يحدث الآن يحدث بالفعل.. البرودة والظلام والصوت البارد ... واصل:

... أن نبدأ دعني أخبرك بقواعد اللعبة.

... هذه نبرة كل صوت يقترب منه، فتحضرت كل عضلات يوسف ... على أطراف أصابعه جلس على الفراش كعداء يستعد ... هرب. والصوت يقترب منه أكثر وأكثر، شرح له قواعد اللعبة

...سكن أن تختبر في كل مرة

...ختبر مدى؟ وما هذه اللعبة أصلًا؟

...ستدفع ثمن كل اختيار.

...صوت يقترب أكثر... لكل هذه المرة من جميع الاتجاهات كأنه محاصر!

وما هذه اللعبة التي سيختار فيها ويدفع ثمن اختياراته؟

...سمع اللعبة إلى أن تدرك الحقيقة كاملة

ولماذا لا يخبره بها الآن ليتهيّ هذا كله؟ لأن صوت الشيء كان يستمتع بالاستمتاع.

أيًا ما كانت لعبته فسيستمتع بها الشيء كثيرًا وسيختبر فيها كل جميع الاختيارات الخطأ، وسيدفع ثمن كل اختيار.. لقد سكون اختياراته خطأ؟ لأنه يوسف!

ثم تصاعد صوت الشيء بجوار أذنه مباشرة:

- *وفي كل مرّة ستحصل على قطعة من الحقيقة.. وسأحصل على قطعة*

وما يتذكره يوسف هنا هو أنه حاول أن يقفز بعيدًا عن مصدر الصوت كردّ فعلٍ غريزيٍّ تمامًا، وأنه حاول أن يصرخ هلعًا كما لم يصرخ من قبل، وأنه كان يجلس على أطراف أصابعه على فراش في غرفة في فندق حقير يناسب ميزانيته، محاطًا بكتب التاريخ اللعينة التي أجبرته مدرسته على ابتياعها، والتي حاول أن يقرأ منها كتاب «نهاية الحضارة» لكن لكن كل شيء من حوله حتى فجأة

في لحظة واحدة جمدت العرق وقشعريرة وكتب التاريخ وقدرته على الهرب أو الصراخ

وفي اللحظة التالية بدأ يَهوِي.

ثم وجد نفسه [illegible] على وجهه في أرضٍ صلبة باردة

[illegible] حسبه أنه أخذ يهوي طويلًا في عدمٍ وظلام لا نهاية له، وأنه تمكّن من الصراخ أخيرًا لتذوب صرخاته في ظلام سرمدي [illegible] نحو يقتل الأمل في الصدور قتلًا، وأن رحلته من ظلام غرفته في الفندق حتى وصوله إلى تلك الأرض الطينية دامت طويلًا حتى بدت له طويلًا بلهفة، لكن هذا لم يحدث

كل ما حدث هو أنه شعر نفسه يَهوِي للحظة واحدة، وفي اللحظة التالية وجد نفسه [illegible] على وجهه، يتذوق مرغمًا ذلك الطين الذي التصق بوجهه وتسلل إلى فمه وعينيه.

[illegible]

تصاعد السؤال في رأسه لكنه لم يتحرك من مكانه.. ظلّ هكذا راقدًا على وجهه ينتظر أن يتصاعد صوت الشيء من جديد، لكنه كان انتظارًا لا جدوى.. فقط تردد السؤال ذاته في عقله ثانية:

- أين أنا؟!

وهو سؤال عجز عن الإجابة عنه في وضعه هذا، فاعتدل بجذعه، ومد يده بحذر ليزيح الطين عن وجهه، ليستعيد رؤيته ولتبدأ الحقائق في التسلل إليه واحدة تلو الأخرى.. حقائق استقبلتها عيناه دفعة واحدة، لكن عقله عجز عن ذلك.. فبدأ ترتيبها وفقًا لأهميتها وغرابتها.. وكل حقيقة تولد سؤال جديد بلا إجابة.

حقيقة رقم ١: إنه في غابة!

لكنها لم تكن كأي غابة رآها يوسف في حياته على الإطلاق.. وهو لم يرَ الغابات إلا كخلفيات لشاشة الكمبيوتر في مكتبه، وفي كل مرة كانت الغابة رائعة الجمال، التقطتها عدسة احترافية لتمنحها كنًا لا نملكه من الافتعال.. أما الغابة التي وجد يوسف نفسه فيها فلم تكن كأي شيء شاشة رآها في حياته.

الغابة التي وجد نفسه فيها كانت عبارة عن جذوع أشجار هائلة الحجم تمتد من الأرض وتغيب في السماء كأنها تحملها.. وكانت الأشجار ذاتها متباعدة تسمح لضباب كثيف بالتخلل بينها وكأن هذه السماء قد قررت الركود على الأرض لتسترخيَ قليلًا.. والسماء هنا كانت زرقاء، لكنها ليست كأيّ زرقة رآيتها في حياتك.. حاول أن تتخيل درجة لون أزرق لم ترَ لها مثيلًا في حياتك.. حاول أن تتخيل السماء التي خلقها الله قبل أن تلوثها أدخنتنا وروائحنا وخطايانا.. وتمتد هذه السماء بين جذوع الأشجار والضباب وقف يوسف يتساءل كيف أتى إلى هنا؟

حقيقة رقم ٢: إنه لا يحلم!

وهي حقيقة تستند إلى أدلة كثيرة

أولًا: لا يوجد حلم بهذه الدقة وبهذا الكم الهائل من التفاصيل.

ثانيًا: لا يوجد حلم ينقلك إلى مكان لم ترَ له مثيلًا من قبل.. يوسف رأى أحلام ذات مرَّة ويعرف أنها المزيج الذي يصنعه لنا عقولنا من ذكريات وما سمعناه ليقدمه لك في قالب جديد متوافق مع حالتك النفسية قبل النوم.. وحتى مرآه يوسف قبل النوم - لو كان يحلم - لن تفقه في هذه كهذه

ثالثًا: لا يوجد حلم تظل فيه واقفًا في مكانك لدقائق عاجزًا عن فهم كيف أنت إلى هنا.

تحرك عقلك بالحقيقة التالية وهي:

حقيقة رقم ٣: إنه ليس جسده!

وهي نقطة صعب شرحها قليلًا.. لنفهمها ستحتاج لأن تكون قد مررت في حياتك بتجربة خروج غير جسدك

ستعرف جسدك.. تعرف صوتك ووزنك.. تعرف ملامحك التي تميل إليها.. تعرف حجم قبضتك.. وتعرف عضلاتك وسرعة استجابتها.. وتعرف كم شعرة بالضبط على جلدك.. وتعرف إن كانت حبوبك الأخيرة تسببت في ظهور حب شباب أم لا

كل هذا يعرفه يوسف جيدًا.. وبالتالي عرف أن الجسد الذي يقف به الآن في الغابة ليس جسده.

إنه جسد أطول.. وهو لم يكن طويلًا قطُّ.. جسد متشنج ومتصلب، وهو كان يظن أن عضلاته ضمرت منذ زمن.. جسد عارٍ إلا من بعض أوراق الشجر حول وسطه، على الرغم من برودة الغابة من حوله.. جسد استحال عليه أن يعرف لون جلده من أسفل الطين الذي يغطيه.

ربما هو أبيضُ شاحبٌ كمصاصي الدماء، وربما هو أسودُ كل الليالي الماضية التي مرَّت عليه، وربما هو أخضرُ كـ«شرك ـ ١٨» لكنه لن يعرف ما لم يغتسل ليزيح طبقات الطين عن جسده، وهذا ليس وقت الاغتسال والمشكلة الآن أنه

حقيقة رقم ٤: إنه يعرف!

يعرف من خرج عائدًا في عمق الجسد الذي هو ليس جسده.

لكنه الآن جسده.. وهو الآن يشعر بألمه وبالدماء التي تسيل من عنقه إلى صدره ليمتزج بالطين الذي يغطيه.. يشعر بوعيه ذاته يسيل على جسده، ويعرف ببطء الحقيقة الأخيرة.. وهي:

حقيقة رقم ٥: إنه يموت!

يموت ببطء، بوشك الدقة.. هذه هي الحقائق التي كشفها يوسف أما الأسئلة فكانت تنحصر في ثلاثة

كيف أتى إلى هنا؟

كيف انتقل إلى هذا الجسد؟

متى هو؟!

أي زمن هذا التي اكتست فيه الأرض بأشجارٍ لا قمم لها، وكائنات يعيشون فيه يرتدون أوراقها؟

لكنه ليس وقت البحث عن إجابات أيُّها الأحمق.

وهو يوسف في عقله متذكرًا صوت سوء حظه ـ والذي يبدو أنه سيستمر معه إلى هذا الجسد ـ ليجد أنه مُحِقٌّ.. نعم.. الآن عليه أن يجد [illegible] الوقت له هذا التعريف وإلَّا فسينتهي به الأمر مغروسًا في الطين [illegible] عليه أن يعثر على رأسه «بسرعة» ويغسل الطين الطيني ويحيط [illegible] جرحي ومتصلٌ معقَّم في هذه البقعة الصديقة!

[illegible] يبدأ بتلمسه في جذع صخمة طويلة لأصابع، فاستخدم هذه الأصابع [illegible] يتحسس جرح عنقه محاولًا تحديد مدى خطورته، ليجد ذلك الفصل [illegible] الجذري لا يزال مغروسًا فيه.. هذا يمنحه فكرة عن الرمن الذي هو فيه، [illegible] منحه حلًا مؤقتًا لجرح عنقه، فالفصل يعترض طريق الدورة الدموية، ولو انتزعه [illegible] فسيحرر الدماء هنرية بلا رجعة تمامًا كما حدث مع الدكتور محمدي حين [illegible] ع عنقه من جذع، لكنَّ الفصل الجذري مكنه أكثر بعض الطين [illegible]

هكذا هذا الجسد كتلته واحد قصة من الطين الدرد ليصنعه حول [illegible] جرحه الذي عرض مؤسلًا حاجز لأنه في رأسه، فصرخ يوسف زعمًا [illegible] صوته لا ينبعث به بصمته، تردد آلاف الأشجار صرخته.. لكنَّ يوسف [illegible] توقَّف، فتصبت يوسف وتحامل على نفسه لينهض من جديد، [illegible] البحث و.. ولكن.. إلى أيِّ اتجاه؟

كان سؤالًا منطقيًّا من النوع الذي يبدأ أسئلة إضافية كـ«ولِمَ أنا هنا أصلًا؟» و«ما الذي عليه فعله؟» و«لماذا أتى به الشيء إلى هذا المكان الزمن والجسد؟».. لكن يوسف كان يفقد قدرته على التفكير مع [illegible] التي فقدها ولا يزال يفقدها.. لهذا قرر أن أيَّ سؤال بلا إجابة هو سؤال يحتاج إلى إجابة فورية بلا تفكير.

إلى أي اتجاه؟ إلى الأمام!

هكذا بدأ يتحرك بعد أن عضلاته كلها تئن ألمًا، وأن يدور برأسه طريقه إلى رأسه، لكنه تجاهله ليخطو إلى الأمام.. لاحظ أن خطوته ممًّا اعتاده مع طوله الجديد، لكن في المقابل كانت الغابة تمتد أمامه فيه شعر لبرهة بأنه يحقق تقدمًا حقيقيًا في محاولة الاتجاه إلى

المشهد من حوله لم يتغير بعد أول عشر خطوات. ولا بعد العشر التالية. ولا حتى حين توقف عن عد خطواته ليتفرغ بعد التي أصبح يجاهد ليجرجها ويدحبها إلى صدره.

ومع كميه الدماء التي فقدها شعر يوسف بعطش لم يشعر بمثله من قبل.. عطش لم يشعر به ضائع في الصحراء.

أين الماء؟ لا يعرف. لكن يتجاهل هذه اللحظة الآن وليبحث المهم أن يواصل طريقه إلى أن يصل إلى شيء ما.

أو إلى أن يهلك في الطريق.

* * *

وكانت الشمس هي الشيء الوحيد المتحرك في المشهد من حوله

كانت تسابقه متجهة إلى غروبها، ومع رحلتها بدأت السماء تكتسي بلون وردي، وبدأ الضباب من حول يوسف في التكاثف محولًا كل الأشجار في الغابة بجذعها عن عيني يوسف الذي حول عدم تفكيره في هذه المشكلة حاليًا.. حين تصل الشمس إلى مبتغاها.. وحين تحل الظلام مع الضباب سيتدبر مشكلة يوسف الحقيقية مع الرؤية

هذه هي المعضلة الشيء الذي لن يتركه في الغابة في حسد يموت، فهم حين وجهه بلا حدوى إلى أن يعد بصاريه ليسقط جثة هامدة باردة

في كل مرة سيكون ذلك الاختيار

الشيء ولم يعرف يوسف حينها أن اختياره سيكون للاتجاه الذي لأصول فترة ممكنة في هذه الغابة التي لا تنتهي ولن تنتهي على قيد الحياة. الآن يبدو الموقف عبثًا لا معنى له. من قواعد لقف أنه سيستمر حتى يدرك الحقيقة كاملة، والشيء الوحيد ترك يوسف مسدوصوبه إلى هو أنه سيموت قريبًا. إن لم يكن من العطش أو الإرهاق أو من وحوش الغابة التي ستنقض ليلًا أو

على بدن من عرس ذلك النمس الحجري في عقله!

كيف تسبب؟

هذا النمس دليل على أن هناك أحد آخر ربما الجن

صحيح أن صاحب النمس حول نفسه لسبب ما، لكنه لا يزال حيًّا، فهو يعيش حياته، وبالتالي فهو لا بد في مكان ما فيه ماء وطعام، وربما فراش صحيح للنوم.. وكل ما على يوسف فعله الآن هو العثور على هذا المكان.. صاحب من حاول قتله بمسامحته.. الحصول على ماء وطعام وجَرَّاح ماهر وشيء مريح بعد سيفعل هذا، لكنه حين يعثر على نفسه

عليه أن يواصل

أن يواصل وأن يتجاهل سؤالًا جديدًا وجد نفسه مكبًّا وسط بقعة

الأسئلة في رأسه: تُرى.. لو مات في هذا الجسد.. فهل سيموت حق
الحقيقي أيضًا؟

* * *

وحين حلَّ الظلام أخيرًا وجد يوسف أنه لا فائدة من التقدم

الأشجار من حوله تحوَّلت إلى أشباح ترقص وسط الضباب، ص
الذي يحيِّم على المكان منذ لحظة وصوله، زاده ثقلًا، وجرحُ عنقه عاد ي
من جديد مؤكدًا له أن أي محاولة للمواصلة ستنتزع من بهجته لا أكثر

لا فائدة من التقدم، وكل ما عليه الآن هو الجلوس وانتظار الموت في
ظلام الغابة الحزين.

هكذا ألقى جسده الجديد على الأرض مستندًا بظهره إلى جذع أو
شجرة له، وقد أخذ يلهث على نحو أدرك معه أن انتظاره لن يطو
تحسَّس جرح عنقه فوجد أنه عاد ينزف بغزارة.. عظيم.. على الأق
لن يشعر بالألم طويلًا

على الأقل ستنتهي لعنة الشيء وستنتهي قصته وستواصل سوس
بمفردها لو كانت لا تزال حية.

تذكرها وتذكر عينيها الجميلتين وهي تأمره بدراسة التاريخ كله، ودته
ابتسامة واهنة.. الساذجة لم تعرف أنها ستحتفي بعدها، وأنه لن يجد ما يدفعه
لدراسة أي شيء.. سيموت هنا في الغابة، وربما لقيت هي المصير ذاته في
مكانٍ ما.. في زمنٍ ما، أو أنها الآن معه في الغابة ذاتها تهيم على وجهها
بلا أمل.. و.. و..

وفجأة تعالى صوتها!

من العدم تعالى صوتها.. ومن مسافة ليست بقريبة، تعالى صوت أنثوي يشدو
بلحن جميل.. واعتدل يوسف في مكانه منتفضًا، وأصاخ إليه السمع جيدًا
غير مصدق أنه لا يهذي

لكنه لم يكن يهذي

إنه يسمعها.. وإنها ليست سوسن، بل هو صوت امرأةٍ تُنشِد شيئًا
لم يتمكن عليه تمييزه، لكنه كان كافيًا ليميز أنه أجمل صوت سمعه في
حياته على الإطلاق.

صوت الأمل في الخروج من مأزقه هذا.. وفي عقله تسارعت الأفكار
والحقائق

هذه امرأة ما قريبة منه.. إنها تُنشِد.. إذن هي على قيد الحياة.. إذن
هي قادرة على مساعدته.. إذن عليه الوصول إليها فورًا!

منحه هذا الحقيقة طاقة لم يشعر بها في هذا الجسد منذ أن احتله،
وقف على القفر وقدوه لدوار العنف الذي أصابه، قبل أن يسير لجهة
التي تأتي منها الصوت.. يمنحه إياه بلا لحظة تردد واحدة

كان قد فقد الرؤية تمامًا مع الظلام الذي أحاط به، لكنه قرر أنه لن يحتاج
إلى حاسة البصر الآن.. تكفيه حاسة السمع، ويكفيه أن يمدَّ يده أمامه
كيلا يصطدم بالأشجار في طريقه.. المهم أن يُسرع قبل أن يفقد طاقته
على المواصلة.

المهم أن يصل إلى صاحبة الصوت.

ولتتخيّل ما فعله يوسف بالضبط، جرّب أن تغلق عينيك و
في الجري متتبعًا صوتًا يأتي من بعيد.. جرّب أن تتخيّل ذلك فقط
نصف دماغك أولًا، وأن كل خفقة من قلبك تعني المزيد من
تنزف من عنقك.

جرّب أن تجري وأنت تشعر بعطشٍ لا يُتحمّل وآلامٍ تفوق
على الوصف أو التحمّل

وحاول أن تتخيل أنك في النهاية وصلت إلى تلك الغرفة

* * *

لم تكن قرية بالمعنى المفهوم الذي نعرفه.

لم تكن هناك بيوتٌ مبنيةٌ من خشبٍ أو حجارة، ولا حتى خيام مصنوعة
من قماشٍ أو جلد.. فقط تجاويف ضخمة في جذوع الأشجار، تكفي لـ
تحويف منها لاستيعاب رجل بالغ، ولأمام كل تحويف سترى على الأرض
أدواتٌ بدائية صُنعت في زمن لم يعرف كلمة حضارة بعد، وفي مستوى
الأرض رقدت أغصانٌ تفحمت تمامًا، وإن تلوّى خيطٌ من الدخان خارجًا
من بينها، مؤكدًا أن نارًا كانت تشتعل هنا منذ قليل.. كان الضباب أقل كثافة،
وكانت قمم الأشجار تسمح للقمر بالتسلل من بينها ليضيء المكان إلى
الحد الكافي الذي رأى معه يوسف المكان بتفاصيله مستعيدًا قدرته على
الإبصار من جديد.

لكن لم يكن هناك أحد.

حتى الصوت الأنثوي الساحر توقف مع وصول يوسف إلى المكان،
كأن مهمته انتهت بمجيئه.

مع توقفه تلاشى الأمل في صدر يوسف الذي لم يجد حتى ماءً يروي به
على الأرض قرب الأغصان المحترقة، محاولًا الصراخ غضبًا،
أنه فقد قدرته على الصراخ، لفرط الألم المنبعث من جرح عنقه.

استنفدت طاقته تمامًا.. وهنا في هذا المكان الأشبه بالمقبرة ستكون
نهايته

نظر للأشجار المحترقة وأسفل القمر، تشهد الوحدة على محاولته
الفاشلة، وحوار الغصان لا تزال دفئة رفيق يوسف واستلقى على ظهره
يهدر ما يملك في جسده من طاقة، ثم أغلق عينيه منتظرًا الـ...

نظر إليه فجأة إلى أن الأرض أسفله رطبة.. رطبة أكثر من اللازم
ليست نهايته ما أعنيه.

نظر يوسف ثم رفع يديه إلى عينيه، وعلى الرغم من إضاءة القمر
الخافتة استطاع أن يميز اللون الأحمر للدماء التي لطخت يده!

دماء من كانوا يعيشون هنا.

دماء من تركوا أغصانًا دافئة تُقسِم على أنهم كانوا هنا مجتمعين حولها
منذ

في لحظات شهده نصف عقله بقية ذكاء مذعنة ليبدأ جمع الحقائق
بسرعة لا تُصدق، لكنه ـ ومهما كان سريعًا ـ يمنحك النتيجة
نفسها بعد فوات الأوان

هناك.. هناك من حاول قتل يوسف وترك نصله الحجري في عنقه..
من حاول قتله كان هنا وقتل سكان هذه التجاويف، وجرّ جثثهم إلى حيث

تعود الدماء على الأرض.. القاتل دائمًا سيدرجه إلى هنا حيث أحد معبد بصوت أنثوي ساحر.. إذن هي قاتلة لا قاتل.. إذن هو فخٌّ إذن

وفي اللحظة التي شعر فيها يوسف بصوت من خلفه سقط سيف ضربة قاضية على رأسه، أظلمت الدنيا من بعدها تمامًا.

* * *

لكنه لم يمت.. مع الأسف!

فتح عينيه فوجد القمر يحدّق فيه منتظرًا أسئلته، لكن الآلام التي تصاعدت من جرح عنقه وإصابة رأسه أجابتا عن كل هذه الأسئلة قبل أن يسألها. ولم تمض لحظات حتى كان يوسف قد استعاد وعيه تمامًا، واعتدل من جديد على الأرض الطينية ذاتها في الغابة الضبابية ليكتشف أنه

إنه لم يمُت.. لكنه في طريقه إلى هذا حتمًا.

إنه يرقد الآن في دائرة صنعتها جثث رجال ونساء وأطفال يحملون لون بشرته الطيني ذاته، ويحدقون في القمر بأعين شاخصة لا تطرف إنه الآن ينظر إلى قدميه التي جلست في منتصف دائرة الجثث تردد تعاويذ حقيرة، مومئة به طويلًا وقد رقدت أمامها جثة رجل يرتدي الزي نفسه ذاته الذي ترتديه هي

حاول أن يتأوّه ألمًا، لكن حرج عنقه الملوث توزّع إلى الحد الكافي ليحرسه فلم يستطع، ولم تشعر به المرأة التي واصلت ممارسة طقوس لم يحتجْ يوسف لوعيه كاملًا ليدرك الغرض منها

إنها تحاول إعادة جثة رجلها إلى الحياة.

حيه يحصل منحه هذا التفسير، وقصة كاملة تصلح للإجابة عن أسئلة عديدة. هذه المرأة ورجلها كانا يسيران في الغابة حين اعترض سبيلهما لصوص الأشجار طريقهما.. قتلوه، وهربت هي لتقتلهم ولتحاول قتله هو أيضًا، قبل أنه ينتمي إليهم، ثم جمعت جثثهم في هذه الدائرة لتستخدمهم في ممارسة طقوس سحرية ستعيد بها رجلها إلى الحياة.

لكنه لم يمت بعد.

بمعجزة ما، ظل على قيد الحياة، وبمعجزة أخرى تركت المرأة يصلّا يحاول تحرير نفسه، منحة يوسف الاختيار الذي وعده به الشيء قبل أن يسلمه إلى هنا

يمكنه الآن أن يحاول الهرب، أو أن يواجه إلى النصل يستغل فرصة انشغال المرأة بطقوسها السحرية

بسهم بلا أدنى شفقة أو رحمة!

- في كل مرّة سيكون لك الاختيار.

قالها الشيء وفهمها يوسف أخيرًا.. والآن عليه أن يختار.

ولسبب ما، يصعب فهمه أو تفسيره، تذكر يوسف الدكتورة ليلى، تذكرها وتذكر ما حدث بها وكيف قتلها هو مصطرًا لترقد جثتها بجوار جثث رجلها وصديقها في قلب ممرليها، للحد أن اقتحم الشيء حياتها واختار يوسف له يمنحك الخيار هذه المرّة

الدكتورة ليلى قتلها بيحو بنفسه أما هذه المرّة فيمكنه أن يرحل في هدوء

هكذا حسم أمره وهكذا بدأ يوقف بعدًا عنها محاولًا ألا يصدق صوت موقنًا أن رحلة هربه لن تطول، فهو هالك لا محالة. لكنه توقف رعشة عنه حين تعالى صوتٌ آخر في المكان

صوت الرجل الذي كان يرقد خلفه هامدًا أمام المرأة!

* * *

في البداية أخذ الرجل يزوم بصوتٍ عجيب كأنه يستيقظ من نوم عميق دامٍ لآلاف السنين، فالتفت إليه يوسف ليحدّق فيه غير مصدق أن صنيع المرأة قد نجحت.

إنها أعادته إلى الحياة.

ثم بدأ الرجل يتحرك.

ببطء يصعب تمييزه حرّك الرجل يديه ثم ذراعيه ثم اعتدل جالسًا على الأرض والمرأة تواصل طقوسها بصوت منخفض لفرط الانفعال، حتى وقف الرجل في نهاية أمرها معتمدًا بكفيه وقدميه تحمله بخروج جسده الذي قبله، لكن المرأة لم تتوقف عن ترديد تعاويذها بل أخذ صوتها يعلو ويعلو إلى أن فتح الرجل عينيه فجأة فرأى يوسف ذلك الوجه البشع الذي أحاط بعينيه، والذي رأته المرأة سوف تعاود ترديد تعاويذها مرجعة إلى الوراء دهشة مذعورة، مكتشفة أن من وقف أمامها ليس رجلها الذي تعرفه.. إنه آخر.

إنه.. الشيء!

عرفه يوسف وقد فقد قدرته على الحركة لفرط ذهوله هذه المرة

صوب بحدقتين في الشيء الذي تلفت حوله محاولًا تعرُّف المكان ... وجد نفسه فيه، قبل أن يلتفت إلى المرأة التي تحوَّلت إلى لوحة ... لأبعد للرعب والهلع

ثم صرخت المرأة بكل ما أوتيت من قوة وخوف، ينقض الرجل ... الذي هو رجلًا على عنقها ولم يرفعها بيد واحدة في الهواء محرشًا ... وجهها، فأغمض يوسف عينيه منتظرًا صوت تهشم عنقها الذي تعالى ... صوت أحشاء يوسف ممتعضة.

... الصوت الثاني هو صوت سقوط جثتها على الأرض، ففتح يوسف ... فوجد الشيء يقف مكانه يتأمل القمر بوجه جامد الملامح وعينين ... محسن.. ومن دون أن يلتفت إليه وبلغة فهمها يوسف قال الشيء:

... اختبرت.. والآن.. عليك أن تهرب.

* * *

... فهم اكتشف يوسف أن غريزة الخوف هي أقوى الغرائز على الإطلاق.

... فر حتى من غريزة البقاء التي منحته طاقة مؤقتة قادته إلى هذا المكان ... أن تنضب.. لكن حين أخبره الشيء بأن عليه أن يهرب هبَّ يوسف ... على قدميه برشاقة واندفع نحو الظلام والأشجار بسرعة لم يعهدها في ... جسده مستعيدة عليها جسده الجديد الذي كان يُحتضر منذ قليل.

... تذكر الأسئلة ذات الإجابات الفورية؟ إلى أين سيهرب يوسف في ... هذه الجزيرة التي يستحيل أن ترى فيها يدك ولو كانت أمام وجهك لفرط ... الظلام والضباب؟ لا يهم.. المهم أن يبتعد عن الشيء!

لهذا أحد يوسف يعدو.. ويعدو.. ويعدو.

الدماء تفجَّرت بقوة من جرحي عنقه ورأسه.. خفقات قلبه أصبحت أذنيه.. أنفاسه أصبحت رماحًا تنغرس وتنتزع من صدره بقوة.. وهو لا حدَّ له سيطر على تفكيره أجبره على أن يعدو.. ويعدو.. ويعدو..

إنه لشيء!

هكذا كانت بدايته.. هكذا عدا.. وهكذا تحوَّل يوسف إلى فرسه الأولى!

يعدو.. ويعدو.. ويعدو.

وفيما بعد سيدرك يوسف سرَّ هلعِهِ في هذه الليلة، وسيندهش حين يكتشف أن أكثر ما أخافه في هذه الليلة هو جسد الشيء الجديد لقد اعتاده في جسد صلاح حامد بوجه مخيف النظرات، وهو جسد سهل التعامل معه، لكن جسد الرجل الذي احتله في العدو كان ضخمًا

حتى مقارنة بجسد يوسف الجديد نفسُ الجسد الذي احتله الشيء ضخمًا، قادرًا على تهشيمه في لحظة

لهذا أصيب يوسف بالهلع

ولهذا تذكَّر وهو يعدو كالمجاذيب.. صلاح.

* * *

في كل مدرسة تحددت قصته تتكرر

الطفل الوحيد ضئيل الحجم الذي يتحاشى تجمع مُفضَّلًا الانفراد

في نفسه، وبعض تشاكس ضخم الحجم الذي لا هواية له في الحياة إلا جعل حياة ضئيلي الحجم إلى جحيم.. وصلاح كان ضخمَ الحجم حقًّا!

ولعل كل يوسف أن مشكلته في المراهقة هي التي منحت صلاح حياة تفوق عمره بأضعاف، وبل ظل قلبه قلب طفل وديع، أحسن ترتيبه في مدرسته لم يستطع يوسف أبدًا، مستدلًا بهذه المدرسة أخرى أكثر قسوة وتعقيدًا، تتلخص في أن صلاح مجرد ثور آدمي، يحركه عقل يعوضه، وسوء لا حدَّ له يعوِّض به عن ذكاء لا علاقة له بمشكلته الجسمانية

لكن نظرية يوسف هذه لم تكن صحيحة تمامًا.. فصحيح أن صلاح كان عاجزًا تمامًا عن حل أبسط المسائل الحسابية في عقله، إلا أنه كان قادرًا على ابتكار طرق لتعذيب يوسف، تستحق منا الانحناء احترامًا لموهبته.

خذ عندك على سبيل المثال اليوم الذي احتجز فيه صلاح يوسفَ في حمام في دورة مياه المدرسة، ليقف هو على مقعد في الكابينة المجاورة ليسكب عليه الماء لأطول فترة ممكنة عليه، بعد أن اختار أعلاها صوتًا وأكثرها حرقة. اليوم وجد يوسف نفسه كالمجرد من ملابسه يقف في مساحة ضيقة محبوسًا بتدفق الماء المنهمر عليه بلا انقطاع، وقد امتلأت حنجرته بصيحات صلاح الوحشية، إلى أن سمح له صلاح بالخروج أخيرًا بعد أن أخذ منه ملابسه!

ومنها عاد يوسف إلى منزله مرتديًا كتبه الدراسية والحروق تغطي جلده، والدموع تسيل من عينيه، وفي اليوم التالي اكتشف أنه تحوَّل إلى محور مسخرة سخرة يرددها باقي تلاميذ المدرسة في كل مناسبة

مناسبة قصة صلاح وصحبته يوسف

هناك أيضًا اليوم الذي أجبره فيه على ابتلاع زجاجة منصف كامل ليتركه في النهاية وسط بركة من القيء يتلوى في ألم مع صلاح مستمر لا يوصف.. وهناك اليوم الذي أخذ فيه حذاءه منه قبل أن يجده في ارتدائه بعد أن ملأه بالصمغ، ليظل الحذاء في قدمي يوسف لأيام حاول فيها يوسف انتزاعه لينتهي به الأمر مصابًا بالتهابات حادة في قدمه.

لكن لعبة صلاح المفضلة، والتي واظب عليها بعد ذلك، كانت لعبة «المشاكة» الشهيرة.

أنت تعرف هذه اللعبة.. طفلٌ يقف مُغمَضَ العينين ويعد من رقم واحد إلى رقم عشرة، وعلى الطفل الثاني أن يسرع بالاختباء، قبل أن ينتهي الأول من العدّ ليبدأ اصطياده.. هذه اللعبة المعتادة أضاف إليها صلاح خصائص جديدة مبتكرة: سيقف هو ووجهه إلى الحائط مغمض العينين يعد من واحد إلى عشرة، وعلى يوسف أن يسرع هاربًا بحثًا عن مخبأ يحميه بأقصى سرعته قبل أن ينتهي صلاح من العدّ ليبدأ البحث عنه، وإن وجده فسيُسقطه أرضًا ويركله بلا رحمة في بطنه إلى أن يتوقف يوسف عن التنفس.

هكذا كانت أقسى لحظات مرّت على حياة يوسف، هي اللحظات التي كان صلاح يقف فيها بجسده الضخم، يوجهه إلى الحائط يعدُّ بصوته:

ـ واااااااحد.. اثناااااااااان.. ثلاااااااثة...

وفي كل مرّة كان العد يتوقف عند رقم عشرة.

عشر ثوانٍ هي كل ما يملكه يوسف ليبحث هاربًا ويقصي سرعته قبل أن يبدأ صلاح مطاردته.

وهنا يجب أن نذكر ـ ومن باب الأمانة ـ أن صلاح لم يعش قصته مع

حتى يصل إلى رقم عشرة في كل مرّة، ولكن يجب أن نذكر صلاح كان مع بدانته سريعًا حقًا.

كان يحذف نفسًا عميقًا يملأ به صدره الضخم، قبل أن يبدأ العدو بسرعة لا تصدق وأصابعه مفرودة حتى نهايتها لتحول يده إلى سيف من الهواء وهو يعدو وراء يوسف الذي كان يخسر في كل مرّة، لينتهي به الأمر مُكوّمًا على الأرض، يتلقّى الركلات بلا رحمة أو هوادة.

في إحدى المرات وجدته الأستاذة صفاء مدرسة العلوم في المدرسة وقد تلون لونه ويوشك على الموت اختناقًا، فأسعفته وأقنعته بأن يحكي لها ما جرى.. فشرح لها يوسف من وسط دموعه تفاصيل لعبة صلاح، ليكون رد فعل الأستاذة صفاء حاسمًا ومتسرعًا ولم يتح لصلاح الوقت لإكمال قراءة ما كان يجول في خاطره، بينما أصابعه وأنفاسه على أهبة هروبه هي المُلامَة لا هو.. اتفاق بسيط مع يوسف مفاده أنه لو تعرّض له صلاح مرّة أخرى فكل ما على يوسف فعله هو أن ينادي الأستاذة صفاء بأعلى صوت، وستنقذه هي على الفور.

هكذا أضيفت تفصيلة جديدة للعبة «المشاكة» لم يرضَ عنها صلاح لتضاف في كل مرّة كان ينتهي فيها من العد كان صوت يوسف يتعالى محذرًا صلاح الحارس الأستاذة صفاء، والتي كانت تظهر من العدم لتنقذه من براثن صلاح.

هذه التفصيلة الجديدة كانت تنقذ يوسف كل مرّة، إلى أن أتى اليوم الذي تعصب فيه بالتهاب حاد في أحباله الصوتية لسوء حظّه.. التهاب أفقده صوته ومنح صلاح فرصة ذهبية، ليمارس لعبته التي اشتاق إليها طويلًا.

يومها انتحى به صلاح وجسده يرتعش لفرط حماسه ولهفته، يحوه بإضافة جديدة على لعبته:

ـ هذه المرَّة حين أُمسِك بك.. سأقتلك.

ويومها لم يَشُك يوسف ولو للحظة في أنه سيفعلها حقًّ

وأنه لو أمسك به.. فسيقتله!

لهذا وحين دفن صلاح وجهه في الجدار وبدأ يعد:

ـ واااااااحد.. اثناااااان...

كان يوسف قد بدأ رحلة هروبه الكبير بالفعل.. وعلى الرغم من
حرارته يومها كانت مرتفعة، وأن النهاب أحباله الصوتية كان يُعيق
فإنها كانت أسرع مرَّة عدا فيها يوسف في حياته.

ساقاه فقدتا اتصالهما بالجاذبية الأرضية، والموجودات من حو
تحولت إلى خطوط متسارعة.. ومن حوله تبدلت المشاهد بسرعه
الفصل.. ممرات المدرسة.. البوابة.. الشارع.

شيء واحد فقط لم يتبدل، وهو صلاح، الذي اندفع وراءه بأقصى
سرعة هو الآخر وقد احمرَّ وجهه وانفردت أصابعه ويداه كسيفين يشقان
الهواء، مزمجًا شيئًا واحدًا فقط.. الإمساك بيوسف.. وقتله!

وبينهما أخذت المسافة تقل تدريجيًّا وتقل وتقل و و

وسمع يوسف صوت الفرملة الحادة وصراخ بعض المارة، فتوقف في
اللحظة التي طار فيها جسد صلاح فوقه ليسقط أمامه تمامًا مهشم العظام
وقد غطت الدماء وجهه.. وفكه السفلي يلامس أذنه اليسرى، وقد أحدث

جسده يحدق بشبات في يوسف تتهمه وبوضوح بأنه السبب، فأخذ يوسف
يحدق فيه غير مصدق.

مات صلاح!

مات قبل أن يقتله.. مات ولم يعد عليه أن يخشاه بعد اليوم أبدًا.

تجمع المارة يتجمعوا حول الجثة يصيحون بأشياء كثيرة لم يُولِ لها يوسف
أي اهتمام، وعبر الممرة التي صدمت صلاح خرج منها ملتاعًا يبحث عن معجزة
ما يعيد بها ضحيته إلى الحياة.

مر يوسف فواصل طريقه بهدوء إلى منزله متجاهلًا هذا كله.

لكنه هذه المرة كان يبتسم

* * *

لأن تذكَّر يوسف صلاح وهو يعدو في الغابة هاربًا.

تذكره وتذكَّر لعبته فمنحته هذه الذكرى سرعة إضافية، وفي أعماقه
حين وجد مطاردُه هذه المرَّة هو صلاح لا الشيء في ذلك الجسد الضخم
الذي تهشيم عنقه الذي لم يتوقف عن النزيف لحظة.

شيء الذي لم يظهر حتى الآن ولم يبدُ عليه أنه يحاول مطاردته حتى،
وهي لعبة انتبه لها يوسف ليقترف أشهر خطأ يقترفه أي شخص يهرب
من مطارده

نظر إلى الوراء.

وكان فتعثر فسقط على وجهه في الطين فصرخت كل آلام جسده

معرضه، لكنه استعاد الطاقة التي منحها له رُعْبُه، فهبّ واقفًا على قدميه ولمح أن أمنيته قد تحققت

فأمامه.. وفي ظلام الغابة.. كان صلاح يقف ينتظره!

* * *

كان يقف أمامه على مسافة بضع خطوات تمامًا كما رآه يوسف حين

الدماء تغطي رأسه، وفكّه السفلي تلاشى تمامًا من مكانه الأيسر، وفي عنقه جسده مهشمة لتتدلى أطرافه في أوضاع عجيبة، وكان ينظر إلى يوسف مباشرة بعينين تتهمانه: أنت السبب!

رآه يوسف فحاول أن يشهق ذاهلًا، لكن جرح عنقه منعه من ذلك، فسقط قلبه في صدره وفقد التحكم في ركبتيه.. ومرّت لحظات صمت ظل عليهما قبل أن يدفن صلاح وجهه في أقرب جذع شجرة له، ثم

ـ وا

إنه هو.. هو صلاح.. عاد من الموت لينتقم منه

ـ اشااااان...

عاد ليلعب لعبته الأثيرة للمرّة الأخيرة.

ـ ثلاااااااثة...

وهنا لا توجد أستاذة صفاء لتنقذه.. وحتى لو كانت موجودة فلن

لا يملك صوتًا ليبدي عليه

ـ أربـــــعة

هو بالتأكيد يعود من جديد.

وهذه المرة كانت أمنيته الوحيدة هي أن يستعيد صوته ليصرخ بكل الرعب الذي يستحقه، لكنها أمنية لم تتحقق.

متى سيعود هذه المرّة؟ بعيدًا عن صلاح!

ـ خمـــــسة

متى كان خمسة وستة؟ لا يهم، يجب أن يهرب فحسب

ـ ثمـــانيه

وهذه المرّة صفعه يوسف بكل شجاعته وبكل ضجره في طريقه، لكنه لم يحصل في كل مرة من قبل

ـ تســـــعه

صلاح وعده بأنه لو أمسكه فسيقتله، وعدًا لم يحتمله سابقًا بكل

من الممكن أن تعيد هذه المرّة

لهذه المرّة: هو مات بالفعل

عشـــــرة

عاد صلاح إلى مصرعه!

* * *

يحمد الله ويضع مفروده ويديه كسيفين يشقان الهواء شق

سيف صلاح

لم يتعثر ولم يصطدم بالأشجار ولم يمنعه تأرجح فكه المهشم
الانطلاق بأقصى سرعته.. وهذه المرّة كان أسرع من الضوء ذاته

صحيح أن يوسف كان قد تعلّم بمسدسه لا بأس به، إلا أن صلاح
يقترب منه في لحظات معدودة.. شعر به يوسف من دون أن يراه، لكنه
لم يقوَ على أن يزيد من سرعته أكثر من هذا.. إنه بالفعل يعدو بآخر ما في
حياة متوفرة في هذا الجسد الذي وجد فيه نفسه.. فقط عدة أمتار
السماء ليكتشف يوسف أنه خرج من نطاق الأشجار، وأنه بات
حافة تقود إلى هاوية، ليجد نفسه أمام اختيار جديد لهذه المرة

يمكنه أن يتوقف ليواجه صلاح.. أو أن يقفز إلى الهاوية!

وأمام هذا الاختيار سطعت حقيقة لا جدال فيها في عقل يوسف
هالك لا محالة.

لو قفز من الهاوية فسيهلك.. ولو واجه صلاح فسيهلك. ولو هـ
منه حتى فلن يتحمّل جسده هذا أكثر مما تحمّله بالفعل وسيهلك..
الحل الأخير أمامه الآن هو.. التوقف!

ومستسلمًا لهذه الحقيقة توقف يوسف مكانه لاهثًا، ومستعدًا لمصـ
الذي سيخرج له من الغابة في أي لحظة، لكن من خرج أمامه في
لم يكن صلاح.

كان الشيء!

بجسده العملاق وبوجهه الجامد وعينيه المتوهجتين خرج له الشيء
من ظلام الغابة، يسير تجاهه بخطوات متأنية واثقة، فانهار يوسف على
ركبتيه وسالت الدموع من عينيه، لينتزع كلمة واحدة من حلقه بـ

...حد؟

...قف الشيء أمامه مباشرة بنحيب بالصوت ذاته المخيف الذي
...يوسف. وقال

...كانت *أمامك الخيارات*.

... ثم مدّ يده ليقبض على عنق يوسف النازف، فكان آخر ما سمعه
...سف في هذا المكان وهذا الزمان صوت عنقه وهو يتهشم.

...

وحين فتح يوسف عينيه هذه المرّة وجد أنه عاد إلى غرفته في [illegible] على فراشه، فلم يشعر بذرة سعادة أو دهشة.

فقط تكوّر على نفسه وأخذ يبكي بحرقة إلى أن جفّت دموعه

الآن فهم لعبة الشيء.. والآن فهم أول خطأ ارتكبه فيها.

لقد كانت أمامه الفرصة ليقضي على الشيء قبل أن يولد، لكنه [illegible] حين ترك المرأة على قيد الحياة.. أضاعها ولهذا وجد الشيء، وبهذا [illegible] موجودًا حتى يومنا هذا.

لقد كان أمامه الخيار ولقد أخطأ.

وها هو الآن يدفع الثمن.

ساعات طويلة مرّت على يوسف تلك الليلة وهو متكوّر على نفسه في الفراش كأنما يخشى الخروج منه، إلى أن انتبه إلى آخر سؤال [illegible] ينتبه إليه: لقد أخبره الشيء بأنه سيعطيه الحقيقة قطعة قطعة.. في كل مرة سيمنحه قطعة.. وسيأخذ منه قطعة.. فما الذي كان يقصده؟

١٤

وحين فتح يوسف عينيه هذه المرّة وجد أنه عاد إلى غرفته في [illegible] على فراشه، فلم يشعر بذرة سعادة أو دهشة.

فقط تكوّر على نفسه وأخذ يبكي بحرقة إلى أن جفّت دموعه

الآن فهم لعبة الشيء.. والآن فهم أول خطأ ارتكبه فيها.

لقد كانت أمامه الفرصة ليقضي على الشيء قبل أن يولد، لكنه [illegible] حين ترك المرأة على قيد الحياة.. أضاعها ولهذا وجد الشيء، وبهذا [illegible] موجودًا حتى يومنا هذا.

لقد كان أمامه الخيار ولقد أخطأ.

وها هو الآن يدفع الثمن.

ساعات طويلة مرّت على يوسف تلك الليلة وهو متكوّر على نفسه في الفراش كأنما يخشى الخروج منه، إلى أن انتبه إلى آخر سؤال [illegible] ينتبه إليه: لقد أخبره الشيء بأنه سيعطيه الحقيقة قطعة قطعة.. في كل مرة سيمنحه قطعة.. وسيأخذ منه قطعة.. فما الذي كان يقصده؟

١٥

وفي الأسابيع التالية قرأ يوسف كثيرًا في التاريخ.

بعين واحدة، وبإرادة ولّدها الخوف، وبيقين بأن الكابوس الذي يحيا فيه هو واقع لا مخرج منه، أخذ يوسف يقرأ في كتب التاريخ التي منحه إياها سوسن قبل أن تختفي.. سوسن التي قرر أنها لا بد أنها هلكت في مكان ما أو زمن ما.

أسابيع عرف فيها يوسف الكثير عن الحضارة الفينيقية والفرعونية والآشورية.. أسابيع عاش فيها في طيبة والفرات والأندلس. عاش مع قبائل وممالك وإمبراطوريات اندثرت، عاش فيها مع جيوش وعرق تركت بصمات دامية لا تُنسى على صفحات التاريخ.

أسابيع لم يره فيها الشيء ولم يحدث له فيها أي جديد

لم يحاول البحث عن سوسن، فما كان يبحث عنه الآن أهم بكثير.

كان يبحث عن الشيء.. عن طقوس استدعائه.. وعن طقوس التحصن عليه.. وكان يشعر به طيلة الوقت هناك.

في التاريخ

في كل حرب سقط فيها الآلاف.. في كل وباء تفشّى في أي عصر.. في كل مذبحة وكل مؤامرة وكل حضارة تلاشت من على وجه الأرض من دون أسباب أو تفسير.

ومع مرور الوقت تشكلت في أعماقه النظرية ذاتها التي تشكلت في عقل الدكتور مجدي وأعماق سوسن من قبله.. نظرية أنه في التاريخ لم يكن هناك مصادفات.. بل هو الشيء.

الشيء قد تسبب في كل فترة مظلمة من فترات تاريخ البشرية، وهو الآن يستعد للفصل الثاني من لعبته التي أصبح يوسف بطلها رغمًا عنه. والفصل الثاني اقترب، لكن يوسف لا يعرف هذا بعد.

لكنه سيعرف

* * *

يمكنه الآن أن يدرك أن صباح ذلك اليوم البارد من أيام الشتاء الذي بدأ بحثه عن نفسه بنوبات متقطعة من أمطار غزيرة منحت الهواء تلك الرائحة المميزة التي لا تعني ليوسف إلا المزيد من نوبات الصداع النصفي في هذا الصباح وجد يوسف أنه أوشك على الانتهاء من قراءة الكتب التي تركتها له سوسن، من دون أن يعثر على ما يسعيه، وأن عليه الحصول على المزيد

كان هذا يعني بالنسبة إليه أن يغادر غرفته في الفندق، والتي لم يغادرها منذ الأسابيع الماضية، فشعر برهبة مَنْ عليه أن يواجه العالم الخارجي بعد فترة انقطاع.. سيترك وحدته هنا وسيخرج إلى مدينته التي لم يرها

منذ زمن طويل، فهل ستتعرَّف عليه بعد أن استطالت لحيته وخط الشيب رأسه أكثر؟ وهل سيراها هو بعين واحدة كما كان يراها بعينين؟

كانت حياته قد تحولت إلى روتين لا بأس به . يستيقظ في الساعة السادسة مساءً ليقضي ليله كله في القراءة مختلسًا النظرات بين الحين والآخر من مظلم من أركان غرفته متوقعًا ظهور الشيء ـ الذي أصبح كابوسه الليلي ـ ثم في ساعات الصباح الأولى يتناول وجبة تُعدها صاحبة الفندق وتتركها له على باب غرفته بناء على طلبه، قبل أن يعود إلى القراءة من جديد، أن ينام حين تتصدف شمس الظهيرة في كبد السماء.

روتين ممل، لكنه كان قد حظي بما يكفيه وأكثر من الإثارة، فالروتين الممل بالنسبة إليه متعة لا توصف.

لا فتى لا شيء يبحث عنه لنفسه وحتى صوت سوء حظه بات الصمت طيلة الفترة الماضية، كأنه يخشى أن يفسد عليه قراءته التي لا تنتهي

لكن اليوم يختلف.. اليوم سيكسر هذا الروتين وسيخرج من غرفته ليبتاع بكل ما تبقى له من مال المزيد من كتب التاريخ، وما عليه الآن هو تحديد أي الكتب التي سيقرأها في الأيام المقبلة.. حاول كتابة قائمة افتراضية بما سيبتاعه ليجد أنها مضيعة للوقت.. الأفضل أن يذهب إلى المكتبة ليختار مما سيجده وألَّا يضيِّع الوقت في التردد، إذ إن عليه بعدها والنوم فالاستيقاظ قبل أن يحل المساء.

هكذا ارتدى ملابس الخروج ليجد أنها اتسعت قليلًا عليه، وأمام المرآة وقف ليجد أنه أصبح أشبه بالمدمنين، وهي ملاحظة تأكد منها حين رأته صاحبة الفندق والعاملون فيه لتبدأ الهمسات والإشارات والأعين معلقة عليه

حين خرج من الفندق استقبلته النسائم الباردة فتمسَّك بملابسه وأخذ يَحُثُّ الخطى باحثًا عن أقرب مكتبة لينتهي به في تلك المكتبة الأنيقة التي امتلأت بمن يحبون إحساس التواجد في المكتبات أكثر من القراءة ذاتها.. وفي داخلها تجاوز يوسف أرفف أعلى الكتب الساخرة، فالرومانسية، فكتب الطبخ، وسخافات التنمية البشرية، ليقف في النهاية أمام أرفف كتب التاريخ التي عطلته الأبد لأنه كان مُحقًّا.. الأغلبية لا يقرأون التاريخ لأنهم حمقى.. وهو لا يستقرأه لأنه مضطر.

أمام خيار الأزمنة التي سيقرأ عنها إذن وليَتَّقِ العناوين التي توحي بالأزمنة وأكثرها إظلامًا وكآبةً.

«موجز التاريخ» عنوان قريب مما يبحث عنه.. «معجم الحضارات القديمة» قد يحوي شيئًا مفيدًا.. «أسوأ كوارث العالم» بالتأكيد مهم.. «مصادر التاريخ» وهو الآن يعرف أنه لا توجد مصادر بل يوجد شيء اسمه «منهج البحث الأثري» يبدو مملًّا أكثر من اللازم، لا داعي له.. «سبع فترات في التاريخ» رائع.. «بداية ونهاية الـ...»

أي كتب؟

تعلق بصوت فجأة وانتفض يوسف، وسقط ما يحمله من كتب أسفل قدمي مُقتحِم عصام، الذي وقف يسدد نظراته الصارمة إلى يوسف، الذي حدجه بنظرة ذاهلة، قبل أن يواصل عصام وبلهجة مَنْ عثر على فريسته:

- سقطت يا عويري

ليَهوِي قلب يوسف هذه المرَّة بين قدميه.

* * *

تركه عصام في سيارته يتلظى بنيران القلق واللهفة، فأدرك يوسف تعمد هذا.

طوال الطريق لم يتبادلا حرفًا واحدًا، ولم يجرؤ يوسف على البادئ بحديث لن يعرف كيف سينتهي، ثم.. وأمام أحد الأكشاك عصام وغادر السيارة ليبتاع علبة سجائر، وليقف يدخن واحدة شديد. ترك يوسف «يتصبح» بنعمة رحلان شرطه، وعلى نزعم يوسف كل يدرك هذا جيدًا فإنها كانت طريقة ناجحة للغاية

وحيدًا جلس يوسف في سيارة عصام يُنَبِّئُ لاحتمالات في رأسه لحد أنه يشفق من أسوأ الاحتمالات، وما هو أسوأ منها بكثير

عصام كان يبحث عنه.. هذا مؤكد.. لكن لماذا؟! رجل شرطة لا يبحث عن مواطن عادي إلا لو كان شاهدًا أو متهمًا.. ولأنه يوسف، فلا يمكن متهم.. إنه أذكى من أن يضيِّع وقته في دراسة الاحتمال الأول

متهم بماذا؟ بقتل الدكتورة ليلى!

عند هذه النقطة سرت قشعريرة باردة في جسد يوسف، وفي رأسه تصاعدت ذكريات ليست بعيدة.. ذكريات حملت صوت ليلى وهي تنادي عليه:

-يووووووووسف.. أين أنااااا؟

هل عثر على جثة ليلى في فيلا مينا مع باقي الجثث؟ هل عثر على جثة هناك؟!

يتصبح ترك يوسف يصمت هناك

تركه على باب شرفته يحدق في سلمه على مقبض السكين الذي قتل به الدكتورة ليلى، وعلى أسنان جثة ابنتها.

ما حدث من السهل تخيله.

بلاغ من أحد الجيران بأن رائحة كريهة تتصاعد من الفيلا.. أحدهم حاول الاطمئنان فوجد المقبرة الجماعية في القبو فأبلغ الجميع

سيدعي المقدم عصام الذي يطلق إلى هناك للورع أوامره على الجميع بلا استثناء، مرددًا:

- ابحثوا عن الصمت.. لا بد أن هناك صمت.

الصمت الوحيدة الغريبة عن المنزل كانت بصماته هو.

«يووووووووسف.. أنا أعرف أنك هنااااا..»

ستعرضة في العيادة ستشهد بأنه جاء، وبأنه دفع ثمن عنوان الدكتورة سيقول إنه كان بحاجة شديدة مكتئبة، فدبت الدلائل، ولديها الشاهد، وكل ما عليه المقدم عصام الآن هو الدافع.. سيدخل عنه الآن وسيسأله

- لماذا يوسف؟

دخلها عصام داخلًا السيارة، فتبدَّت المفاجأة على يوسف، وحدق في عصام بعد استدراه ليتصبح

- لا تتظاهر بأنك لا تعرفها.. أنا أعرف أنك التقيتها وأنك كنت تبحث عنها.. والآن أنصحك بأن تجيب عن سؤالي.. أين هي؟

فانتزع يوسف نفسه من ذهوله بمشقة ليجيب بصدق حقيقي

- لا أعرف!

- يوسف.. لا تضيّع وقتي.. لقد عثرنا على الجثة بالفعل، وبصمتك كانت تملأ مسرح الجريمة.

- جثة من؟

- جثة المهندس سامح.. خطيبها السابق.

فتعاظمت الحيرة في عين يوسف، ليشعر عصام بأنه لا يخدعه بعد، فلانت نبرته وهو يقول

- يوسف.. أنا أعرفك منذ زمن.. وأكره أن أراك متورطًا في هذه القضية.. لهذا عليك أن تساعدني وإلّا...

لكن يوسف لم يُجب.. ففي أعماقه.. وعلى الرغم من دقة الموقف شعر بالخلاص!

لم يعثروا على جثة الدكتورة ليلى إذن.. إنه ليس متهمًا.. بل هو شاهد، وكل ما عليه الآن هو أن يجيب عن سؤال المليون دولار، الذي كرره عصام بصرامة هذه المرّة:

- أين سوسن؟

- لا أعرف.

ـ يوسف بكل ثقة، وهو الذي يتمنى أن يعثر عليها أكثر من المُقدّم عصام.. والآن.. أصبح يتمنى أن يعثر عليها أولًا.. فلو سقطت في يد عصام أولًا فهي النهاية.. نهايتها على الأقل!

ـ يوسف.. سأفترض جدلًا أنك لا تعرف مكانها كما تدعي.. لكن في هذه الحالة أريد أن أعرف علاقتك بها.. لماذا التقيتها؟ عن ماذا تحدثتما؟ أين رأيتها آخر مرّة؟ ولماذا كنت تبحث عنها؟

وكانت أسئلة لن يُسمح معها بصدق إلا لو أراد يوسف الانضمام إلى قائمة المتهمين أو المحتجزين.. هنا تصاعد صوت سوء حظه في رأسه بعد صمت عجيب ليمنحه الحل الوحيد:

ـ اكذب.. *اكذب كما لم تكذب من قبل.*

وهذا ما فعله يوسف بكل حماس، إذ أجاب

ـ لقد كنت أجري معها حوارًا بصفتها إحدى طالبات الدكتور مجدي.. وهو الحوار الذي كنت أعمل عليه كما تعرف.. لكني لم أحصل منها حتى على شيء مفيد.. هذا هو كل شيء.

ـ ولماذا بحثت عنها بعد ذلك؟

ـ لأنني شعرت بأنها تُخفي شيئًا ما، وأردت معرفته.. لكني لم أعثر عليها قطُّ.

ـ ولماذا تركت عملك في مجلة «المجلة»؟

ـ لأني فشلت في كتابة التحقيق.. كان هذا رغمًا عني.

ـ ولماذا تركتَ شقتك؟

- لأسي أحتاج إلى المال بعد أن تركت عملي. سأعرضه للبيع وسأبحث عن مكان أصغر وأرخص.

هكذا توالت إجابات يوسف، وهكذا هناه سوء حظه في رأسه ر

- أحسنت.

لكنَّ عصام منحه نظرة شك طويلة، تحمَّلها يوسف بجلد، قبل أن يقول عصام في النهاية:

- سأتركك الآن.. لكني سأتصل بك في أي لحظة، وسأتي إلى هنا على الفور.. أتفهم؟

فهزَّ يوسف رأسه على الفور ليشير إليه عصام لكي يخرج، فلم يتردد يوسف لحظة واحدة

خرج من السيارة وظل واقفًا مكانه يرمق سيارة عصام التي أخذت تبتعد عنه حتى غابت في نهاية الشارع، لينهار أخيرًا على ركبتيه بينما وقلبه يخفق في قوة.

لقد نجا هذه المرَّة.. لكنه لن يعتمد على حظه في المرَّة المقبلة بالتأكيد

لقد نجا هذه المرَّة، لكنها مسألة وقت قبل أن يأتي دوره.

فقط.. وفي طريقه إلى الفندق.. وفي أعماقه.. أخذ يردد سؤال عصام بلا توقف: أين سوسن؟

* * *

لكن سوسن لم تظهر في هذه المرحلة.

لم يصبح ستظهر لاحقًا، فدورها في هذه القصة لم يأتِ بعد، لكنها ستقف عندها الآن وستنتقل إلى مكان آخر زرته من قبل

في قبو فيلا الدكتورة ليلى

لم يسبق لمشهد كثيرًا عمَّا رأيته في المرَّة الأخيرة. لكنها الآن وعلى ضوء شاحب المنبعث من بقعة القبو يمكنها أن ترى المشهد أفضل

جثة روح الدكتورة ليلى بنصف رأس، يرقد على أحد المقاعد وقد جثة في منتصف بطنها تحوارها رقدت جثة أخرى يحتضن دميته وقد بدا أكثر منه منك، لكن جثة أخرى حاطة المسكين بعث هذه الحقيقة، وقد تقدمها ذلك المفتاح الذي حصل عليه يوسف في زيارته الوحيدة للقبو

وعلى الأرض أمامهم رقدت جثة الدكتورة ليلى كما تركها يوسف بعد شعثاء الشعر مقطوعة يحمل وجهها تعبيرًا مخيفًا، هو مزيج من الألم وعدم التصديق والحزن

مرَّت أسابيع على جريمة يوسف، لذا لك أن تتخيل حالة الجثث ، رائحة التي أصبحت القبو، ثم لك أن تتخيل ما الذي كان سيصيب يوسف لو رأى ما يحدث في القبو الآن.

صمت عجيب بدأت جثة الدكتورة ليلى في التحرك!

كانت ترقد هناك على أرضية القبو وصدرها يحمل أثر الطعنة النافذة التي صنعها يوسف، وقد أحاطت بها دماؤها في دائرة شبه مكتملة، لكنها.. وعلى الرغم من هذا.. تحركت!

لا لم تعد إلى الحياة بالمعنى المفهوم.. الجثث لا تعود إلى الحياة بعد أسابيع من قتلها.. يمكنك أن تقرر أنها تحركت فحسب.

تحركت كأن أحدهم يتحكم في جسدها الذي لم يعد يحوي فيه ينبض أو دماءً لينبض بها.

رفعت رأسها ببطء، ثم عدلت جلستها وسط دمائها لتصل إلى هذه اللحظة لتدفن صوتها بداخلها، صمتت تمامًا على الكون كله في النهاية وقتها.

ثم تنهدت عميقًا، وتمتمت بأنها في حاجة إليهما، فقط وقتها أخذت تخطو بقدميها الحافيتين على دمائها التي تحوَّلت إلى كتلة من صمته تتحاورها، وتسحبه إلى سلم القبو الذي أخذت درجاته تئن من حديد، إذ أخذت ليلى تصعده ببطء وثقة، تسمع نهيته، وتخرج منه بـ ردهة فيلتها في مشهد لو رآه يوسف ـ أو سواه ـ لفقد عقله هنا

وبالبطء ذاته اتجهت الدكتورة ليلى إلى هاتف منزلها لتقف أمامه بضع العينين للحظة، قبل أن تمد يدها لتمسك به، ولتطلب رقمًا قصيرًا جدًا صوت محدثها فلم تسمعه، لكنها نطقت بصوت خرج من حنجرة مسه

ـ أريد أن أُبلغ عن جريمة قتل.

ولم يستغرق باقي المكالمة منها أكثر من دقيقة واحدة، أنهت فيها المطلوب، ثم أعادت سماعة الهاتف مكانها، لتستدير عائدة بخطوات البطيئة ذاتها إلى القبو.

وللمرَّة الثانية تصاعد أنين درجات سلم القبو، ثم توقف حين بلغت الدكتورة ليلى مكانها وسط بركة دمائها لترقد عليها من جديد، وكأنها لم يكن.

ومرَّة أخرى عاد الصمت التام إلى قبو فيلَّا الدكتورة ليلى.

لكنه صمتٌ لن يدوم طويلًا

* * *

ومن شوارع أحد شوارع الإسكندرية سوف تستقبل شوارع المدينة ساحرة في أفضل حال ممكنة

الإسكندرية ساحرة خاصة بمنتصف الشتاء تحديدًا

تلك اللمسة التي تُحولها من مدينة ساحلية إلى لوحة أسطورية يمتزج بها الخيال في مزيج لن تراه في أي مكان آخر على ظهر هذه البسيطة..

الساعة الآن تجاوزت السادسة مساءً، وليل الشتاء أتى مبكرًا لتتوهج الإسكندرية بأضواء مصابيح الإنارة وبالرضا المطلق من وجوه من يجوبون شوارعها يستنشقون روح الإسكندرية وعبيرها الذي توزعه عليهم بلا حساب،

لم هنا نشاركهم سعادتهم مع الأسف، لن نتتبع لسيارة الأجرة التي ركبت فوقها نكوريش، والتي يرجح منها الأستاذ فتحي، وقد أحاط وجهه بحيرة لا نعرف إن كانت مصدقة أم لا بعد ملامحه التي حملت البهجة والسعادة مع بعض مشاعر أخرى

حدق وجهه و تصاعد إلى وجهته بخطوات سريعة و واسعة

استقبلته المدينة الساحرة مبتسمة، لكنه لم يبادلها الابتسام.. إنه هنا يحصل على إجابة عن سؤال واحد شغل عقله طويلًا، ولم يعد يستطيع تحمُّل فضوله أكثر من هذا.. لهذا أخذ يحث الخطى بين المباني الأنيقة لحي سيدي بشر حتى وصل إلى شكله من شوارع الحسينية الصغيرة، والتي فلَّت فيها حركة المارة تدريجيًّا حتى لم يعد هناك سواه تدق قدماه الأرض من حوله بصوت مسموع.

بعد قليل سيحصل على إجابة سؤاله.. لقد تأكد من هذا قبل أن يتحمل عناء السفر.. فقط ليأمل أن تكفيه الإجابة التي سيحصل عليها ولا تكون كأي شيء آخر في هذه الحياة.. مجرد بداية لأسئلة جديدة بلا جدوى.

انتهى به طريقه أمام بوابة حديدية صدئة، استقر على جانبها جرس يتحداه أن يضغطه، فقبل الأستاذ قدري التحدي.. وما هي إلا لحظات حتى تصاعد صوتٌ مفعم برائحة التبغ:

ـ من؟

ـ قدري،

ـ ادخل وبسرعة.

ثم تعالى صوت الأزيز فدفع قدري البوابة الحديدية واستحثت هي له ليدخل.. صعد الدرج بأقصى سرعة سمحت له بها سِنُّ لمقدمه، وأمام تلك الشقة وقف يهمُّ بضغط الجرس من جديد، لكن مضيفه لم يمنحه الفرصة.

فأمامه انفتح الباب ليظهر من خلفه عجوز نحيل، تتدلى لحيته بيضاء من فمه، ليقول من وسط دخانها:

ـ لماذا تأخرت؟

ـ إنني قادم من القاهرة.

ـ ادخل.

فدخل الأستاذ قدري شقة هي أقرب إلى كونها متحفًا لم يرَ أحد من قبل.. كل شيء عتيق، وكل شيء تغطيه الأتربة، وكتب التاريخ تملأ

وفي مسموح به بمسحة بصرة عن هوية صاحب الشقة لدي وقف
مضيفه كله مواجهًا قدري، قائلًا

ـ بعد ترجمت النقوش.. أخبرني أولًا.. من أين حصلت عليها؟

ـ كانت مرسومة على مفتاح عتيق رأيته بالمصادفة.

ـ وأين هو هذا المفتاح؟

ـ ليس معي.. إنه مع صحفي شاب يُدعى يوسف.. هو من حصل عليه.. لقد حفظت شكل النقوش ورسمتها لأرسلها إليك فحسب.

وأشعل مضيفه لفافة تبغ جديدة ليقول:

ـ سيئ الحظ هو يوسف.. مَن يحصل على هذا المفتاح لا بد أن يكون

سيئ الحظ

ـ لماذا؟

ـ بعدين معي

فتبعه قدري إلى غرفة ضيقة من غرف المنزل لم تحوِ سوى مقعدين، بينهما طاولة، استقرت عليها رسوم وأوراق ومخطوطات يمتد عمرها لآلاف السنين.. أشار إليه مضيفه بأن يجلس، فجلس قدري وأشعل لفافة من عينيه، ليجلس مضيفه أمامه وليبدأ:

ـ لم تكن ستتمكن من ترجمة هذه النقوش بمفردك مهما حاولت.. يجب لا تعود إلى زمن تعرفه أو قرأت عنه في حياتك.. إنها آتية من هناك.. منذ ما قبل أن يبدأ التاريخ ذاته.

- لهذا لجأت إليك.

- أحسنت صنعًا.. لقد استعرفت في بعض الوقت لكي أستطيع ترجمتها في النهاية.. لكن ما توصلت إليه غير مكتمل.. إنه يعتبر الأول من اثنين.. بغير الثاني لا يمكننا أن نعرف الرسالة كاملة.

فتبدت الدهشة في وجه قدري، وقال:

- أهي رسالة؟

- رسالة أقرب إلى التحذير.. وموجّهة إلى من يحمل المفتاح.. أعتقد أنه سيكون من الأفضل أن تقرأ ما ترجمتُه بنفسك.

قالها ودفن يده وسط مهرجان الأوراق والمخطوطات على مكتبه، يحاول العثور على الورقة التي سيناولها إلى قدري الذي انتصب منه بلهفة، لبدء قراءتها على الفور.

لم تستغرق قراءتها منه أكثر من ثوانٍ معدودة، لكنها كانت كافية لتحوّل فضوله ودهشته إلى هلع حقيقي!

لقد كان يخشى أن تكون الإجابة مجرد بداية لأسئلة جديدة، لكن ما عرفه جعله يدرك أن هناك ما هو أسوأ.

ما قرأه في تلك الليلة جعله يقرر.. وبلا ذرة واحدة من التردد أو الشك أن دوره في هذه القصة قد انتهى تمامًا.. مهما حدث ومهما سيحدث فلن يحاول أن يعرف المزيد.

أبدًا!

كان قد فقد قدرته على النطق لفرط خوفه وذهوله، فقال مضيفه وهو ينفث المزيد من الدخان مع كلماته:

- أعتقد أنك إن يوسف هذا سيّئ الحظ؟!

وهز كتفيه لا أسد قدري.. هذا سؤال لم يعد يحتاج إلى إجابة.. فقط مضيفه مستعدًا للرحيل، وإن تذكّر أن يقول لمضيفه قبل أن يفارقه:

- أحرق ما ترجمتَه وتخلّص من رسمة النقوش التي أرسلتها إليك.. هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكننا فعله.

- هذا ما سأفعله.. وعلى الفور.

ومن دون أن يتبادلا كلمة وداع واحدة تركه قدري ورحل.

سيعود إلى القاهرة، وسيدمر كل شيء له علاقة بالمفتاح والنقوش ويوسف والدكتور مجدي.. وبهذا سيكون دوره قد انتهى في قصتنا هذه، ولن يحتاج إلى العودة إليه من جديد.

ولا يمكننا أن نعود إلى يوسف في عرفه في الصحراء، والذي لن يدوم طويلًا، لأسباب لم يعد هناك حاجة لشرحها.

١٦

حين عاد يوسف إلى غرفته في الفندق في ذلك اليوم كان قد اتخذ قرارين: أولهما أنه لن يخرج من غرفته ثانيةً مهما كان السبب. لقد قرأ ما يكفيه من كتب التاريخ، وسيستغرق شهورًا لو أراد قراءة هذه الكتب. فلا داعي للمخاطرة من جديد. أما القرار الآخر فكان يتلخص في أنه يجب أن يعثر على سوسن، وبسرعة قبل أن يعثر عليها عصام أولًا. سوسن التي يبدو أنها متهمة بقتل سامح الذي لا يعرف عنه أي شيء.

كيف سيبحث عنها من دون أن يغادر غرفته؟ هذه مشكلة سيفكر في حلها لاحقًا، أما الآن فعليه أن يحاول بقدر ما تبقى من أيام، قبل أن اقترب، وهو لم يقرأ بعدُ حرفًا مما أتاه، والأسوأ أنه لم ينم، وهو لا يعلم ر هبة النوم ليلًا

المشكلة هنا أنه اعتاد روتينه طويلًا.. وأيام الشتاء تغري بالنوم حتى أضف إلى هذا نوبة الصداع النصفي التي بدأت تُعلن عن نفسها، وسنجد أن خيار عدم النوم هو أسوأ الخيارات الممكنة، لكن يوسف لا يعلم سواء مع الأسف.

جلس على الفراش وأمسك بأحد الكتب التي ابتاعها، ليبدأ محاولًا تجاهل نبض الألم الذي بدأ يتصاعد من جيوبه الأنفية، مرت عليه ساعات مريرة لم يستوعب فيها حرفًا مما قرأ، لكنه قاوم محاولًا التركيز بكل طاقته.

بدأت نوبة الصداع النصفي عادة بشعور كاسح بالجوع لا تملك معه إلا ملء فمك بأي طعام متاح أمامك.. لكن يوسف كان يعرف أنه لن يقاوم النعاس، لهذا لم يأكل، ولهذا تجاوز مرحلة نوبة الجوع ومرحلة نبضات الألم التي تبدأ عادة في الجيوب الأنفية، قبل أن ترتجف نصف رأسه الأيسر ليشعر كأن مطارق حديدية تهوي عليه بلا توقف.

في هذه المرحلة يجب اللجوء إلى مسكنات الألم، وهي لا تجدي في الغالب، لكنها ـ على الأقل ـ تخفف من ساعات العذاب المقبلة.. التي لا مسكنات ألم هنا، ولن يُخاطر بالخروج من غرفته مجددًا ليبتاع بعضها.

يمكنه أن يطلب من صاحبة الفندق أن ترسل من يبتاع له بعض المسكنات، لكنها ستعرض أنه مدمن، فكيف ستكون شعورها لو طلب منها شراء مسكنات ألم قوية للمفعول؟!

مع كل وقت تشتد حدة الألم، وتتحول المطارق إلى جمرة متقدة تومض في رأسه، ويتفق عدد ومضات الألم مع عدد نبضات قلبه، فكم نبضة يبض بها قلب الإنسان الطبيعي في الدقيقة الواحدة؟ وكم نبضة ينبض بها قلب حتف منهك يتألم؟

بعد تبلغ نوبة الصداع النصفي ذروتها وينتشر إنهاك عجيب في الجسد

تصاحبه رغبة في القيء، وتغدو القراءة مستحيلة، وتتلخص [illegible] المتاحة كلها في خيار واحد غير مسموح به في حالة يوسف [illegible]

لكنه لن ينام.. سيقاوم.. نوبة الصداع النصفي ستدوم [illegible] سيقاوم.

سيقاوم، وسيحاول أن يقرأ ورأسه ذلك يهتز مع نبضات [illegible] تعصف به.. نعم سيقرأ.. إن الساعة الآن الثامنة مساءً، وشمس [illegible] ستشرق بعد اثنتي عشرة ساعة لا أكثر.. وحتى لو لم تشرق فمن [illegible] على يوسف أن يتخيل أن الشيء سيزوره بعد الثامنة صباحًا

بعدها ومع ذروة الصداع النصفي تكتسب العين البشرية حساسية [illegible] ضد الضوء.. أي ضوء.. فما بالك بمحاولة القراءة على ضوء مصباح [illegible] المتوهج فوق رأسه كألف شمس؟

ربما كان عليه أن يسترخي في الظلام قليلًا.

لا.. لن ينام.. فقط سيُرخي جفنيه وسيظل جالسًا في الصالة محاولًا تجاوز هذه النوبة إلى أن يتوقف رأسه عن الاهتزاز على الأقل

بعدها سيعود إلى القراءة وسيتماسك حتى يأتي الصباح.

حينها سينام وسيستيقظ ليتناول أكبر وجبة ممكنة، ثم ينام من جديد ليستيقظ قبل أن يحل الظلام.

خطة محكمة لا تحتاج إلا لاثنتي عشرة ساعة لتنفيذها [illegible] يتماسك، وألا ينام مهما اشتد الألم، ومهما أغراه الظلام، ومهما اشتد برودة ليل الشتاء.

[illegible] ساعة أن الثامنة وعشر دقائق تمامًا، ويوسف يرقد الآن على فراشه [illegible] ساعة عارمة في البكاء

[illegible] ساعة الآن الثامنة وخمس عشرة دقيقة، والألم يشتد ويشتد ويشتد.

[illegible] ساعة الآن الثامنة والثُلث، وجسده كله الآن ينتفض ألمًا وإرهاقًا [illegible]

[illegible] ساعة الآن الثامنة والنصف إلا خمس دقائق، ويوسف يحاول أن [illegible] فراشه بمشقة كيلا يستسلم للنعاس وحد لنفسه مكانًا في رأسه وسط [illegible]

[illegible] ساعة الآن الثامنة والنصف، ويوسف الآن نائم يعمل على المقعد [illegible] فراشه!

[illegible] بعد صراع مرير دام طويلًا، ويوسف ذلك يدوم إلا لساعة أو أكثر [illegible] سيغادر يوسف جسده، رأسه وستقل إلى حيث ستطرد الشيء

١٧

ما حدث هو أن يوسف وجد نفسه في ذلك المنزل.

لم يكن قد غادر مقعده المجاور للفراش في غرفة القدق. بل بدا له لم يعد هناك.. لا هو ولا الغرفة كلها.

من حوله تبدَّل المكان تمامًا ليفتح يوسف عينه مستيقظًا بغتة. ويجد نفسه في قاعة متسعة يكسوها الظلام والبرودة، فأدرك أنه عاد، على الرغم من مقاومته ليظفر به الشيء وليأخذه من عالمه وزمنه إلى مكان جديد.. لكن...

أين؟

أهذا هو الفصل الثاني من اللعبة؟

كان وحيدًا.. لكنه حين وجد نفسه في تلك الغابة في المرّة الأولى كان وحيدًا أيضًا.. وحيدًا وفي جسد ينزف، لم يكن جسده بل جسد ذلك الرجل في ذلك الـ... مهلًا.. إنه في جسده هذه المرَّة!

نعم.. ها هي ذراعاه النحيلتان.. ساقاه اللتان ترتعشان.. هذه هي يده

ي ... وها هو يرى بعينه اليمنى التي تبقت له بعد أن أخذ منه ... أهذا هو الفصل الثاني من اللعبة أم لا؟

... عليه أن يحصل على إجابات أسئلته بنفسه، فجال ببصره في ... تسلل إليها ضوء شاحب عبر نوافذ عالية مغلقة، ليرى تلك ... العجيبة التي غطت جدران القاعة، والتي لم ترسمها يدٌ بشرية.. ... بشري قادر على رسم لوحات تتحرك!

... كأنها شاشات بلازما تعرض مشاهد تتكرر بلا نهاية، ثم إنه ... في كل لوحة من اللوحات المعلَّقة!

... الأولى كان يجلس مع الدكتور مجدي في غرفة الزيارة في ... حيث تحدثا في الخطة التي برع فيها الدكتور مجدى فلم يوسف من ... ثم بثر دماءه في وجهه، فتراجع يوسف في اللوحة داهلًا مشمئزًا من ... التي أغرقت وجهه وملابسه.. والمشهد أمامه يتكرر بلا توقف.. ... الدكتور مجدي قلمه.. تتناثر الدماء في وجهه.. يتراجع هو بعد ... الأولى

... من حديد.. أين هو؟

في اللوحة الثانية رأى يوسف نفسه في ذلك الكافيه يجلس مع سوسن ... حيث تتلفت حولها باحثة عن شيء ما غير موجود، فتذكرها يوسف ... في أعماقه للحظة عن مصيرها قبل أن يولد السؤال الثاني في رأسه: ... الذي رسم هذه اللوحات؟

... ببصره إلى اللوحة الثالثة، فرأى يوسف نفسه يعدو في تلك الغابة ... وقد استبد به الهلع، وكان صلاح يجري وراءه بفك يتأرجح

وأصابع مفرودة ويدين كسيفين يشقان الهواء شقًّا، لتستحيل دهشته سريعًا إلى الهلع ذاته الذي شعر به حين خاض تلك المطاردة. وليتضح له أن اللوحات تحكي قصته.

كل ما حدث له على مدى الأسابيع الماضية تحكيه هذه اللوحة باختصار كئيب.. لكن.. ماذا عن باقي اللوحات؟

هكذا انتقل إلى اللوحة الرابعة التي رأى فيها نفسه مربوطًا إلى كرسي لا تمت إلى عصره بصلة وهو يعدو من جديد هابطًا درجًا صخريًّا يبدو بلا نهاية، وقد بدا عليه أنه يهرب من شيء ما من دون أن تعوض له اللوحة ماهية هذا الشيء مع الأسف.. هذا المشهد لم يحدث بعد.. لكنه لا يحتاج إلى ذكاء استثنائي ليدرك أنه سيحدث.

اللوحات تحكي له ما حدث وما سيحدث إذن.

في اللوحة الخامسة كان يوسف يقود تلك العربة التي تحوم لأجلها وكان ما تحمله هذه العربة هو قفص استقرت فيه امرأة أمسكت بقضبان هذا القفص وقد لاح جنون مطبق من نظراتها.. لكن الأسوأ من حالها كان السرعة التي اندفع بها يوسف بالعربة كأنه يهرب من جديد من خطر آخر لم تعرضه اللوحة أيضًا.

مَنْ هذه المرأة؟ سيعرف حين ينتقل إلى عصرها.

اللوحة السادسة وباقي اللوحات كانت أبعد من مجال رؤيته، وكان الصلام قد تكفَّل بستر هذا. فهمَّ يوسف بأن يغادر مقعده ليرى ما سيؤول إليه مصيره، لولا أن تصاعد صوت الشيء فجأة من أمامه، يستفز يوسف وقد القدرة على الحركة والتنفس:

...ك الفرصة للقضاء عليَّ منذ البداية.. لكنك تأخرت.

...غم من صدمته أدرك يوسف على الفور ما يقصده.. المرأة ...كان عليه أن يقتلها قبل أن تمنح الشيء جسد زوجها، لكنه ... تركها.. وأن يتركها!

...لام أمامه توهجت عينا الشيء معلنًا عن نفسه وهو يواصل:

...ت لعبة.. وفي المقابل.. سآخذ أنا منك قطعة.

...ف يوسف ووجد نفسه يتخيل رغمًا عنه القطعة الجديدة التي ...ه منه الشيء: عينه اليمنى؟ لسانه؟ قلبه؟

...المرَّة ستفهم أكثر.

...ء فلم يعرف يوسف ما عليه فعله ليستعد.. فقط أدرك أنه ... مواصلة هذه اللعبة، وهو إدراك لا ثمن له أمام يقين لا يتزحزح ... ستستمر حتى نهايته

...ه.. كما أخبره الشيء!

...لام رجفته على اللوحات متجهًا إلى يوسف الذي ...ر حفنيه شاعرًا به يجثم على صدره، قبل أن يشعر فجأة بأنه يَهوِي ...ر تلك الصرخة من فمه ولتذوب في الظلام بمجرد ملامستها له.

...ي اللحظة التالية وجد يوسف أنه قد انتقل إلى الفصل الثاني من اللعبة.

* * *

وهذه المرّة وجد نفسه يرقد على ذلك الفراش . ويد قاسية بـ
بلا توقف وقد أخذ صاحبها يردد:

ـ استيقظ.. استيقظ.. فيجب أن نتحرك الآن وقبل أن يرحل

ففتح يوسف عينيه مصطرًا ليحدق ذهلًا في وجه صاحب اليد، وقد
أخذ عقله يستوعب الحقائق الجديدة بسرعة من مرّ بهذا الموقف من قبل

لقد انتقل مرّة أخرى ـ ترك ذلك المرتفع بلوحاته العجيبة و
تلك الغرفة الصخرية الجدران، والتي تصيبُك مشاعل معلّقة تتلوى
فيها كأنها ترقص مرحة به . هذه هي أول حقيقة استوعبها عقله

الحقيقة الثانية: هذا ليس جسده، فهو لم يكن أبدًا أشقر الشعر
ولا شاحب البشرة، ولم يَرْتَدِ أبدًا تلك الملابس التي لم يرَ مثيلًا بها
في اللوحة الرابعة . إذن فهو القمص الثاني من اللعنة

والحقيقة الأخيرة: هذا ليس زمنه ولا وطنه، واللغة التي يتحدث بها
من أعطاه لا تمت للعربية بصلة، لكنه فهمها لدرجة أنه يقول

ـ استيقظ.. يجب أن نتحرك الآن .. الجميع في انتظارك

لكن استيعاب الحقائق لا يقتل الأسئلة، لهذا واصل يوسف التحديق
في ذلك الضخم، وعقله يلفظ سيلًا لا نهاية له من الأسئلة التي تحتاج
إلى إجابات سريعة.

مَن هو؟ أين هو؟ مَن هذا الضخم؟ ومَن الذين ينتظرونه؟ لماذا
ينتظرونه؟ وبالطبع السؤال الأهم هو: ما الذي عليه فعله هذه المرّة؟

لكنه ليس وقت الحصول على إجابات كما هو واضح من لهفة و
الضخم، الذي قال:

ـ هيا أسرع.. يجب أن نفعلها الليلة.. هيا قبل أن يهرب.

وهنا لمعت بوسف سؤالين جديدين: نفعل ماذا؟ ومَن الذي سيهرب؟

لكن الضخم لم يكن هنا ليمنحه إجابات، بل ليترعه من فراشه،
وبدا له يوسف وقد أدرك أن جسده الضئيل هذا لن يتحمل مقاومته،
بينما الضخم سيفٌ في يده، ولأمره

ـ سمعي

فتبعه يوسف أملًا أن يقوده الضخم إلى حيث سيحصل على أي إجابة
لأيٍّ من أسئلته

* * *

وكانت أولى الإجابات التي حصل عليها يوسف هي أنه في قصر.

الممرات الصخرية التي امتدت متشابكة تصيبُك بالمشاعل أخبرته
أنه في قصر .. صخامة كل صخرة في كل جدار أخبرته بأنه في قصر
وصدى صوت خطواته، إذ أخذ يحثها محاولًا اللحاق بالضخم، أخبره
بأنه في قصر

قصر هائل الضخامة أشبه بمدينة صغيرة تنتمي إلى قصص الأساطير،
لكن يوسف يعرف أنها ليست أسطورة، بل هو قصر حقيقي في زمن
حقيقي، والشيء الوحيد الخارق للمعتاد هو وجوده الآن فيه في هذا
الجسد الذي يلهث بلا توقف.

كان يجاهد ليلحق بذلك الضخم الذي لم ينطق بحرف واحد وهو
يقوده عبر الممرات، لكنه في أعماقه شعر بامتنان حقيقي لوجوده معه..

على الأقل هذه المرّة هناك آخرون يتحدثون وقد يمنحونه إجابات لبعض من أسئلته.. فقط عليه أن يبلغهم وبسرعة.

صحيح أن يوسف قضى أسابيع طويلة يقرأ في كتب التاريخ وبلا توقف لكنه على الرغم من هذا لم يتعرّف أي شيء مما يحيط به.. هذا هو الفرق بين قارئ التاريخ ودارسه.. لو كانت سوسن مكانه لميزت الخطأ في القصر واللغة التي تحدث بها الضخم، ولتأملت الرسوم على درعه وبدقة المكان والزمان الذي انتقلت إليه، لكن يوسف لا يعلم عن هذا وكل ما استطاع التوصل إليه هو أنه في الماضي البعيد، وأنه في مكان في الشمال، فالثلوج تتساقط خارج النوافذ بلا توقف لتمنحه بعض الفكرة للبرودة التي يشعر بها طوال الوقت.

عظيم.. إذن هو في قصر.. في الشتاء كما هو واضح وكل ما يحتاج إليه الآن هو شخص واحد عاقل يخبره بالمزيد، هذا الشخص كان ينتظره الآن في أحد أبراج القصر، يتصاعد البخار من فمه، ويتبدى التوتر والقلق في ملامحه، وقد أخذت الثلوج المتساقطة في التجمع على لحيته البيضاء الطويلة، إذ أخذ يتأمل تلك المدينة الغريبة بعينين لا تطرفان.

كمثال من الرخام الأبيض وقف ذلك الأشيب ينظر ليوسف الذي في البرج أخيرًا مع الضخم، ليلتفت إليه على الفور، وليبادره بصوت رخيم يدرك خطورة الساعات القليلة المقبلة:

- «أنت مسعد؟»

فأجابه يوسف وبلغته ذاتها وبصوت ليس هو صوته:

- «مسعد محمد»

وساد الدهشة في عيني الأشيب والضخم، وتبادلا نظرة سريعة، قبل أن يعيد عينيه الأول إلى يوسف، ليجيب:

- «أنت من سيقتل «فلاد».

وهكذا كانت الدهشة من نصيب يوسف!

* * *

[illegible]... وحين سيعود يوسف إلى زمنه.. سيقرأ الكثير عن «فلاد [illegible]». وسيعرف كل شيء عن عصره الرهيب.

سيعرف متأخرًا ما كان عليه أن يعرفه منذ البداية، لكننا هنا نملك [illegible] وهي أننا قادرون على التوقف لنعرف ولنفهم [illegible] لنواصل قصتنا.. لهذا اسمح لي بأن أعرّفك المكان والزمان [illegible] سنعود إلى يوسف الذي عليه أن يقتل «فلاد الوالاشي» بنفسه [illegible]

[illegible] تعرفه العامة عن الرجل هو أنه كان أمير «والاشيا» (تُنطق «فالاكيا» [illegible] ومصدر الإلهام الذي استوحى منه «برام ستوكر» [illegible] الشهير «دراكولا».. وفي هذا الحد تتوقف معلومات الأغلبية، [illegible] حقيقة هذا الرجل أشد هولًا من كل روايات مصاصي الدماء التي [illegible] اسمح لي بأن أحدثك معي إلى القرن الخامس عشر [illegible] ١٤٣١ تحديدًا، ففي شتاء هذا العام وُلد «فلاد الوالاشي» ووُلدت معه أسطورته.

أبوه هو «فلاد الثاني»، والسبب في لقبة «دراكيولا»، يرجع كما ذكرنا في أعضاء تنظيم التنين «دراكول» الذي أقسم على محاربة العدو الإسلامي الممثل في العثمانيين. وكلمة «ابولا» تعني «ابن له»، أي أن «دراكيولا» تعني «ابن التنين»، و«فلاد الثاني» لم يكن يستحق لقبه تمامًا، رغم أنه من أبعث محاربة جيوش محمد الفاتح، فقرر عقد صفقة معهم تجنبه التعيينات الصارمة بتنظيم الذي منحه لقبه.

والصفقة كانت بسيطة: سيترك له العثمانيون «والاشيا» ليحكمها مقابل دفع الجزية السنوية، وهو ما ارتضاه «فلاد الثاني» بأريحية، مشيرًا عصب الكنيسة، ولكن «فلاد» لم يكن ليخاطر بحرب لن يخرج منها منتصرًا في كل حال من الأحوال.. لهذا عقد صفقته مع محمد الفاتح، ولهذا أرسل ولديه «فلاد الثالث» وأخاه الأصغر «رادو»، ليكونا في خدمته وتعلم فنون العثمانيين أصول القتال والفروسية، وهو الأمر الذي اعتبره «فلاد» شرفًا له، لكنه لم يكن سيخرج على الاعتراض.

سنوات طويلة قضاها «فلاد» مع الأتراك هو و«رادو» الذي رفض الحياة هناك، فاعتنق الإسلام وانضم إلى جيوش محمد الفاتح، الأمر الذي اعتبره «فلاد» خيانة تستحق الإعدام، لكنه احتفظ بمشاعره لنفسه، إلى أن أتى اليوم الذي نفَّذ فيه النبلاء في «والاشيا» مؤامرة ضد أبيه ليقتلوه هو وأخاه الأكبر محاولين القفز على العرش.. مؤامرة كادت أن تنجح لولا أن تصدى لها محمد الفاتح بإرسال «فلاد الثالث» إلى «والاشيا» وبصحبته أمرًا عليها، وكان هذا عام ١٤٤٧، لكنه حكمها لمدة سنوات شهرين، حيث بعدهما المحرر «والاشيا» لتصبح لـ«فلاد» الذي هرب إلى «مولدوفا» ليحتمي مع عمه الذي اغتيل لاحقًا، ليقرر «فلاد» المخاطرة ويسترد عرشه إلى

بحر عرض خدمته ومعتنقًا عن كرهه العميق للعثمانيين ورغبته في
بنده منهم.

ولأنه كان يعرف الكثير عنهم من خلال الفترة التي قضاها أسيرًا معهم، فقد فكر بعمق في الحرب، فنصب «فلاد» أميرًا على «والاشيا»، ليكون وجهه للدفع أمام جيوش العثمانيين التي أحدثت تحررًا تلو الآخر في أوروبا لاسترداد «والاشيا» من يديه.

هكذا، وفي عام ١٤٥٦ استرد «فلاد الثالث» عرش أبيه وحكم «والاشيا» في وقت هو في أسوأ حال ممكنة، ليقرر التصرف بسرعة وليبدأ عصره الذي هو واحد من أسوأ العصور في تاريخ البشرية وأكثرها إظلامًا.

الحقيقة الأولى التي تعلَّمها الجميع هي أن «فلاد» لا يسمى.

فلم يكد الأمير الشاب يتربع على العرش حتى دعا جميع نبلاء «والاشيا» إلى مأدبة كبيرة كانت الأضخم والأشهر في تاريخ المقاطعة، وحضرها هو لترحيب النبلاء إذ أحدثوا يعتون الطعام والشراب بينهم، حتى سمح لهم أن يصوبهم قد امتلأت عن آخرها ببقايا القمص عليهم في ملابسهم وليعدمهم فورًا بوضعهم على الخوازيق!

عشرات الآلاف من النبلاء وأسرهم هناك في هذه الليلة من دون أن يحظوا حتى الفرصة لاستيعاب صدمتهم.. وطريقة الإعدام كانت قاسية بحق قاسية وبطيئة!

تخيل أن تأتي برجل.. تربط أطرافه إلى أربعة أحصنة تجذبها إلى أن تمزق أوصاله وتنحل أربطة جسده.. ثم بعدها يتم دس خازوق خشبي حاد في جسده، يعلق عليه حيًّا يصرخ ويتلوى ولتتكفل الجاذبية الأرضية بالباقي!

سعداء الحظ كانوا يهلكون بعد أيام متصلة من العذاب والتعذيب يمزق أحشاءهم ببطء، أما تعساء الحظ فكان عذابهم يستمر لأسابيع يتمنى أحدهم فيها وهم أحياء، إلى أن يهلكوا في النهاية، تحت حتفهم معلنا شاهدة على انتقام «فلاد» الرهيب.

وكانت هذه هي البداية فحسب.

والحقيقة الأخرى التي تعلّمها الجميع هي أن «فلاد» لا يرحم

من تبقوا أحياء من هذه المجزرة هم وآلاف من أهل «والاشيا» تم اقتيادهم إلى قصر «بوناري»، الذي كان عبارة عن أطلال مهشمة ترقد على تل مرتفع ليأمرهم «فلاد» بإعادة بنائه، وعلى الفور، فلم يجرؤ أحد على الاعتراض

ولأشهُر طويلة عمل الجميع في ظروف غير آدمية في ترميم القصر، ليتساقط الرجال والأطفال والنساء من الجوع والبرد، وليواصل الناجون العمل عرايا، وقد ذابت ملابسهم، وتمزّقت بعد أشهُر من العمل في بناء القصر بالحجارة، وبحث من سقطوا، إلى أن اكتمل البناء أخيرًا، ونقل «فلاد» إلى قصره الجديد، وليبدأ اتخاذ قرارات سريعة حاسمة بشؤون بمملكته وللاستعداد لحربه المقبلة مع العثمانيين.

هناك سرقات في المدينة.. كل من يقبض عليهم بتهمة السرقة يتم تعليقهم على الخازوق. هناك من يُبدون تخوفهم أو اعتراضهم على أوامر «فلاد».. كل من يعترض أو يجرؤ على التفكير في الاعتراض يتم تعليقه على الخازوق. هناك فقراء وشحاذون يجوبون طرقات المدينة، هؤلاء دعاهم «فلاد» إلى مأدبة أكلوا فيها وشبعوا قبل أن يشعل النار فيهم أحياء ليقضي على الفقر في بلاده بطريقة مبتكرة حاسمة!

وهنا يجب أن نعترف بأن الرجل استطاع تحقيق بهضة حقيقية، وفي من قاسى، بجنونه وقسوته.. ومن رحم ظُلمِهِ وُلِد نوع خاص ونادر من يمكنه يكفينا أن نعرف أنه استطاع بناء مدينة كاملة في أشهُر معدودة، تعتبر على الفقر والجريمة، لدرجة أنه كان يضع كؤوسًا ذهبية في ساحة ي مدينة في متناول يد الجميع، من دون أن يجرؤ أحد على سرقتها أو يقترب منها.

في هذه الأشهر حصل «فلاد» على لقبه الأشهر: «فلاد المُخوزِق».

حصل عليه كتكريم له لتفننه في الإعدام بالخازوق، إذ كان يشترط في الضحية على قيد الحياة لأسابيع تتعذّب فيها، وإلّا لقي صانع الخازوق ذات المصير. لهذا كانت الخوازيق تصنع من الخشب المتين في الربيع، لضمان الحصول على أفضل نتائج ممكنة. ولإتقانه هذا سقط آلاف الضحايا وقُطعت آلاف الأشجار على حد سواء، قبل أن ينهي «فلاد» من تجهيزاته، ليستعد لحربه المقبلة مع العثمانيين، الذين سمعوا عن الأهوال التي يرتكبها «فلاد» في «والاشيا» ليقرروا التدخل وقد أدركوا ـ بعد فوات الأوان ـ أنهم سمحوا لمجنون سادي بالوصول إلى العرش

هكذا أرسلوا له وفدًا يطلبه بإبداء الطاعة ودفع الجزية، فاستقبل «فلاد» الوفد العثماني بينما يستمع إليهم بلا اهتمام، وقد طلب منهم أن يرعوا حدودهم في حضوره، فتبادل أعضاء الوفد نظرات الدهشة قبل أن يرفضوا معلنين أنهم لا يسعون إلا لتقليدهم، ولا يسمحون احترامهم إلا لسلطانهم، فأمر «فلاد» بأن تُدق خوذاتهم في رؤوسهم بالمسامير كيلا يتمكنوا من نزعها مرة أخرى، وأعادهم من حيث أتوا حاملين رفضه الانصياع إلى السلطان الذي

اعتبر ما حدث بمنزلة إعلان حرب، ليحشد كتيبة مكونة من عشرة آلاف فارس، ويرسلهم إلى «والاشيا» في مهمة واضحة: قتل «فلاد»!

لكن «فلاد» كان مستعدًّا.. لهذا [illegible] في طريقهم إليه [illegible] هو بهجومه قبل أن يقتربوا من «والاشيا»، ليقتلهم جميعًا ويعلق جثثهم على الخوازيق احتفالًا بانتصاره عليهم.. من بقوا على قيد الحياة بعد هذا المشهد الرهيب لاذوا بالفرار وعادوا إلى محمد الفاتح ليرووا له ما حدث، ليجن جنونه وليرسل هذه المرَّة جيشًا مكونًا من مئتي ألف فارس، وبقيادة «رادو» شخصيًّا.. أخي «فلاد» الأصغر.

وهذه المرَّة أدرك «فلاد» أن الأمر سيخرج عن سيطرته، وأنه لا قبل له بمواجهة هذا الحشد العظيم إلا لو استطاع أن يُضعف من شوكتهم بقطع الإمدادات عنهم.. ولأن أي جيش يحصل عادة على المُؤن من المدن التي يحتلها في طريقه إلى المعركة، استعد «فلاد» لاستقبالهم بأن أحرق كل المدن والقرى المحيطة بـ«والاشيا» بمن فيها!

عشرات الآلاف هلكوا على يد «فلاد» فقط لتصل جيوش العثمانيين ليجدوا المقابر الجماعية والرماد ورائحة الشواء في انتظارهم.. حتى مياه الينابيع سمَّمها «فلاد» قبل أن يغادر، فلم تجد الجيوش المنهكة من طول الرحلة المأوى أو الطعام أو الشراب، وبدأ الإنهاك يتسلل إليهم قبل أن تبدأ المعركة.. والأحمق الوحيد سيتسلل إلى قلوبهم وهم يتأملون جثث الجثث المحترقة والمحورقة، سيدرك المسؤول الذي كان «فلاد» يضعه هو في أهل بلده، فما الذي سيفعله بهم؟

وإجابة هذا السؤال أتتهم سريعًا، في صورة هجمات متتالية خاصة من «فلاد»، استطاع فيها أن يقتل أكثر من أربعين ألفًا من جيش [illegible]

[illegible] بعد مهمته هي تنفيذ أوامر السلطان؛ بل إنقاذ «والاشيا» ذاتها من جنون حبيه

[illegible] واصل «رادو» المعركة وجمع من تبقَّى من جيوشه ليبدأ محاصرة [illegible] احتمى بقصر «بوناري» يبحث عن مخرج من هذا الحصار، [illegible] الأخيرة كأمير لـ«والاشيا» بعد ست سنوات تسبب فيها في [illegible] من مائة ألف ضحية.

[illegible] أن في عام ١٤٦٢.. في قصر «بوناري» الذي بُني بالدم والجثث والحجارة.. وفي واحدة من أسوأ ليالي الشتاء فيه.

[illegible] يقف يوسف الآن من دون أن يعرف ما نعرفه نحن، يحدق ذاهلًا في المحرز والضخم وقد تلقَّى منهما أخطر مهمة ممكنة.

[illegible] «فلاد»

* * *

[illegible] مرَّت لحظات ثقيلة بطيئة على يوسف والضخم والأشيب، وقد [illegible] الثلوج في التساقط عليهم تحاول تغطيتهم.

[illegible] الدهشة بادية على وجوه الجميع، لكن أكثرهم دهشة كان يوسف [illegible] أدرك الآن أنه في «والاشيا»، وأنه ـ بحكم ثقافة الأغلبية ـ مطلوب منه [illegible] «دراكيولا» شخصيًّا، فوقف هناك ينتظر أن يخبره الأشيب بمكان [illegible] قبل أن تصحبه [illegible] الذي ستحدد مهمته المقدسة! لكن [illegible] نفسه من ذهوله ليصيح غاضبًا هذه المرَّة

[illegible] الذي سيصيره؟ «فلاد» سيهرب إليه ليقتله أولًا!

- «فلاد الوالاشي»؟

قالها يوسف لتتبادل الأشيب و لصحم النظرات من حديد ... الضخم مستنتجًا:

- إنها الثلوج.. لقد تجمدت أفكاره.

وهو تفسير ساذج لم يكن ليكفي للإجابة عن السؤال الدائر في عقل يوسف «الآن أهذا ما أرسله الشيء من أجله هذه المرّة؟ ليقتل «فلاد الوالاشي»؟ لكن...

- لماذا؟

نطق بهذا السؤال فاحمر وجه الأشيب غضبًا، وأجاب:

- تريد سببًا لقتل «فلاد»؟ لا بأس.. سأمنحك سببًا.

وأمسك بمعصم يوسف ليجذبه، فاستسلم له يوسف، ليقتاده الأشيب إلى حافة البرج وليشير إلى بقعة مضلمة في ساحة القصر، قائلًا

- أيكفيك هذا السبب؟

فحدق يوسف في الاتجاه الذي أشار إليه الأشيب محاولًا التعرف على الظلام والثلوج المتساقطة، قبل أن يتمكن أخيرًا من تمييز ما يراه ليتقلص قلب الحسد الذي يحمله بين ضلوعه، ولتتسلل صرخة دهشة مستنكرة من بين شفتيه

فأمامه، وعلى مساحة شاسعة من ساحة القصر، كانت الوجوه تحدق به

آلاف الوجوه لآلاف الجثث التي بدت للحظة وكأنها معلّقة في

هواء.. قبل أن يميز يوسف بحور الدم التي احترقت كل جثة من الجثث التي تكدست عليها الثلوج، محمدة ملامح الرعب والألم على وجوه الجميع

جثث رجال.. جثث نساء.. جثث أطفال.. والأسوأ أن بعضهم كان يزال على قيد الحياة يتلوى ألمًا، عاجزًا حتى عن الصراخ، وإن أخذت بعضهم في الارتعاش بصورة لم يعرف يوسف معها إن كانوا يرتعشون بردًا

جثث حفظتها البرودة من التحلل، وجثث تحللت وتجمدت في أسوأ صورة ممكنة، وجثث استحالت إلى هياكل عظمية، حدق فيها يوسف بتحصب قبل أن يفرغ معدته على سور البرج، ليتراجع الأشيب مبتعدًا عنه، ويبتسم حتى يُفرغ يوسف ما في جوفه، ليكرر:

- أيكفيك هذا السبب؟

فما يحب يوسف، وإن أحد حسده في الانتقاص بقوته.. أما الأشيب فمازال يقول بصوت حفيض كأنه يخشى أن يسمع مسامع الموتى

- «فلاد» أو سيتهي بنا الأمر وبهم

فما بقوته يوسف على النفور، وإن لم يشعر بأنه حصل على إجابة سؤاله الأول.. فما قيمة سؤاله أمام هذه المذبحة؟!

وعلى الرغم من البرودة والثلوج اشتم يوسف رائحة أخرى غير رائحة الموت المنتشرة عدة

اشتم رائحة الشيء

إنه هنا في هذا العصر، هنا وسط كل هذه الجثث وكل هذه الموتى هنا لكن

أهو «فلاد»؟

سؤال لن يعرف إجابته إلا

- «فلاد» سيحاول الهرب إليه لكننا لن نسمح له بهذا يجب أن ينتهي الشر أولًا!

قالها الأشيب فالتفت إليه يوسف مصدومًا عاجزًا عن النطق

إذن فهذا ما عليه فعله في هذا الزمن أن يقتل «فلاد» أو الشيء

والسؤال الآن هو:

- كيف؟

- لدينا خطة لكن يجب أن نسرع أأنت مستعدٌ؟

ثم نظر يوسف، ولم ينتظر الأشيب إجابته فقط أشار له برأسه

- هيا بنا

وانطلق فتبعه الضخم ويوسف لا إراديًا ولو كان يوسف يعرف ما سيحدث له هذه الليلة، لما فعل!

* * *

في ممرات القصر تبع يوسف الضخمَ والأشيبَ هذه المرة، وكان قلبه يخفق بأسرع من خطواتهما.

وفي عقله المكدود أخذ يحاول استجماع الصورة في محاولة لاستيعاب

ما حدث فعلًا، لكن يبدو أن الموقف كله وعلى الرغم من كل شيء لا يعدو أن يكون مجرد لعبة من ألعاب الشيء والقواعد لم تتغير بعد

سيكون هو البطل الذي سيحصل على قصته من الحقيقة، سيحصل الشيء على قصته منه، لا بد أن هذا هو الاختبار هذه المرة

لكنه لأول مرة يرى «فلاد» بيقينه، «فلاد» الذي يبدو أن الشيء حتى هذه اللحظة في هذا الزمن هو «فلاد» فكيف استطاع رجل واحد أن يتسبب في كل هذا الموت الذي رآه؟ سوسن والدكتور مجدي كانا محقين.. الشيء كان يوجد في هضبة الوقت في التاريخ، ووراء كل فترة مظلمة فيه.. والشيء هو من أتى به إلى هنا، والطريق الوحيد الآن لكي يوسف وكل من عاشوا في هذا الزمن هو أنه يعرف

يعرف ويستطيع التدخل لكن

هل هو نجح في القضاء للشيء في هذا الزمن؟ هل هو قتله؟

يعني هذا أن قصة الشيء ستتوقف في هذا العصر؟

يعني هذا نهايته ونهاية نعمته الرهيبة؟

تصور أجمل من أن يُصدَّق.. سيتسلل يوسف إلى مخدع «فلاد» ويقتل الشيء.. سيقتله والشيء في جسده.. سيعود إلى زمنه ليجد أن الشيء قد اختفى. وأن الدكتور مجدي لا يزال على قيد الحياة هو وزوجته الدكتورة ليلى وعائلتها.. سيجد أنه استرد بصره وستنتهي مأساته عند هذا الحد.. نعم

هذا تصوُّر أجمل بكثير من أن يتحقق!

ثم إنه لن يتمكن من القضاء على الشيء حتى لو قتل «فلاد»، وشيء لا يموت بموت الجسد الذي يحتله، وإلا لكان الدكتور محدي فعلها حين قتل ابنه الذي هو ليس ابنه.. كل ما سيحدث له هو أنه سيتحرر ويبحث عن جسد جديد.

لا.. لن يموت الشيء، والطريقة الوحيدة للقضاء عليه هي ضمان النهاية كما أخبرته سوسن.. تلك الطقوس التي أمرته بالبحث عنها في كتب التاريخ، وها هو الآن وقد انتقل إلى الماضي ليعيش التاريخ نفسه، فهل يعرف أحدهم هنا طقوس القضاء على الشيء؟

بل هل يعرفون بوجوده أصلًا؟

كلها أسئلة لا وقت لها الآن، وربما لو تمكَّن من قتل «فلاد» يجد بعده الوقت الكافي ليجوب هذا الزمن، وليبحث عن طقوس النهاية و... بكل مهلًا.. ماذا لو كان قتل «فلاد» هو الخيار الذي عليه أخذه؟

ماذا لو كان الخيار الصحيح هو تركه حيًّا؟

إنه سؤال يستحق التفكير، وربما كان سيدفع يوسف للتراجع عن مهمته التي لم يحسمها، لولا أن مرَّ في طريقه على بيت الفتاة، ليتوقف ويحدق فيها ذاهلًا غير مُصدقٍ لما يراه.

فأمامه كانت الفتاة، التي لم يتجاوز عمرها الثانية عشرة بأي حال من الأحوال، معلَّقة بأعلال حديدية في جدار المنزل، وقد بدا جسدها الذي لم تعطِّه سوى أسمالٍ بالية على الرغم من برودة الطقس، كاشفة عن عضلاتها البارزة، وقد بدا عليها أنها على هذه الحال منذ زمن طويل!

زمن كافٍ لتموت أطرافها التي لا تصل إليها الدماء لقسوة الأعلال

الجسدة التي تكبلها، لتبدأ ذراعاها وساقاها في التحلل كاشفة عن عظامها، لكن المسكينة كانت لا تزال على قيد الحياة!

كان تعذيب تظل ممَّا انكشف من جسدها، وفي وجهها غارت عيناها، بدا أحد فمها يتحرك بضعف شديد، هامسةً، فقرَّب يوسف أذنه منها يحاول تفهم

- لقد نسيت الملح.. في الحساء!

ترجع يوسف ذاهلًا ويكمل الأشياء بالشرح قائلًا

- إنها «ميشكا».. لقد كانت خادمة «فلاد».. أحطاب وعاقبها هو بتركها هكذا حتى الموت

ويتراجع يوسف عن الفتاة من حيث أتى ليصيح

- مجرد أنها نَسِيَت الملح في الحساء؟!

- الآخرون دفعوا مصيرًا أسوأ لمجرد أن «فلاد» وجد المال الزائد لتعذيبهم حتى الموت.

يحدق فيه يوسف للحظات عجز فيها عن استيعاب الموقف، قبل أن يسمع الفتاة من ذهوله هامسة:

- أرجوك.. اقتلني!

فيهب الأخير، تنفي به من وعي قبل أن تغيب في غيبوبة أدرك يوسف أنها لن تستيقظ منها قط، فظل مكانه يحدق فيها وقد أخذ ذهوله يتحول إلى غضب جارف لا مكان للمنطق معه.. غضب لم يشعر به حين رأى الفتاة تحتضر

مَن الذي قال إن مصرع شخص واحد مأساة، بينما مصرع ملايين مجرد إحصائية؟ أيًا ما كان لقد كان محقًا.

لحظات طويلة مرَّت على يوسف لم يجرؤ الأشيب ولا صاحبه على الاعتراض فيها، وقد أخذا يطالعان الفتاة بمزيج من الإشفاق والحيرة قبل أن يشير إليهما يوسف هذه المرَّة بغضب لم يشعر بمثيل له من قبل هذه

قهر الأشيب رأسه وعاد يوصل طريقه لشقيقه بصحبة يوسف الذي حسم قراره.

سواء كان الشيء يحل جسده أم لا سيعد هذا ليشكل وقو

«فلاد» يجب أن يموت!

* * *

انتهى بهم المطاف في إحدى غرف القصر وأمام نافذة مفتوحة مسّ أسهم البرد لتتغرس في أجسادهم.

ومن صندوق في ركن الغرفة أخرج الضخم حبلًا غليظًا هو بلا شك به للأشيب:

ـ لنبدأ.

ففهم يوسف ما سيحدث فورًا، لكنه انتفض رغمًا عنه متسائلًا بحذر

ـ أنتما لن تطلبا مني ما أظن أنكما ستطلبانه.

ـ لقد شرحت لك الخطة من قبل.. لكني سأراجعها معك لتتأكد

لأجيره، فلا وقت أمامنا.. غرفة «فلاد» أسفلنا تمامًا.. لكننا لن نستطيع دخولها من بابها مع كل الحرس الذين يقفون أمامها.. لهذا ستدخله من النافذة

ـ ماذا؟!!

ـ لأنك صغرنا حجمًا لسوء حظك.. ستربط هذا الحبل حول وسطك وسأساعدك على الهبوط إلى نافذة غرفة «فلاد».. ستفتحها بحذر وتدخل من دون أن يشعر بك.. بعدها اقترب من فراشه، وحين يقف أمامه مباشرة

ـ أخرج الأشيب خنجرًا ضخمًا من حزامه ودسَّه في يد يوسف الذاهل،

ـ اطعنه في قلبه حتى مقبضه.. هذا هو كل شيء.

لكن يوسف كان يعرف أن هذا ليس كل شيء إطلاقًا.. بل هناك أشياء كثيرة.. أولها أنه لم يتبق لمنتصف الليل، وثانيها هو أن كل سيكفيه لطعن «فلاد» أم لا، وثالثها كان سيتحمل ثقله أصلًا.. هناك أيضًا الطريقة التي سيخرج بها من نافذة غرفة «فلاد» من الخارج وهو معلَّق في الهواء، وهناك السؤال الأخير والذي سيحدث لو شعر به «فلاد»؟

ـ ما الذي سيحدث له ولهما؟ وأين الشيء من هذا كله؟

رأى الأشيب التردد في عين يوسف، فقال:

ـ لا توجد طريقة أخرى.. إنه نائم الآن لكنه سيستيقظ بعد قليل ليبدأ رحلته لجرب لقد حسم حربه مع العثمانيين، وهو يدرك هذا جيدًا

لكنه لن ينتظر حتى يسقط حيًّا في أيديهم.. ليس بعد الذي فعله روحته

- ما الذي فعلته روحته؟

تساءل يوسف، فأشار الأشيب عبر النافذة إلى نهر أحاط بجانب القصر وقد أحدثت أمواجه تدفقًا هادرًا من برودة الطقس، ليجيب

- لقد ألقت بنفسها في النهر.. اختارت الموت بدلًا من الأسر.. فهي كانت تعرف المصير الذي ينتظرها كزوجة لـ«فلاد».. وهو لن يعفو عنها.. «فلاد» لن يختار الموت لنفسه ولو دفع العالم كله ثمن بقائه حيًّا.. لهذا سنمنحه نحن هذا المصير بأيدينا.

فأطل يوسف برأسه من النافذة ليلقي نظرة سريعة على النهر المتجمد، قبل أن يعيد رأسه إلى الداخل وقد غطتها الثلوج ليقول:

- خطتك هذه لن تنجح.. سينتهي بي الأمر في النهر لو كنت محظوظًا

- صدقني.. سيكون هذا أفضل من أن تسقط في يد «فلاد».. ولا

وأشار الأشيب برأسه للضخم، الذي اتجه على الفور إلى يوسف وبدأ عقد الحبل حول وسطه، من دون أن يقاومه يوسف أو يعترض، وهو يراقب قلب الجسد الذي يحتله إلى الخفق بسرعة لا تُتحمَّل.. أما الضخم فانتهى من عقد الحبل وجذبه بقوة ليتأكد من متانته ثم أعلن:

- سَيَقِي بالغرض.

ليعطي الأشيب إشارة البدء ليوسف بعينيه.. وفي عجلة راجع يوسف الخطة بسرعة.. سيُلقي بنفسه عبر النافذة.. سيفتح نافذة غرفة «فلاد»

الداخل.. ثم يغرس الخنجر في قلبه حتى مقبضه.. خطة سادجة لا تفشل.. لكنه سيحرث خطة الذي لم يحدثه شوؤه من قبل

دس يوسف الخنجر في حزامه وجذب نَفَسًا عميقًا، ليقول:

- أنا مستعد

ومن دون أن يتبادل كلمة وداع واحدة مع الأشيب أو الضخم، بدأ يتسلق من حافة النافذة إلى حيث يسطره الموت بأكثر من طريقة

١٨

استقبلته الثلوج ببرودة لا ترحم، واشتدت الرياح فجأة كأنها تعبر عن استنكارها لما هو مُقدم عليه، لكنه قرر تجاهلها وقبض على الحبل بأصابع مرتعشة، ليبدأ رحلة هبوطه.

وعلى حافة النافذة وقف الضخم قابضًا على الحبل، يراقب في إدلائه إلى الأسفل ببطء، وبجواره وقف الأشيب يراقب الموقف بعينين لاح فيهما القلق والخوف مما هو قادم، لكن يوسف تجاهل النظر إلى عينيه موجهًا تركيزه وإرادته إلى الحبل الذي يقبض عليه، مدركًا أنه لو أفلت من بين أصابعه لأي سبب فستكون نهايته في أعماق نهر تكاد مياهه أن تتجمد.

ولسبب ما افتقد يوسف صوت سوء حظه في رأسه، وقد لاحظ أنه لا يصاحبه في رحلاته الزمنية هذه، بل يظل هناك.. في جسده الأصلي في زمنه الذي سيبدأ بعد هذا الزمن بمئات السنين

لكن لا بأس سيعود إليه، وسيجده في انتظاره بعد أن ينهي من مهمته

[illegible] ومَن يدري.. ربما وضع نهاية للشيء في هذا الزمن لو نجح في مهمته الانتحارية هذه.

[illegible] بدأ يوسف الهبوط إلى الأسفل محاولًا تثبيت قدميه على [illegible] جدران القصر الزلقة.

[illegible] رويدًا أخذ وَجْهَا الأشيب والضخم في الابتعاد عن مجال [illegible] حتى لم يعد يرى أمامه سوى الجدار والثلوج المتساقطة، ليفكر [illegible] لحظة في أن يلقي بنظرة سريعة إلى الأسفل بحثًا عن نافذة غرفة [illegible]، لكنه لم يجرؤ على فعلها.

حين تتعلق بحبل من على هذا الارتفاع لن تجرؤ على النظر إلى [illegible]، ولو كنت هناك وقد من الجنوب ترقص وتعبث في انطلاق، [illegible] دوام رغبته هذه وواصل الهبوط ببطء شديد.. فقط ليتمنى أن يتحمّل [illegible] ثقله إلى أن يبلغ هدفه وألا يفلته الضخم فجأة.. وإلا...

[illegible] لخاطر دفعه لأن يزيد من سرعته توعًا ما، وقد انتبه إلى أن الشيء [illegible] جسد هذا النحيل ليضعه خصيصًا في هذا الموقف، فاستبد به [illegible]، وإن لم يفهم بعد ما الذي سيجنيه الشيء من هذا كله.. حتى [illegible] وقتل «فلاد».. فما الذي سيجنيه الشيء؟ وأين هو الآن؟ ولماذا [illegible] نافذة غرفة «فلاد» اللعينة بعد؟!

[illegible] يكاد يسمع أنفاسه، وكل ما يراه أمامه وبصعوبة بالغة هو حذاء [illegible] الضخري، ولو لم تظهر النافذة خلال لحظات فلن يكون أمامه إلا أن [illegible] صاعدًا هذه المرة، ليعود إلى مرسليه وليبعهم بحماقة خطتهم

وفشلها.. حينها لن تكون هناك فرصة لتجربة خطة جديدة، وحينها سـ
رحلة بحثه من البداية عن الشيء و.. و..

وفجأة ولسبب لم يره يوسف أقلت النحل من بين يدي الضخم.
ليبدأ يوسف رحلة السقوط إلى موت محقق ينتصره بشعف!

* * *

وما حدث في الأعلى هو أن الضخم شعر بأن طول النحل لن يكفي.
فأخرج جذعه كله عبر النافذة محاولاً أن يزيد طوله، ولو سنتيمترات قليلة
قد تصنع فرقاً في نجاح الخطة أو فشلها. لكن ما حدث في هذه اللحظة
بيومين كان هو السبب في الكارثة التي حدثت حالاً، وهو موقف سـ
أعتقد أننا نملك الوقت الكافي لتحكيه بسرعة.

الضخم - واسمه «ناندرو» بالمناسبة - هو واحد من رجال «فلاد»
واحد من كبسه من كانت حرسه الشخصي تحديداً، والأشيب هو قـ
هذه الكتيبة، وصاحب قرار وخطة عتبال «فلاد». وقبل يومين من هذه
الليلة كان «ناندرو» يصحب «فلاد» في جولة في «والاشيا»، لم يكن من
ورائها غرض إلا أن يجد «فلاد» من يعدمه من باب الترفيه عن نفس

«فلاد» الذي كانت الحرب قد أرهقته وشغلت باله طويلاً، وحس وجد
أنه عاجز عن التفكير بصفاء ذهن، قرر أن على أحدهم أن يدفع الثمن
لهذا جمع حرسه، ولهذا أخذ يجوب شوارع «والاشيا» بحثاً عن ضحيـ
القادمة، فاختبأ الجميع في منازلهم مؤثرين السلامة، وبدأوا في الصلا
والدعاء بأن يمرّ هذا اليوم عليهم وهم أحياء.

هكذا وجد «فلاد» الشوارع الخاوية في انتظاره، يغضب شيخ

هكذا شعه «ناندرو» متحاشيًا النظر إليه وقد أدرك أنه قد يحظى بلقب
«ضحية القادمة» عند أقل خطأ أو استفزاز، لكن اللقب كان من نصيب
رجل مزارع مسكين، وجد أن عليه العمل في حقله لو كان يريد عشاءً
في هذه الليلة.

و«فلاد» فاتجه إليه، لينتفض المزارع المسكين وليتلو صلاته الأخيرة،
لكن «فلاد» سأله:

- أين زوجتك؟

وهو سؤال غريب، أجاب عنه المزارع على الفور:

- في المنزل يا سيدي.

- ولماذا لم تأتِ لتساعدك في العمل في الحقل؟

ولاحت الدهشة في وجه المزارع، لكنه أجاب

- لأني طلبت منها هذا.. إنها مريضة.

لكن الإجابة لم تَرُقْ لـ«فلاد»، فأعلن:

- بل هي كسولة.. وأنا لن أسمح للكسالى بالحياة في مملكتي.

ولم يفهم المزارع المسكين ما يقصده فورًا، وانحبس قلبه في صدره
لكنه لم يجرؤ على الاعتراض أو الرفض.. فقط أخذ يرتعش وتبدى
الرجاء والتوسل في عينيه من دون أن ينطق بحرف، بينما أشار «فلاد»
لـ«ناندرو» أمرًا

- اذهب وعذّبْ زوجته

فتطلع «ناندرو» على الفور إلى صورة المزارع وقد أوشك أن يسعد بها ليجد خازوقًا ينتظرها.

لكنه لم يكن ليجرؤ على الاعتراض هو الآخر، ولا سيما حين رأى سيد أو مر «فلاد» يهد حثّ لحصى إلى صورة المزارع المسكين، فحصى ليجد روحه المريضة توقد على عرش نار وقد فقدت شعورها بالعالم الخارجي من الحولي

راقب «ناندرو» موقف أمها بحصة متردد، قبل أن يقرر أنه لن يواجهها سيحتل مكانها على الخازوق، فحملها من دون أن تشعر هي به، وأسرع به عائدًا إلى «فلاد». وفي أعماقه عرف «ناندرو» نفسه بحقيقة أنها في سبيلها غيبوبة وقد لا تشعر بما سيحدث لها، وحتى لو شعرت فلن تدوم طويلًا وهي في هذه الحالة.

مبرر قذر كمهمته، لكنه لا يملك الخيار.. ولو صار كل شيء على ما يرام فسينتقم لها بعد يومين حين يساعد في تنفيذ حصة عند «فلاد»، لكن الآن...

عاد «ناندرو» إلى «فلاد» حاملًا لروحه المريضة، فسالت الدموع من عيني المزارع المسكين حين رآها، وهمس باسمها، وقد تحول في لحظة إلى لوحة كلاسيكية للقهر والهوان. وكان «فلاد» قد أمر جرانه بنصب الخازوق فعلًا، وكان في حاجة حقيقية لأن يرتق من يوضع عليه. فأشار إلى «ناندرو» إشارة ذات مغزى، فأرغد «ناندرو» جسد الروحة المريضة سيضعها عليه للإعدام، وتراجع مشيحًا بوجهه محاولًا تجاهل ما سيحدث لها بعد لحظات.

...كان هذا هو حصته الوحيدة

...لا تقدمت هوى «فلاد» على أنفه بمقبض سيفه، ليهشمه ببساطة ...تجنب معها الدماء من أنف «ناندرو» المتدهور، قبل أن يضرب به «فلاد» ...ه وقبلًا بهدوء.

...لا تشع بوجهك واستمتع معي

...وجرح «ناندرو» إلى حصته وجاهه يتعذب على ذهوله وألمه، وليعتد ...ها تتحرك في أحشاء صورة روحه التي بدأت تشعر بما سيحدث لها، ...تحاول التصرخ بصدر أرهقه السعال

...ما موقع «ناندرو» لم تفصل عنها كثيرًا، فهي لم تتحمل الهواء البارد ...لًا. فما بالك بقائم خشبي يخترق جسدها ببطء؟ وحين انتهى الأمر ...«فلاد» يبتسم وقد شعر بنوع من التحسن، وكان المزارع قد انهار على ...ه ركبتيه، وكان «ناندرو» يتحسس أنفه محاولًا إيقاف النزيف.

هذا هو ما حدث يومها، وعلاقة قصتنا هذه بما حدث في الليلة التي ...فيها بوصف رحلة سقوطه هي أنف «ناندرو»!

فحين جرح «ناندرو» تجدعه من تلك القطعة نصب الحمل الذي يفصل عليه ...ست قدر المستطاع، ضرب الهواء البارد أنفه الذي لم يلتئم جرحه بعد، ...شعر «ناندرو» كأنما سدد أحدهم لكمة باردة إلى أنفه.

صحيح أنه تحمّل الألم وحاول تجاهله، لكنه انتشر بسرعة ليغزو وجهه ...ه، وشعر «ناندرو» برأسه كله ينبض ألمًا، فأمسك الحمل بيد واحدة ...لأخرى حاول تغطية أنفه ليقيها التجمد، وكان هذا هو خطأه الثاني.

نعم الجسد الذي يحتله يوسف في هذا الزمن ضئيل، لكنه يضن
من أن يُحمل بيد واحدة.

لهذا أفلت «فلاد» الحبل رغمًا عنه!

ولهذا هوى يوسف بجسده الجديد في الظلام!

* * *

في لحظة وجد يوسف جسده يَهوي فلم يجد حتى الفرصة ليصرخ

فقط تسارع المشهد أمامه، ليرى صخور جدار القصر تمر أمامه سريعة
فائقة، ثم لاح إطار نافذة غرفة «فلاد» أمامه، فدفع يوسف يديه إلى أمامه
ليتشبث في اللحظة الأخيرة بإطار النافذة، ليتوقف جسده عن السقوط،
وليشعر بأصابعه تكاد تتهشم مع توقفه المفاجئ، ومع الزوده الشديدة
التي تكاد يداه تتخلصان منها

لكنه توقف عن السقوط، وهذا هو المهم

ولم يصرخ، وهذا هو الأهم!

هكذا ظلّ مكانه معلقًا لثوانٍ احتاج إليها ليتغلب على هذه المفاجأة،
قبل أن يشعر بيديه تترلقان ببطء، فدفع جسده إلى الأعلى متمسكًا بنجاته
عن الموت، محاولًا دخول غرفة «فلاد» من نافذته المغلقة.

ولم يكن الأمر سهلًا على الإطلاق.

الجاذبية الأرضية كانت تجذبه إلى الأسفل، وأصابعه كانت تنزلق
تدريجيًا، وحين حاول تثبيت قدميه على الجدار ليخفف من ثقله على

... وجد أنه يدفع جسده إلى الأسفل أكثر.. لكنه جذب نَفَسًا عميقًا
... تجد كل قوة الجسد الذي احتله، ودفع به إلى الأعلى بحركة سريعة.

... مستغلة النافذة المفتوحة، فلم يجد يوسف أمامه إلى أن يتعلق بحد
... جسده، وأن يحاول بالأخرى فتح النافذة، مخاطرًا بالسقوط لو كانت
... محكمة الإغلاق، لكنها ـ ولدهشته ـ استجابت له وانفتحت بدفعة واحدة،
... من دون أن تصدر أدنى صوت!

... فتحت فعاد يوسف يقبض على إطار النافذة بيديه الاثنتين، ثم دفع
... جسده إلى الأعلى ثانية ليبدأ التسلق داخلًا الغرفة.

... بطء وحذر فعلها، وفي النهاية وجد نفسه يرقد على أرض الغرفة
... يكاد يصدق أنه نجا.

... لكنه وبمجرد أن فعلها، فتمالك نفسه ووقف ببطء، يجد نفسه أخيرًا
... وقف في الغرفة يتحسس مقبض الخنجر في حزامه، وقد أصبح أمامه
... شيء واحد ليفعله

أن يقتل «فلاد الوالاشي».

* * *

الغرفة كانت أضخم من قدرة يوسف على التخيل، وهو الذي قضى
معظم حياته الأخيرة في غرفة الفندق الضيقة.

وفي وسطها رقد فراش هائل الحجم تحيط به ستائر تحجبه عن باقي
الغرفة، لكن يوسف ميَّز الجسد الراقد عليه وقدَّر أنه لـ«فلاد الوالاشي»،
فسحب الخنجر من حزامه بحذر، ثم اقترب من الفراش ببطء شديد.

ومع كل خطوة أخذ يخطوها تجاه الفراش أخذت ضربات قلبه تتسارع.. وتتسارع.

ومتأخرًا جدًّا أدرك يوسف الفارق بين أن تتخذ قرارًا بقتل أحدهم وبين أن تحاول تنفيذه عمليًّا!

وعلى بعد ثلاث خطوات من الفراش توقف مكانه وقد كاد قلبه يقفز في صدره لفرط سرعته ولانحباس أنفاسه، لكنه تذكر وجوه الجثث التي حدقت فيه، وتذكر الخادمة المعلَّقة على جدار ممر القصر، فتعقب على تردده وليواصل طريقه متقدمًا نحو الفراش.

سيقتل «فلاد» لأنه يستحق الموت

سيقتله لأنه يحب أن يدفع الثمن

سيقتله لأنه الشيء الوحيد الذي سيبقيه على قيد الحياة

سيقتله ليعبر التاريخ بقتله

سيقتله.. وبعدها فليكن ما يكون

هكذا بلغ يوسف الفراش أخيرًا

رفع يده اليمنى متأهبًا

أزاح الستائر المحيطة بالفراش بحركة سريعة.

ثم شهق بذهول جارف حين رأى المفاجأة التي كانت في انتظاره!

لم يكن يوسف قد رأى «فلاد» أو الأشباح من قبل، لكنه لم يحتج لأن يتعرف أن من يرقد على الفراش أمامه هو شخص آخر

أمامه يرقد على الفراش عجوز ضامر الجسد، وقد أحد يحدق فيه بعينين مفتوحتين على اتساعهما.. ولأول وهلة ظن يوسف أنه مجرد تمثال شمعي وضعه فلاد على فراشه ليوهم مَن يحاول أحدهم اغتياله

حتى في هذا العمر كان الحكام يخشون الموت على أيدي رعيتهم، ويحاولون بكل الطرق فرض سيطرتهم على قيد الحياة وعلى مقاعد السلطة.

هذه المرة كانت الخيبة بسيطة، لكنها فعالة حقًّا.. حتى لو تسلل أحدهم إلى غرفة «فلاد» فلن يجده، وسيجد نفسه أمام الاحتمالين ليقدم أحدهما بوصف نفسه أمامهما.. إما أن يخاطر بترك العجوز على قيد الحياة ويحاول الهرب.. وإما أن يقتله!

«في كل مرَّة سيكون أمامك الخيار».

لهذا الشيء، لم يكن يعرف، ولم يكن يوسف يظن أن الخيار سيكون صعبًا بهذه القسوة كل مرَّة.

ها هو الآن يقف يحدق ذاهلًا في العجوز الذي يحدق فيه بحزن، وفي اللحظات التالية عليه أن يتخذ قراره.

إما أن يكون الموت من نصيب العجوز.. وإما أن يكون من نصيبه هو.

إنها لعبة الشيء، وعليه أن يلعبها حتى النهاية.

المرّة الأولى التي وجد يوسف نفسه فيها أمام هذا الخيار كانت في الغابة في الزمن الأول.. كان عليه أن يقتل المرأة التي قدمت صديقه استدعاء الشيء لأول مرّة، لكنه تراجع وتركها فاستحضرت هي الشيء، وبدأت معها المأساة التي دفع ثمنها الآلاف من الضحايا على مرّ العصور انتهاءً به هو شخصيًا.

والآن أمامه الخيار ذاته.. كل ما عليه هو أن يقتل ذلك العجوز الذي يكاد يبلل الفراش لفرط خوفه، متناسيًا حقيقة أنه لا ذنب له في كل ما يحدث، وأنه كان يقتل أو مر «فلاد» مضطرًا!

كل ما عليه هو أن يهوي بالخنجر على جسده الصغير المرتعش وهو يتسلل من النافذة مرّة أخرى ليحاول الهرب من دون أن يشعر به أحد.

فهل سيفعلها؟

هل سيقتله؟

وبصوت مرتجف مرتعش قال العجوز:

- لن.. لن أصدر أدنى صوت.. صدقني.. فقط لا تقتلني أرجوك.. لا تقتلني!

قالها فشعر يوسف بغضب عجيب لا حدود له.

غضب من أن «فلاد» اختار ذلك العجوز بدلًا من أن يختار حارسًا صحيحًا يقنص على من يحاول اغتياله.

غضب من أن المنطق يقول إن الخيار الآمن الآن هو أن يقتل هذا العجوز، غضب من أنه اضطر إلى المجيء لهذا الزمن، لهذا الموقف، ليجد نفسه أمام هذين الخيارين.

غضب جارف تملكه تجاه العالم بأسره بكل مَن فيه، وكل ما فيه، وكل ما عليه، قبل أن يسيطر عليه في النهاية ليهمس:

- سامحني!

ثم أغمض عينيه وهوى بكل قوته على جسد العجوز بالخنجر.

* * *

وفي اللحظة الأخيرة، وقبل أن يغرز الخنجر جسد العجوز، تساءل يوسف عن سر اختيار «فلاد» له بالذات ليكون مكانه.

وفي اللحظة التالية.. وحين انغرس الخنجر في جسده، عرف يوسف الإجابة حين تصاعدت صرخة العجوز هائلة مدوية ترج جدران القصر، معلنة فشل خطة اغتيال «فلاد» تمامًا.

ونهاية يوسف!

* * *

وما حدث بعدها كان أشبه بكابوس مرير تعجز معه عن تمييز الواقع من الخيال

لعجوز أصغى صرخته قبل أن يُسلم روحه إلى بارئها في مكانه من المفاجأة.. أصوات أقدام تعالت قبل أن يقتحم حرس القصر الغرفة ليحيطوا به شاهرين سيوفهم.. ثم حدثت أشياء كثيرة لم ينتبه يوسف بأغلبها، ولم يعد له انتباهه إلا حين وجد نفسه يقف في مواجهة الضخم والأشيب أمام «فلاد الوالاشي» في إحدى غرف القصر. يوسف أخيرًا، كيف استطاع رجل كهذا ارتكاب كل الأهوال التي سمع عنها والتي قرأ عنها لاحقًا؟!

لم يكن «فلاد» ضخم الجثة ولا مخيف الملامح.. مجرد رجل عادي ذي شارب ضخم يشطر وجهه نصفين، أسفله فم دقيق. وعيناه خاملتان تحملان ثقة رجل يدرك جيدًا أنه أيًا ما كان ما يريده فسيناله على الفور.

رجل اعتاد رؤية الموت وتوزيعه.. اعتاد رائحة الجثث والدماء والقتل حتى أصبح هواية يمارسها باستمتاع لا حَدَّ له.

رجل تأمل يوسف والضخم والأشيب بهدوء بالغ، قبل أن يسأل حارسه:

- مَن منهم الذي تسلل إلى غرفتي؟

فأشار أحدهم صوب يوسف الذي لم يعبأ بعد على شعوره بأن كل ما يحدث الآن هو جزء من كابوس سيفيق منه بعد قليل، بأمر الحارس حرسه مشيرًا إلى الضخم والأشيب:

- ضعوهما على الخوازيق.. واختاروا لهما خازوقين بليقان يمكنهما

قالها ببساطة فشحب وجه الأشيب واستسلم لحرس «فلاد» وهو تضاعف عمره فجأة، بينما قاوم «ناندرو» وصرخ وتوسل وبكى. لكنه

...ه مصروا عليه وحملوه حملًا خارجين به من الغرفة، تاركين ...ب بدي وقف ينتظر مصيرًا أسوأ من الإعدام على الخازوق، لكن ...ار إليه قائلًا:

... فتعالَ معي.. إنه يريد رؤيتك.

... يحتج يوسف لأن يسأله عن هوية من يتحدث عنه.

... «فلاد» لا تتوهجان، وهذا يعني أن الشيء لا يحتل جسده..

... في هذا الوقت من الصباح يكون فيه أغلب من في القصر نيامًا

... يوسف مستسلمًا لحرس القصر، يتبعهم

...؟ هذا

* * *

... يوسف يخرج من غرفة "فلاد الوالاشي"

...

لكن الممرات هذه المرَّة كانت تختلف... لم تكن مضاءة بالمشاعل كما ممرات القصر، بل كان الضوء هو الضوء المنبعث من جسد «فلاد» الذي تقدمهم فوقف يوسف مرغمًا ليحافظ على مسافة بينه وبينه. وكانت هذه الممرات أشد برودة من الطقس خارج القصر، ليوقن يوسف أنه في طريقه للقاء الشيء هذه المرَّة.

تَطَلَّ رحلتهما في الممرات طويلًا، ولم يستغل «فلاد» الوقت في أي حديث جانبية أو محاولات للتعرُّف إلى يوسف، أو حتى السبب الذي

طلب الشيء من أجله لقاءه.. لقد كان ينفذ أوامر الشيء لا أكثر.. ومن الواضح أنه اعتاد هذا، فتساءل يوسف للحظة إن كان الشيء هو من أمر بقتل كل من قتلهم أم أنه فعله بإرادته، قبل أن يجد أن سؤاله هذا لا معنى له.

حتى لو كان الشيء أمر «فلاد».. فإن «فلاد» اختار أن يوافق على تنفيذ طلباته، وفي كل الأحوال هو المسؤول عمَّا اقترفته يداه.

ثم إن هناك أشياء أهم ليشغل باله بها.. أشياء كمصيره هو، والذي سيتحدد بعد قليل على يد الشيء ذاته.

انتهى بهما المطاف أمام باب معدني محكم الإغلاق، فتحه «فلاد» لتهب رياح باردة أطفأت المشعل الذي يحمله، ليطبق الظلام عليهما فجأة، وليتعالى صوت «فلاد» فيه:

- ادخل.

فتقدم يوسف داخلًا الغرفة ليسمع صوت الباب المعدني يُغلق من ورائه، ثم صوت «فلاد» يقول بلهجة أقرب إلى الطاعة والخوف

- لقد أحضرته لك.

قالها لتشتعل فجأة عدة مشاعل متناثرة في جدران الغرفة، فأغمض يوسف عينيه غريزيًا مع الضوء المفاجئ، قبل أن يفتحهما ببطء، ليبدأ لقاؤه الجديد مع الشيء.

* * *

كان الشيء يرقد أمامه في نقاب جسد بشري

كان هناك رأس يرقد على جذع، لكنه فقَدَ ذراعه اليسرى وساقيه من

ركبة وأجزاء لا بأس بها من لحم جسده، وشعرا الرأس واللحية تصلا حتى غطيا الجسد كله، لكن.. ومن بين الخصلات أطل الشيء بما تبقى من وجه الجسد الذي احتله، ليلقي نظرة على يوسف.. وليبتسم.

مع هذه اللفتة تحمس «فلاد» لصاحبه أقرب إلى العبادة، منتظرًا يوسف بشغف لمعرفة الذي سيكتب عنه المؤرخون صفحات الصفحات، لكن الشيء تجاهله وواصل تحديقه في يوسف بعينين متوهجتين، ليستعيد يوسف هلعه الذي لا يشعر به إلا في وجوده.. وحين نطق الشيء خرج صوته منحشرجًا وإن احتفظ بنبرة العبث:

- *أحسدكم تبلى سريعًا.. كيف تُطيقون العيش فيها؟*

لم يحب يوسف بالطبع.. ولم يكن ليملك إجابة لو حاول.. فقط حدق بسريح من الرعب والامتعاض في البقايا التي رقدت أمامه على أرضية الغرفة، والتي انتصب «فلاد» واقفًا أمامها، ليقول:

- سيدي.. أنا.. أ...

- اخرج

لم يتردد الشيء فلم يتردد لحظة واحدة.. بل إن يوسف لمح الرعب في عينيه وأسرع خارجًا من الغرفة ليتركه يواصل لقاءه الرهيب بمفرده.. ولم تلحظ ثقيلة من الصمت البارد، قبل أن يقول الشيء:

- *تريد جزءًا من الحقيقة.. وها قد حصلت عليه.*

وفي هدوء محفز، وعلى الرغم من هلع يوسف بدأ جزء جديد من صورة يتضح في عينه

المرأة في الغابة في الزمن الأول منحت الشيء جسده لأول من غادره.. غادره وتنقل في الأجساد والأزمنة حتى انتهى به الأمر في هذا الجسد البالي الراقد أمامه.. لهذا لجأ الشيء إلى «فلاد» ليقتله هنا، وليتسبب في مصرع مئات الآلاف من الضحايا.. ولكن..

ـ لماذا؟

كان هذا هو أول ما نطق به يوسف، فأجاب الشيء بنبرته نفسها:

ـ *لأن كل يوم آخذه من أعماركم.. يضاف إلى عمري.*

لهذا إذن قتل الشيء كل من قتلهم على مرّ كل هذه السنوات!

ها هي الصورة تتضح أكثر وأكثر.. والآن أصبح يوسف يعرف لماذا يقتل.. إذن فالسؤال الثاني هو:

ـ من أنت؟!

ـ *في هذا الزمن لن تحصل إلا على جزء واحد من الحقيقة.. وعندما سآخذ أنا قطعة منك.. هذه هي قواعد اللعبة.*

فسرت قشعريرة باردة في جسد يوسف، وقد تذكر هذه القاعدة بعينها ليتساءل عن الجزء الجديد الذي سيأخذه منه الشيء هذه المرة، لكن الشيء لم يمنحه الفرصة للتساؤل، إذ واصل:

ـ والآن يأتي الاختبار.

قفزت الأسئلة في عقل يوسف، وحلت الدهشة محلها!

الاختبار؟!

لم يكن قتل العجوز في غرفة «فلاد» هو اختياره؟

ولم يكن هو اختياره في هذا الزمن، فما هو؟

أخذ الشيء وكأنما أصغى إلى سؤاله:

ـ *في ركن الغرفة ستجد قوسًا وسهمًا واحدًا.. وفي الجدار ستجد فتحة كافية لتطلق منها سهمك إلى سماء المدينة.. إنها الإشارة التي ينتظرها الجيش الذي يحاصر المدينة ليقتحمها وليفتك بكل من فيها.. لو فعلتها فستقضي على «فلاد»، وعلى جسدي هذا، لكنك ستتسبب أيضًا في قتل الآلاف هنا.. ولو لم تفعلها فستدفع الثمن أنت.. ها هو خيارك.. فما الذي ستفعله؟*

فقد يوسف قدرته على التفكير تمامًا.

وضع نفسك مكانه وحاول أن تختار.

أمامك الفرصة لتقضي على الشيء ـ على جسده على الأقل ـ لتوقف المجزرة التي يرتكبها عبر «فلاد الوالاشي» ـ والذي سيدفع أخيرًا ثمن جرائمه ـ لكنك ستتسبب في الوقت ذاته في مصرع آلاف لا ذنب لهم.. أو عليك أن تدفع الثمن في هذا العصر لتهلك أنت، وأغلب الظن أن موتك ستكون الموت البطيء على أحد خوازيق «فلاد».. فما الذي ستختاره؟

حتى قتل يوسف العجوز في غرفة «فلاد» كان يشعر بعصب عارم يسيطر عليه ويحدد قراراته، لكنه الآن لا يشعر إلا بالعجز

العجز التام عن التفكير وعن اتخاذ القرار.

- *اتخذ قرارك وبسرعة.. فلا وقت أمامك.*

يقولها الشيء فيبدأ عقل يوسف العمل ببطء، ليلخص له الموقف بصورة واضحة: يمكنه الآن أن يقتل الآلاف لينجو هو.. أو أن يهدئ من في هذا الزمن ليبقى الشيء وليواصل لعبته معه.

خيار مرير وقاسٍ، لكن يوسف توقف أمام سؤال واحد منحه له ضمير لسوء حظه: لو اختار النجاة لنفسه وقتل الآلاف.. فما الفارق بينه وبين «فلاد»؟

لقد رأى بنفسه الجثث.. رأى الخادمة.. رأى الموت بنفسه.. فهل سيبادله الابتسامة؟

هل يفعلها؟

إن القرار الصحيح ينمو في أعماقه، لكنه لا يجرؤ على النطق به. فهو لم يعلنه.. لكن الشيء عرفه، فقال:

- *إنه اختيارك إذن.*

فأغمض يوسف عينيه منتظرًا مصيره، وفي هذه اللحظة فتح «فلاد» باب الغرفة ليدخلها، حاملًا جسد امرأة هلكت غرقًا في اللبنة لمنحة جسد زوجته!

عند باب الغرفة وقف «فلاد» حاملًا الجسد حتى أشار إليه الشيء بأن يتقدم، فاتجه إليه «فلاد» وألقى الجسد أمامه، ففتح يوسف عينيه وسط فيهما الحيرة حين رأى الجسد الواهن الذي فارقته الحياة، والذي أشار إليه «فلاد» ليقول:

- أخبرني بأنك ستعيدها إلى الحياة.

وأجابه الشيء:

- *ولن تموت بعدها أبدًا.. أنت تعرف الطقوس.*

وتلخص يوسف على ذكر كلمة «الطقوس» وشحذ انتباهه كله ليتابع تعليمات المقبلة، وليحدق في «فلاد» الذي قال:

- سأفعلها كما شرحتها لي تمامًا.

وبالفعل ثم انحنى على ركبتيه ليبدأ تلاوة طقوس، سمعها يوسف من قبل، سمعها في الزمن الأول إذ ردّدتها المرأة التي كانت تظن أنها ستعيد زوجها إلى الحياة.

سمعها ليفهم كل شيء في لحظة وليصيح بلوعة:

- توقف أيها الأحمق.. إنك تمنحه جسدها.

لكن «فلاد» لم يتوقف. فقط واصل ترديد الطقوس بخشوع أقرب إلى الصلاة، حتى اقترب من نهايتها، ليفعل آخر شيء توقعه يوسف على الإطلاق

فمع نهاية الطقوس استلّ «فلاد» خنجرًا من حزامه فجأة ليصيح

- هذا ما أقدم لك هذا الجسد.. جسدي.

ومن دون ذرة تردد أولج الخنجر حتى مقبضه في قلبه هو!

* * *

فيما بعد.. وحين فكَّر يوسف فيما حدث توصل إلى الاستنتاج [illegible]

«فلاد» عقد صفقة مع الشيء بأن يعيد زوجته إلى عالم الأحياء [illegible]

وعده بأنها ستحيا إلى الأبد، وهي النقطة التي أغرت «فلاد» [illegible]

بأن يمنحه جسده هو بدلًا [illegible] في الحياة الأبدية، [illegible]

يعرف أن كل ما سيحدث هو أنه سيهلك وأن الشيء سيحتل جسده.

هذا الاستنتاج منطقي ويصلح لتفسير الموقف كاملًا. لكن يوسف لم يتوصل له حينها وقد استبد به الفزع، أمام ما حدث في تلك [illegible] «فلاد» والشيء.

ففي اللحظة التي أولج فيها «فلاد» الخنجر في قلبه صرخ هو [illegible] في اللحظة ذاتها لتمتزج صرختاهما في صرخة واحدة [illegible] كأنها تخرج من حناجر ألف رجل مجتمعة، قبل أن يهمد جسد [illegible] فجأة، بينما انتصب «فلاد» ـ الذي لم يعد «فلاد»! ـ واقفًا في [illegible] توهجت عيناه بقوة.

وكان كل ما عرفه يوسف ليلتها هو أن الشيء احتل جسد «فلاد».

وكان كل ما قاله الشيء [illegible] الصوت [illegible]

ـ والآن.. اهرب.

* * *

وللمرَّة الأخيرة في هذه الليلة جاب يوسف ممرات القصر، لكنه [illegible] يعدو بأقصى سرعته

كان يهرب.

[illegible] الذي اجتاحه وبكل طاقة الرغبة في البقاء حيًّا، حاول الهرب.

[illegible] من حوله تسارعت الموجودات حتى فقد القدرة على التمييز بينها..

[illegible].. مشاعل.. أدراج.. بوابة القصر.. حرس يطاردونه.. ضحكات [illegible] وصوت «فلاد» تتردد من حوله ومن كل اتجاه.

[illegible] وفي النهاية وجد يوسف نفسه يهبط درجًا طويلًا بطول التلة التي [illegible] عليها قصر «بوناري» الرهيب.. درجًا بدا كأنما يمتد بلا نهاية، يمكنك [illegible] في أي صورة للقصر، ورآه يوسف من قبل في اللوحة في ذلك [illegible] الذي أخذه الشيء فيه قبل أن يأتي به إلى هذا الزمن.

[illegible] لوحات كانت تعرض له ما سيحدث حقًّا ولم تكن تكذب.

[illegible] هو الآن يعدو وقد فقد حتى القدرة على التوقف.

[illegible].. عضلات الجسد الذي يحتله تصرخ ألمًا.. صدره يجاهد [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] صوت صفير حادّ [illegible] السهم الذي [illegible] في [illegible]، ليندفع جسده إلى الأمام ويواصل [illegible] [illegible]، وتفجرت معها دماؤه، لتكسو الثلوج باللون الأحمر القاني

وأمام يوسف اختلط المشهد ما بين درج ودماء وعظام وصمت تشدد
منها الثلوج

ثم أظلمت الدنيا فجأة

وانتهى كل شيء

وحين عاد يوسف إلى زمنه هذه المرّة وجد نفسه على أرضية غرفته
في بندق يسعل بقوة تناثرت معها الدماء من فمه.

خد يسعل

ويسعل

ويسعل

وفي النهاية يرقد على أرضية الغرفة ميتًا عاجزًا عن التنفس أو
التصديق

هكذا انتهى الفصل الثاني من اللعبة إذن.

وحين سيقرأ يوسف لاحقًا عن رمس «فلاد» سيعرف أن جيش «رادو»
الذي كان يحاصر المدينة فتحها، وأن «فلاد» هرب متجهًا إلى ملك
المجر الذي أمر بسجنه فور وصوله، ليقضي «فلاد» هناك سنوات طويلة
قبل أن تزوج أخت الملك ـ بمعجزة ما ـ قبل أن يختلف المؤرخون
حول نهايته

بعضهم قال إنه قُتل على أيدي العثمانيين، وإنهم قطعوا رأسه وعلقوه
إلى محمد الثاني ليضعه على خازوق نصبه على مدخل قصره. وبعض
يقول إن «فلاد» اختفى تمامًا وبلا أدنى أثر.. وحتى قبره، الذي زعم بعض
أنه دُفن فيه، نُبش لاحقًا فلم يجد فيه أحد جثمانه، ولا أثر على أنه بُني
فيه على الإطلاق!

المهم أن عصره المظلم انتهى، وأن مصير «فلاد» ظل حتى يومنا هذا
مجالًا للتأويل والاقتراح من دون إجابة واحدة شافية.

والمهم أن يوسف سيعرف هذا لاحقًا، لكن ما سيعرفه الليلة حين
سيذهب إلى ذلك المستشفى القريب من الصدق هو القطعة الناقصة التي
حصل عليها الشيء من جسده

فبعد فحوصات سريعة وبعض «الأشعات» دخل عليه الطبيب بعد
ليعلن بدهشة عن تعذر عن تفسير ما يقوله

- إنها رئتك اليمنى.. لقد ماتت!

وفي فيلّا الدكتورة ليلى كانت مقبرة جماعية في انتظار المُقدَّم عصام

وفي اللحظة التي حصت فيه قدماه الفيلّا أدرك أن للأمر علاقة بحثة
ذلك المهندس الشاب التي طاردته في أحلامه طوال الليالي الماضية، بعد
ذلك الرائحة التي أفعمت المكان، والتي شمّها من قبل في
شقة ذلك المهندس الذي كان يُدعى سامح سمير، قبل أن يتحول اسمه
في ملفه المفتوح في النيابة.

الموت رائحة مميزة، وهي حقيقة يعرفها البعض، لكن بالنسبة إلى
عصام فلكل موت رائحته الخاصة، وهو قادر على التمييز بين هذه الروائح
بعد سنوات لا بأس بها من الخبرة.. هناك رائحة الموت المفعم بالكراهية..
هناك رائحة الموت الذي يحمل لفح الغضب.. هناك رائحة الموت
الخاطف غير المقصود.. هناك رائحة القتل مع سبق الإصرار والترصد..
وهناك تلك الرائحة التي اشتمها أول مرَّة في منزل الدكتور مجدي، لكنه
في حينه رفض الربط بين ما حدث لمجدي وابنه وللمهندس الشاب
وبين ما حدث هنا في فيلّا الدكتورة ليلى.

نعم.. إنها الرائحة ذاتها المفعمة بالقسوة والبرودة، لكنه كان قد اتخذ قراره بأن قضية الدكتور مجدي انتهت باعترافه ـ الذي لم يقتنع به قطّ ـ واحتفظ بهذه الحقيقة لنفسه ـ ولم يعد باقيًا منها إلا زيارته الأخيرة لمعمله مع يوسف الذي بدأ يتحول إلى علامة استفهام في رأسه، عليه أن يبحث عنها لاحقًا.

لهذا قرر إخراج الدكتور مجدي وابنه من المعادلة، والتفرغ لربط ما حدث في شقة المهندس سامح وبين ما حدث هنا، وهو أمر ليس بسيط، فهو لم يبدأ فحص الفيلّا بعد، ولم يجد أي تفسير لما حدث للمهندس الشاب أبدًا.

صحيح أنه عثر على بصمات سوسن في شقة سامح ـ والمشكلة هي أن سوسن كانت تلميذة الدكتور مجدي ـ لكنه لم يتمكن قطّ من التوصل إليها، ولا إلى الطريقة التي قتلت بها ضحيتها.. لا هو ولا خبراء المعمل الجنائي ولا حتى الطب الشرعي استطاع أن يمنحه تفسيرًا لموت رجل بالغ بهذه الطريقة العجيبة.

لا توجد أصلًا طريقة معروفة تستطيع أن تحرق بها رجلًا من الداخل إلى الخارج، وحتى إن وجدت.. فلماذا فعلتها سوسن؟

لماذا قتلتْ سامح؟

سؤال لن يحصل على إجابته إلا منها، لكنها اختفت، وهو يبحث عنها طويلًا من دون جدوى، والآن هو مضطر لأن يساعد مؤقتًا، وأن يعرج تمامًا للتركيز فيما حدث هنا.

ما يعرفه حتى الآن هو أن جريمة قتل حدثت في الفيلّا، وأن أحدهم

يتسلل من داخل الفيلّا ليسبح عبر المياه متصلة على وجه الدقة، لكنها لم تفصح عن هويته، وهو يضعها في قائمة المشتبه فيهم، مما يستدعي القبض عليها واستجوابها، فقط لو عرف مَن هي.

أهي سوسن؟

علامة استفهام أخرى تستحق إجابة، لكن ليس الآن.. الآن عليه التظاهر بالأهمية والثقة أمام رجال المعمل الجنائي، ليحافظ على هيبته، وعليه أن يبدأ عمله الذي يتلخص في توزيع الأوامر والنظر بتأفف إلى كل شيء يحيط به، لهذا أشار بتأفف إلى مضخة سحب على إحدى الطاولات آمرًا أحد رجال المعمل الجنائي:

ـ ابحث عن آثار تبغ وحدد نوعيته.

وأسرع الرجل ينفذ ما طلبه على الفور من دون أن يجرؤ على ذكر أن مضخة السحب خاوية. بهت مرتّة أن تمسح نفسك الهيبة اللازمة.. الكل سيعد أوامرك من دون نقاش أو اعتراض.

بهدوء ترك الرجل يضع مضخة السحب في حقيبة بلاستيكية عازلة تمهيدًا لفحصها ورفع البصمات عنها، ووقف يتأمل الفيلّا بعينين حيرتين، محاولًا استشفاف الموقف، قبل أن يهبط إلى القبو حيث ترقد الجثث كما أخبروه جثث لا جثة واحدة، لكنه لا يعرف ما ينتظره بعد، ولهذا وقف يتأمل أثاث الفيلّا بهدوء، ليشعر بما شعر به يوسف ذاته حين دخلها أول مرّة

الوحدة.

هذه الفيلّا تعاني الوحدة

نعم هناك صور عديدة لصاحبتها الدكتورة ليلى مع زوجها وهما يبتسمون فيها بمرح لم يعرف طريقه إلى هنا منذ زمن طويل. لكن هذه التي تغطي كل شيء تعلن وبصراحة أن الفيلّا كانت خاوية بوفاة ليلى لتتجمع فيه هذه الأتربة وتغطي فيه كل شيء بدرجة متساوية متنه كل شيء موضوع في مكانه لم يتحرك على نحو يستحيل حدوثه في م يعيش فيه طفلان في عُمر الطفلين اللذين يراهما في الصور الفيلّا كانت خاوية منذ زمن.. خاوية أو أن أحدهم كان يعيش فيه وحيد من دون أن يُعنى بتنظيف المكان أو تحريك أي شيء فيه من مكا

على مرمى البصر لم تكن هناك دماء أو آثار اقتحام أو عنف يعني أن القاتل كان يعرف طريقه جيدًا وأنه دخل إلى الفيلّا بصو مشروعة.. ربما كان يعرف سكان الفيلّا أيضًا، لكن.. لو كانت سوسن هي القاتلة فما علاقتها بالدكتورة ليلى؟ ولماذا قتلتها؟

لا.. لقد قرر أنه سيتجاهل سوسن مؤقتًا، لذا لن يسمح لها بالتسلل إلى أفكاره مجددًا.. على الأقل إلى أن يثبت له أن هناك علاقة بينها وبين ما حدث هنا، وما عليه الآن إلا أن يتقدم هابطًا القبو ليرى بنفسه ما حدث، متجاهلًا نظرات رجال المعمل الجنائي المتوترة ومحاولاتهم توجيه تحاشي النظر إلى مدخل القبو.. لقد سبقوه ورأوا الجثث، ويبدو ما ينتظره يستحق الاجتناب حقًا، لكنه عمله ليس اختياره.. نهض حافظ على تماسكه وبأقصى وبدأ هبوط سلم القبو

أسفله تصاعد الأنس الخشبي فتجاهله مواصلًا طريقه إلى قائد المعمل الجنائي الذي وقف عند نهاية الدرج ليستقبله، وقد حمل وجهه تعبير داته الدهشة الممزوج بالقرف الذي حمله في شعلة المهندس الشاب سامح. فمرت

بسعريره في جسد عصام قبل أن يرى الجثث حتى وقد أدرك أن لحظات في انتظاره.. لكنه حاول الحفاظ على قناع التماسك على وجهه ع سؤال من حلقه ليلقيه في وجه قائد المعمل:

ما الذي حدث هنا؟

ع الجثث التعانه كلها

وجه من أسئل الكلمة التي يرتديها، ولم يجتح عصام لأن يسأله عن سبب هذه المرّة، فالرائحة كانت أوضح من اللازم.

رائحة موت مرّ عليه زمن طويل.

لكل موت رائحته المميزة، وهذه المرّة شتم عصام القسوة والبرودة ه تنحني، لكنه جاهد ليحتملها، ويواصل

كيف؟

وأجابه قائد المعمل الجنائي بنظرة طويلة صامته كانت أسوأ من أي ممكن، قبل أن يمسح بطرفه أمام عصام الذي هبط آخر درجتين في سمه القبو، ليتجه إلى مكان قائد المعمل الجنائي يحميه بجسده عن محال إليه، ليحدق ذاهلًا فيما كان ينتظره في قبو الدكتورة ليلى.

ولست تعرف ما الذي كان في انتظاره، لذا لا داعي لوصفه من جديد فقد سأخبرك بأن عصام لم يتحمل مارآه هذه المرّة، وأنه أفرغ معدته في كل القبو بقوة كاد يلفظ معها روحه من جسده، قبل أن يقف في النهاية يترنح ويلهث، فمنحه قائد المعمل الجنائي الوقت الذي يحتاج إليه، إلى أن تمالك عصام أخيرًا ليكرر سؤاله الأول متقطعًا لفرط لهاثه:

- ما.. الذي حدث .. هنا؟

- كلهم قُتلوا.. الرجل والطفلان تهشمت رؤوسهم بأداة ثقيلة ... طُعنت ونزفت حتى الموت.. هذا هو ما حدث.

وهي إجابة لا تجيب عن أي شيء.

لكنَّ عصام لم يقو على المزيد، فتطوع قائد المعمل الجنائي بجواب عن السؤال المنطقي الثاني:

- هناك بصمات .. الكثير منها هذه المرَّة .. لكن هذا ليس كل شيء!

قالها واتجه إلى جثة الطفلة التي لم يعد من الممكن تمييزها بالنظر لحجمها، ليشير إلى فمها المفتوح، مردفًا:

- هناك شيء ما معدني كان يستقر في فمها لزمن طويل.. زمن كاف لأن يترك أثره على لسانها.. شيء لم يعد هناك لأن القاتل أخذه على الأرجح.

فجاهد عصام مرَّة أخرى ليتنزع السؤال من وسط تهتهته وقد دهمه رغبة عنيفة في القيء من جديد:

- ما هو.. هذا الشيء؟

- مفتاح.. الذي كان في فمها مفتاح.

* * *

وهذا المفتاح كان بين أصابع يوسف الآن، يتأمله محاولًا تخمين ما الذي يمكن أن يفتحه.

برئة واحدة وعين واحدة قضى يوسف الأيام الماضية ما بين القراءة في

... تاريخ وتأمل المفتاح، وفي أعماقه كل شعور عجيب بالاستسلام ... يموت، فلا يحتاجه إلا تحيلات لأبواب لا وجود لها يفتحها هذا ... سيقوده إلى خلاصه

ثلاثة أيام مرَّت عليه منذ أن عاد من رحلة «فلاد».. ثلاثة أيام قرأ فيها ... عن عهده الرهيب وتائه فيها بإحساس لم يشعر به أي قارئ ... في هذه الدنيا

بإحساس من كان هناك!

ثلاثة أيام تأمل فيها يوسف على النفس مرثة واحدة، من دون أن يجهد ... في التفكير في كيفية موت رئته داخل جسده.. ذلك الأمر الذي أصاب ... الذي فحصه بالذهول والحيرة، وقد عجزت معلوماته الطبية عن ... إجابة عن هذا السؤال، فتركه يوسف يبحث عن الإجابة في الكتب ... التاريخ الطبية، وعاد هو إلى كتب التاريخ محتفظًا بالإجابة لنفسه.

... منذ أخذها الشيء.

... بها قواعد اللعبة .. في كل مرَّة سيمنحه قطعة من الحقيقة .. ويأخذ ... منه قطعة

- لكنه منحني المفتاح بلا مقابل.

... نفسه وهو يرقد على فراشه يتأمله بين أصابعه بقوشه العجيبة التي ... عليه، محاولًا ألا يسترجع في رأسه بقية أحداث الليلة التي حصل ... فيها.. نعم.. لقد منحه الشيء المفتاح بلا مقابل ولسبب ما لم يعرفه ... ثم بدأت لعبة الشيء الزمنية وبدأت عملية تبادل الحقائق بأعضاء ... يوسف عينًا ورئة، ولكن...

ولكن ما الحقائق التي حصل عليها حتى الآن؟

لقد عرف كيف كانت بداية الشيء، وعرف أنه كان يمكنه التدخل مع ظهوره لأول مرّة، لكنه اختار ترك المرأة في الغابة ودفع ثمن ذلك.. هكذا نفذت المرأة طقوس الاستدعاء لأول مرّة، وهكذا وُلد الشيء في عالمنا، وهكذا بَقِيَ!

ماذا أيضًا؟

إنه الآن يعرف لماذا يقتل الشيء كل مَن يقتلهم.. لأن كل يوم في عمره يضاف إلى عمره.. والشيء قتل الآلاف.. ربما الملايين عبر التاريخ إذن فهو باقٍ إلى يوم الدين لو لم يقضِ عليه أحد، ويوسف لم يعرف بعد طقوس القضاء عليه!

ماذا أيضًا؟

لقد عرف أن الشيء يستمع بوقته حقًّا!

إنه لا يقتل كيفما اتفق له، بل يستمع بما يفعله

ربما لأنه رآه أولًا في صورة من يحبهم ـ لدى هو ليس الله ـ أو ربما في أسرة الطفلة في صورتها، فرأى يوسف أن هذا الشيء أشبه بطفل سعيد يمارس هوايته بعينة حُرم منها طويلًا، وهو رأى ما لدى يصيب الأطفال السعداء حين يحرمون من هواياتهم، فهو لم ينسَ صلاح قطُّ، ولن ينساه أبدًا بعد تدخله الرهيب في الغابة.. المشكلة هنا أن صلاح تكفلت سيارة مسرعة بالقضاء عليه، أما الشيء فيحتاج إلى طقوس خاصة لا يعرف إن كان سيعثر عليها قبل فوات الأوان أم لا.. طقوس مدفونة في صفحات التاريخ تنتظر من ينفض التراب عنها، تمامًا كما حدث مع طقوس البداية التي استدعت هذا الشيء إلى عالمنا

ماذا أيضًا؟

يعرف أنه في الزمن المقبل سيكون مع امرأة.

مرأة احتلت مكانها بجدارة في صفحات التاريخ السوداء ـ لو طبّق عليها قاعدته التي ظنها للشيء مع «فلاد» ـ وهو رهان عبر مصمونه، لكنه لا يمسك سواه.. الشيء يختار دومًا من هم ذوو سطوة ونفوذ لينفذ بحضته عبر أجسادهم، وليمنحهم في المقابل الخلود في صورة طغاة يسجلهم التاريخ أبدًا.. وهنا يأتي سؤال جدلي لا إجابة له:

هل اختار الشيء اختيارهم كي يوسعهم قتلًا قبل أن يحتل أجسادهم، أم أنه هو من وجههم إلى ضحاياه بعد أن احتلهم؟

هل ضحاياه حقًّا أم مجرد ضحايا من ضحايا الشيء؟

سؤال جدلي لا إجابة له، ولا فرق ستصنعه أي إجابة.. المهم أنه أصبح يعرف الآن أين يبحث في كتب التاريخ، والدور الآن على امرأة.. فمن هي؟

امرأة يلوح حنون مطلق من عينيها وترقد في قفص على عربة تجرها لأحصنة يقودها هو.. كما رأى في اللوحة

مرأة يجب أن يعرف عنها كل شيء ممكن، وأن يحاول استنتاج ما سيفعله معها

ففي الفصل الثالث من اللعبة.. سيكون لقاؤه معها.

* * *

كان عصام فكان يعرف هوية المرأة التي يطاردها، ويعرف كل شيء عنها من دون أن يفيده معرفته هذه بشيء

اسمها سوسن .. في الثانية والعشرين من العُمر .. طالبة في سنة النهائية في كلية الآداب قسم التاريخ .. نحيلة، ترتدي نظارة طبية تمنحها ذكاءً واضحًا، وتخفي نظراتها الحادة المتوترة.. والدها كان يعمل محاسبًا في أحد البنوك، ووالدتها كانت ربة منزل قبل أن يختفي الاثنان كسوسن بلا أثر أو تفسير.. والأسوأ من هذا كله أنها كانت تلميذة الدكتور محمدي، وهي التفصيلة التي لم يعد بإمكانه تجاهلها أكثر من هذا.

سوسن كانت خطية سامح ـ كما عرف من التحريات ـ ولقد تركت بصماتها في مسرح جريمته، ما يمنحها لقب «مشتبه فيه»، والرابط الوحيد بين هربها وبين العثور على بصماتها هو أنها «مرتكبة الجريمة» .. هكذا يصبح الخيار الوحيد أمام عصام هو القبض عليها فاستجوابها للحصول منها على اعتراف يغلق به قضيتها، لكنه عاجز تمامًا عن العثور عليها على الرغم من كل محاولاته.

لقد راقب منزلها.. كليتها.. استجوب جيرانها وزملاء دراستها استدعى بعضًا منهم إلى مكتبه، ومارس عليهم كل فنون الاستجواب المسموح بها وغير المسموح بها، فلم يخرج منهم بشيء.. زار مسرح الجريمة مراحل ثم حصل على قائمة بكل المكالمات التي أجرتها من هاتفها قبل أن تختفي، فوجد أنها لم تكن من هواة استخدامه، وأن الوحيد الذي كانت على اتصال به قبل اختفائها هو يوسف، الذي زعم أن اتصاله الوحيد به كان من أجل تحقيقه الصحفي اللعين.

يوسف الذي ترك منزله هو الآخر ولاذ بتلك الغرفة في دنك تفتدق القذر، وهي تفصيلة سيعود إليها في الوقت المناسب، لكن الآن عليه أن يتفرغ للعثور على سوسن فحسب، وعليه أن يتجاهل حقيقة أنه يعمل هذ

يدفع للصوص أكثر من أي دافع مهني مقبول. إنه يثق بأنه ـ بدرجة أو بأخرى ـ يريد أن يعرف منها «كيف» قتلت سامح أكثر من «لماذا» قتلته.

كيف فعلت ما عجز الجميع عن تفسيره أو فهمه.

إنه لم يتعرض إلى موقف مشابه لهذا إلا في جريمة الدكتور مجدي، لكن جريمة هذا الأخير تبدو الآن أكثر بساطة وشاعرية.. الرجل هوى بمطرقة على رأس ابنه حتى غرسها في جدار غرفة نومه، لكن سوسن.. لكن سوسن..

لكن سوسن أحرقت سامح من الداخل إلى الخارج!

نعم .. إنه يريد أن يعرف كيف فعلتها مهما كان دافعها .. فقط لو عرف «كيف» فسيتمكن من النوم من جديد، وهو لم ينم منذ أن رأى جثة سامح، ولأن لن يحرؤ حتى على تمني النوم بعد أن رأى المذبحة التي كانت سطره في فيلا الدكتورة ليلى.

تقرير الطبيب الشرعي لخص له الموقف كالتالي: روح الدكتورة ليلى وصلاح تهشمت رؤوسهم بأداة ثقيلة هوت على رؤوسهم وهم نائمون في أسرّتهم ـ تمامًا كما حدث مع ابن الدكتور محمدي ـ قبل أن يحرّ قاتلهم حنجرتهم إلى العمق ليصعقهم هناك في وضع الجلوس على مقاعد قديمة بالية دون يدعوهم إلى اجتماع عائلي بهيج، لكنه ـ ولسبب ما ـ ترك الدكتورة سمر على قيد الحياة.

التقرير يؤكد أن أسابيع مرّت بين وفاة الدكتورة ليلى وبين وفاة عائلتها، وهنا يأتي سؤال مهم يستحق إجابة.

لماذا لم تُنهِ الدكتورة ليلى على مقتل عائلتها طيلة هذه الفترة؟

لقد كنت معهم في الفلا طيلة هذه الأسابيع كما أكد جيرهارت لكني لم أتحدث في الممكن ذاته الذي ترقد فيه جثث روحها وضميرها. فمن لم تتلع عن مقتلهم؟

سؤال منطقي إجابته الوحيدة هي أنها قاتلتهم، وهو ما سعى لتصديق هذا التفسير بعد أن رأى ما الذي فعله الدكتور محمدي في هذه الوحيد، لكن حتى لو قبل بهذه الفرضية فسيجد نفسه مطالبًا بالإجابة عن أسئلة أخرى:

لماذا قتلت الدكتورة ليلى عائلتها بهذه الوحشية؟

لماذا دسّت مفتاحًا في فم جثة طفلتها؟

كيف تحمّلت البقاء مع جثثهم في المنزل ذاته طيلة هذه الفترة؟

لماذا لم تهرب أو تحاول الهرب حتى؟

والأهم من هذا كله: مَن قتل الدكتورة ليلى وسرق المفتاح من فمها؟ أهي سوسن؟

سوسن التي تأبى إلا أن تطارد أي نسيج أفكار يُغزل في رأسه سوسن التي يتخيلها الآن وهي تقتل الدكتورة ليلى لتسرق المفتاح الذي كان في فم جثة ابنتها ولتفتح به بابًا سحريًا يقود إلى محنتها التي لا يَعرِفُ له طريقًا.

سوسن التي قد تكون هنا «القاتلة» أو «المتصلة» أو «مجرد شاهدة» أو قد لا تكون لها أي علاقة بهذه الجريمة على الإطلاق.

على أي حال السؤال الأخير هيّنٌ وسيجيب عنه تقرير المعمل الجنائي

هو فيه عشرات على تصميمات في مسرح الجريمة لكني نصنع مجد من تحته لكسر، ومنها سيعرف إن كانت سوسن قد حضرت بقدميها فيلا [illegible] بعد أم لا. لكن لكن

[illegible] لأن وفي أعماقه عاجز تمامًا عن تحديد إن كان يتمنى أن تكون سوسن هي قاتلة الدكتورة ليلى أم لا.

إن كانت هي القاتلة فسيأتي سؤال: «لماذا» فعلتها؟

وإن لم تكن هي فسيأتي سؤال: «مَن» القاتل إذن؟

الاحتمال الأول يعني أن قضية سوسن ستزداد تعقيدًا، والاحتمال الثاني يعني أنه أصبح أمام قضيتين لا قضية واحدة، وكل واحدة منهما أسوأ من الأخرى، فما الذي عليه أن يتمناه الآن؟

أن تكون سوسن أو ألا تكون؟

علامات الاستفهام في رأسه تنمو وتتكاثر حتى ليكادُ رأسه أن ينفجر بها في أي لحظة وهو لم يعد يتحمّل.. إنه لم ينم منذ أن كان في منزل سامح منذ ثلاث ليالٍ، والآن عليه أن يحظى ولو بساعة واحدة من نومٍ يستحقه جسده عن جدارة.. يجب أن يفعلها كما فعلها حين رأى جثة ابن الدكتور محمدي، وهو لم ينم طويلًا بعد أن رآها، لكنه في النهاية فعلها.

هكذا تراجع عصام في مقعده وألقى برأسه على سطح مكتبه ثم ألقى رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه محاولًا إفراغ المشهد في رأسه من كل علامات الاستفهام المثيرة فيه

[illegible] وقت النوم. وهو لن ينتظر حتى يعود إلى منزله لينام في فراشه

سيام هنا والآن. فقط لو استطاع أن ينسى سوسن. سامح محمود ليلى روح ليلى وطفليها. والمفتاح الذي كان في فم ابنها

الأمر سهل، وكل ما عليه هو أن يسترخي.. أن يتخيل شاشة سوداء أمامه. أن يتنفس ببطء إراديّ. وأن يتذكر كيف كان اليوم يداهمه في الدراسة، وكيف كان يستسلم له حتى انتهى به الأمر في كنية الشرطة!

وفي الشاشة السوداء في مخيلة عصام بدأت علامات الاستفهام تتناقص ببطء شديد

وتدريجيًّا بدأ السواد يشوبُ المشهد أمامه، وبدأت أنفاسه الانتظام والبطء، ثم بدأت عضلاته الانبساط واحدة تلو الأخرى مستعدة للتجمع فيها معدودة عقله حيث احتشدت طويلًا

وعلى الرغم من أنه لم يغب في النوم تمامًا فإنه بدأ يسمع في رأسه أصواتًا اختلطت فيها الحقيقة بالخيال والذكريات، فأخذ يحول ما مصدرها في عالم الأحلام، وقد أدرك أنه سيدخله في أي لحظة، قبل أن يعوي هاتفه المحمول فجأة لينتزعه من هذا كله، وليتقمص عصام رغم عنه معتدلًا بسرعة كاد معها أن يسقط من على مقعده، لكنه تمالك نفسه واختطف هاتفه ليرد عليه صائحًا:

- أهي سوسن؟

فأتاه صوت قائد المعمل الجنائي يجيب بحيرة:

- من سوسن؟ أتقصد تلك التي عثرنا على بصماتها في منزل المهندس الشاب؟ في هذه الحالة الإجابة هي: لا.. ليست سوسن.

وهو يشعر بإحباط عجيب اختلطت معه الكلمات في حلقه

سوسن إذن فهي قضية أخرى

لكنه وقبل أن يشرد عند هذه التفصيلة.. أتاه صوت قائد المعمل الجنائي يواصل:

- لقد كانت البصمات لرجل هذه المرة بحثنا عن صاحبها في السجلات وعرفنا هويته إنها لمصحفي شاب يُدعى يوسف جبل

تعرفه؟

وقد تصاعدت كل الدماء من جسد عصام إلى رأسه الذي تلاشت منه علامات الاستفهام تمامًا، لتحتل مكانها علامة تعجب هائلة ساطعة، فسد قدرته على النطق أو التفكير أو الاستيعاب

من الهاتف أحد صوت قائد المعمل الجنائي يتعالى، لكنّ عصام شعر كأن صوته يأتي إليه من بعيد بعيد.

وبعده تراخت يده الممسكة بالهاتف فهوت به على سطح المكتب، لكنّ عصام لم ينتبه إليها حتى. وقد شعر كأنه يغوص بجسده في ماء بارد مظلم. وللحظات لم تطُل، انتاب عصام شعور عجيب بالسكينة، وقد انفصاله بالعالم الخارجي، قبل أن يسترد شعوره بالزمان والمكان بغتة بهتْ واقفًا والغضب يسيل من عينيه وأنفه.

وفي رأسه أخذت كل الدماء التي احتشدت هناك في تعليق

٢٢

فش عن المرأة

فيها «الكساندر دوماس» أول مرّة، وكان يقصد بها المعنى الذي
يعرفه الجميع

أينما وَجدتَ جريمةً أو كارثةً أو أحداثًا غير منطقية فستجد شيئًا ما
متسببة فيما حدث، وهي حقيقة أثبتها التاريخ مرارًا وتكرارًا. وهذا ما
يوسف يفعله الآن مع اختلاف الموقف والمعنى.

إنه لا «يفتش» عن امرأة، فهذا دور حصام الآن، وامرأته هي سوس.
لكن يوسف «يبحث» عن امرأة أخرى عاشت في زمن قديم، ستجد
يوسف نفسه فيه قريبًا. امرأة.. لو صحت نظريته.. فسيجدها وستكون
أسوأ امرأة في التاريخ. فمن هي؟

كان قد تفرغ للبحث عنها طيلة عشرة أيام متتالية حتى إنه قد بدأ يضيع قدميه
بهن، ليجد نفسه في النهاية يمسك بورقة تحمل بعض الأسماء التي قد
يبدو بعضها مألوفًا لك، سنسمع البعض الآخر لأول مرّة، ولسوف نمضي
الآن في تفحص هذه القائمة.

الملكة «ماري الأولى».. ملكة بريطانيا وابنة «هنري الثامن»، والتي
عرش بعد وفاة «إدوارد السادس»، وبعد الملكة «جين جراي»
ي تربعت على العرش لتسعة أيام فقط.. كانت مهووسة بإجبار رعاياها
عى عنق الكاثوليكية، فحاربت البروتستانتيين طويلًا، وارتكبت معهم
ع رهيبة منحتها لقبها الأشهر «ماري الدموية».. عاشت في الفترة ما بين
١٥١٥ و١٥٥٨ ميلادية، أي أنها أتت بعد «فلاد الوالاشي»، ما يجعلها
نحة لا بأس بها، ولكن..

ولكنها لم يُقصّ عنها أو تُسحق قطُّ، وبالتالي فهي ليست المرأة التي
ت في القفص، والتي رآها يوسف في الموجة

بد يخرجها من دائرة بحثه وينتقل إلى الاسم التالي في القائمة

«إلزه كوخ».. ألمانية نازية كانت تُشرف على معسكرات التعذيب،
كانت تمتع بسادية لا نظير لها، لكن عادتها أن تحتفظ بقطع من جلود
ضحاياها هي ما منحها لقب «الساحرة الحمراء». لكنها لا تصلح
لمشتبه، إذ إنها ألمانية، أي أنها تنتمي إلى العصر الحديث ـ نسبيًا ـ إذن
لا حرية.. لا أحصنة.. لا قفص.. وإلى الاسم التالي في القائمة.

«إيرما جريزه».. نازية هي الأخرى، لذا ستخرج من القائمة للأسباب
نفسها التي استبعدت بها «إلزه»

ولكن مهلًا

من قال إن الشيء يحتل جسد المرأة؟

ظهرها في الموجة ولا يحتمل بقاءها من غيبها، لكنها لم تكن تتوهج

ربما كان الأمر وبيساطة أن ما رآه في اللوحة كان مجرد حدث من الأحداث التي سيمر بها في زمن هذه المرأة، وأنها ليست بحاجة لحضوره شخصيًا الفصل المقبل من لعبة الشيء.. قد يلتقي هذه المرأة.. قد تقود سيارة تحمل قصصها.. وقد يتركها بعد ذلك في سلام ليلتقي الشيء في مكان آخر أو موقف آخر لا علاقة له بهذه المرأة من قريب أو من بعيد

هذه الملاحظة كفيلة بهدم نظريته وتحويل الوقت الذي أضاعه في البحث حوله الفترة المتبقية إلى وقت ضائع، لكن لا.. إنه لا يمتلك ترف الإحباط أو اليأس.. ثم إن القائمة أوشكت على الانتهاء، فعلى الاسم التالي فيها هو:

«إليزابيث...».

لكن طرقات قوية هوت على باب غرفته، فانتفض يوسف وهمّ واقفًا بالذهول مَن لم يطرق أحد بابه منذ أن أتى إلى هنا، وفي صدره بدأ قلبه يقفز على ضلوعه بسرعة.. وبلا توقف.

مَن الذي طرق باب الغرفة؟

أهو أحد العاملين هنا؟ أهو أحد قاطني الفندق مثله؟ أهو عصام وقد أتى ليسأله عن سوسن محمدًا؟ أهو الشيء وقد قرر أن يكون مهمة هذه المرّة؟! أهـ...

لكن إحساسه أتاه في صورة ورقة دسها صاحبها من أسفل الباب، قبل أن يعلو صوت خطوات تبتعد بسرعة، فتحول توتر يوسف وقلقه إلى مزيج منسجم من الدهشة والحيرة، وهو يقترب مأخوذًا من الورقة البيضاء ليلتقطها ورفعها إلى عينه ليقرأ الكلمة الوحيدة التي خطت عليها

«هرب!».

* * *

في لحظة واحدة تلوثت دماء يوسف بالأدرينالين الذي أفرزته غدته وشمّ رائحتها وتسارعت قدرته على التفكير.

هذه رسالة تحذير.. تطالبه بالهرب.. هناك من سيأتون من أجله، وأغلب الظن أنهم رجال الشرطة وقد كشفوا أمره أخيرًا.. بالطبع هم رجال الشرطة، فهذا التحذير لا يعني أنه الشيء الذي لن يُجدي معه الهرب.. مَن ترك له الرسالة لا يمزح، فلا أحد يمزح معه ولا أحد يعرفه.. يجب أن يهرب.. لكن لماذا؟ لا يهم.. مَن الذي ترك له الرسالة؟ لا يهم.

المهم أن يخرج من هنا الآن!

هكذا ألقى يوسف نظرة سريعة على الغرفة التي كانت عالمه طيلة الفترة الماضية، ليقرر ما الذي سيحمله معه وما الذي سيتركه.. ملابسه.. يكفيه ما يرتديه.. نقوده.. لم يعد يملك منها ما يستحق حمله.. كتب التاريخ.. لن يحملها كلها وهو يهرب.. أوراق مهمة.. لا توجد أوراق أهم من أن يهرب لأن

المفتاح

المفتاح

يجب أن يأخذ المفتاح

لا يمكنه أن يرحل من دون المفتاح

يجب أن تترك المفتاح

هذا هو ما تلقى له من حياته كلها . مفتاح منحه إياه لشيء، لا يعرف

ما الذي يفتحه، لكنه - وهو أمر مثير للشفقة لو فكرت فيه مثلي - الشيء الوحيد الذي سيحمله معه في رحلة هربه من المجهول وإلى المجهول.

يجب أن يأخذ معه المفتاح، ولكن أين تركه؟ على طاولة بجوار الفراش.

وبالسرعة التي منحه إياها الأدرينالين في عروقه قفز نحو طاولة بجوار الفراش ليبدأ إلقاء الأوراق والكتب من عليها إلى منطقة يعرفه، فحص فيها للحظة، قبل أن تنتهي على أرضها، حيث ستظل إلى أن يعثر عليها المعمل الجنائي لاحقًا.

لكنه لم يجد المفتاح!

أين هو؟!

بحث على الفراش، وهذه المرَّة حلقت الوسادات والملاءة، وقبل أن تلامس الأرض هذه المرَّة كان قد هبط إلى أسفل الفراش ليواصل بحثه، لكنه لم يجد ضالته.

أين المفتاح؟!

بقفزة أسرع بلغ الحمَّام الضيق الملحق بغرفته، وهناك بدأ يهشم كل شيء يعترض طريقه بحثًا عن مفتاح عبثي يحمل شوشًا عن مهمته، لكنه لم يكن هناك.. انتقل بقفزة ثالثة إلى حقائبه فطارت محتوياتها في سماء الغرفة قبل أن يحمل الحقائب ذاتها في الهواء ليبدأ رجها بعنف كأنه يطرد الأرواح الشريرة التي احتلتها، فتصاعدت أصوات سقوط أشياء لم يعد لها في حياته قيمة، من دون أن تدوي أي أصوات معدني الذي يبحث عنه في نهاية يائسة ويرتجف وبصره يسقط بين جنباته التي سكنها غير

يعرفه بحث فيها، قبل أن يرتد إليه بصره خائبًا عاجزًا عن رؤية الشيء الوحيد الذي يجب عليه أن يراه ويجده.

أين المفتاح؟!

ليبدأ البحث من جديد وبسرعة أكبر هذه المرَّة ولتفرز غدده كل ما يحتويها من أدرينالين، فسيجتاح إلى كل قصبة منه في الشعيرات المحيطة بمفصل يعثر على مفتاحه اللعين ثم و

وفجأة تصاعدت أصوات أقدام تسرع إلى باب غرفته!

* * *

الأدرينالين كان يسري كالحمم في عروق عصام في ذات اللحظة.

هو يقود سيارته بسرعة استحالت معها الموجودات من حوله إلى خطوط مضيئة متصلة تسللت من بينها صرخات المارة وصرير السيارات التي توقفت في اللحظة الأخيرة قبل أن تعترض طريقه، لكنه لم يكن يرى منها إلا صورة يوسف بجسده النحيل ولحيته الجديدة يبتسم له بسخرية.

يوسف خدعه!

الموقف كان واضح لا يحتمل الشك.. محمدي قبل سنة، وتعميته سامح قتلت سامح بعد أن التقت يوسف الذي قتل الدكتورة ليلى.. هذا هو الموقف بكل بساطة، والآن على الجميع أن يدفعوا الثمن.

يوسف خدعه!

بعد قتل الدكتورة ليلى، ولهذا هرب من منزله وانتقل إلى ذلك الفندق الحقير، ثم وقف أمامه ومنحه قصة كاذبة ببرود أعصاب لا يعني إلا أنه

يستهين به وبذكائه وهو لا يغفر الإهانة قطُّ.. لا يغفرها ولا يتحملها.

ولم يعد يهتم حتى بدافع يوسف لارتكاب جريمته.. فقط عليه أن يدفع ثمن إهانته إياه، وهو ثمن أغلى بكثير من ثمن جريمته.. ويوسف لن يتحرر أبدًا ما سيحدث له على يديه.

مجدي.. ابنه.. سوسن.. سامح.. ليلى.. يوسف.

مجدي وابنه وسامح وليلى ماتوا.

وسوسن احتفت على الرغم من كل محاولاته للعثور عليها

لكن يوسف - ولسوء حظه - لم يحتف بعد

بل إنه يعرف أين هو الآن

يعرف، وهو في طريقه إليه.. في طريقه ليبترعه من حياته بيديه، وليلقي به إلى أسوأ كوابيسه.

وهو اقترب

اقترب فأرخى قدمه التي سحقت دواسة البنزين طويلًا لتتحول الحقول المضيئة من حوله إلى مبانٍ وأعمدة إنارة ومارة يحوطون الطرقات على عجل، قبل أن ينحرف بسيارته إلى أحد الشوارع الجانبية وسرعته تقل تدريجيًّا

وفي نهاية الشارع الذي وجد نفسه فيه كان الفندق الذي يبحث فيه يوسف الآن عن مفتاحه في انتظاره.

* * *

ثم تذكَّر يوسف فجأة أين وضع المفتاح!

أصوات الأقدام في الخارج كانت تقترب وتقترب، لكن.. في رأسه
لحظة واحدة.. مجرد لحظة واحدة.. رأى يوسف بعين خياله أنه سيجد
مفتاح وسط كومة الكتب والأوراق والملابس التي صنعها، وأدرك أنه
لن يجد الوقت الكافي للحصول عليه فصوت الأقدام في الخارج يقترب
ويقترب، وكل ما يمكنه فعله الآن هو أن يغمض عينيه مستسلمًا لمصيره
الذي سهل عليه استنتاجه.

سيعثرون الليلة على جثة الدكتورة ليلى، وسيعترف هو بجريمته،
وبعدها لن ينطق بحرف واحد حتى النهاية، فمن سيصدقه لو نطق؟ نعم
سيودعونه السجن بقية حياته وسيتركهم يحكمون عليه بالإعدام وسيقضي ما تبقى
له من أيام في السجن حيث سيفقد عقله تدريجيًّا، وحيث سيزوره في أحد
الأيام صحفي من مجلة «المجلة» ليحاول أن يُجري معه حوارًا يكشف فيه
سر قصة يوسف والدكتورة لمقطم كما سيصفون جريمته هذا ما سيحدث
تمامًا.. وحينها..

وحينها لن يكرر يوسف خطأ الدكتور مجدي، وسيغرس القلم في
شريان عنقه حتى النهاية

الأصوات تقترب وتقترب وابتسامة استسلام مريرة تشق طريقها إلى
شفتيه، قبل أن يسمع الأصوات تبتعد وتبتعد!

تبتعد وتختفي ضحكات تعلن وبوضوح أنهم ليسوا رجال الشرطة،
وأنهم لم يأتوا للقبض عليه.

لقد نجا.

نجا.

مؤقتًا

لقد منحه القدر بضع لحظات إضافية، وعليه أن يُحسن استغلالها بسرعة. لهذا انتزع نفسه من حموده وألقى بحسده وسط كومة حمقاء التي سيتركها على أرض المعرفة، لبدء البحث عن قميصه الذي كان قد خلعه في الصباح بعد ترك المفتاح في جيب قميصه لو لم يكن محظوظًا كان.. فلن يجد فرصة ثانية للبحث عنه أبدًا.

الموقف الآن يعتمد تمامًا على حظه - مع الأسف - وهو لا يعتقد يقف حظه في جانبه قطُّ، لكن صوت حظه تعالى في رأسه ليصيح

- ستعثر عليه.. ستعثر عليه لأنه سيقودك إلى حتفك.

وكالعادة لم يكذب عليه سوء حظه، إذ انتزعت يده قميصه من وسط كومة الملابس ليسقط منه مفتاح عتيق هوى على الأرض أمامه كحجر هامد، فاختطفه ودسه في جيبه بلهفة، قبل أن يقف من دون أن يشعر بدرجة واحدة من السعادة أو الخلاص.

ولا

سيبدأ رحلة الهرب.

* * *

وفي اللحظة التي دس فيها يوسف المفتاح في جيبه كان عصام يوقف بسيارته أمام الفندق.

توقف بعرجة حادة جعلت الأطفال يهربون، لكنه تجاهل أصحابها وترجل خارجًا من سيارته متجهًا إلى مدخل الفندق وقد سُلّ سلاحه عازمًا على

يستخدمه عند أقل تصرف مريب من يوسف.. لو لم تزفّه نصرة واحدة في عين يوسف فسيفرغ رصاصاته في جسده، ثم سيقفز عليه بعدها ليستحوذ

هكذا فتحم الفندق شاهرًا سلاحه، وهكذا تصاعدت صرخات من فيه حين رأوه، لكنه تجاهلهم جميعًا وأسرع نحو المصعد الذي سلم الفندق ليبدأ صعوده، بقفزات سريعة ومنسوب الأدرينالين في دمائه يتعالى أكثر وأكثر.

يخترق المصعد سقف الفندق، فتعلو الأعلى ليسطره يوسف، ويقد أتى إليه حاملًا بهديته معه

* * *

حاملًا مفتاحه خرج يوسف من غرفته وأسرع إلى سلالم الفندق.

كان يعرف أن عليه أن يخرج من هنا وفورًا، لكنه لم يكن يحمل أي فكرة عن المكان الذي سيتجه إليه.. كل ما كان يعنيه في هذه اللحظة هو أن يكون هذا المكان «بعيدًا» عن هنا. واللحظة تذكر موقفه حين كان في غرفة يوسف ليس بحسده، والخيار الوحيد أمامه هو الاتجاه إلى الأعلى

الموقف مشابه، ولو كان يملك رفاهية الوقت للوقف وتأمل فيه ملبًّا، لكن لا وقت

يجب أن يهرب.. وبسرعة.

وعلى الرغم من أنه كان يعرف أن ممرات الفندق ضيقة منذ أن دخلها أول مرة، فإنه شعر هذه المرة كأن الجدران تحاول أن تضيق عليه لتمنعه

من هربه، فأسرع الخطى متجهًا إلى نهاية الممر، وقد أخذ صوت سوء حظه يردد:

ـ لقد تأخرت.. تأخرت كثيرًا.

وهو ما كان يشعر به يوسف تمامًا ويحاول تجاهله، وقد أخذت نهاية الممر تقترب أمامه.. وفي مخيلته ارتسمت خارطة المكان.. يحتاج هو الآن إلى نقطة مضيئة تتحرك بسرعة في طريقها إلى سلم الفندق، سيصعد السلم ثم يهبط الدرج بسرعة ثم يصل إلى الاستقبال ليبحث عن المخرج الخلفي للمكان، وبالتأكيد هناك مخرج خلفي، فهو لن يخرج من مدخل الفندق الرئيسي مهما كان السبب.. هو يعرف ما سيحدث له لو حاول الخروج وسيجد كل رجال داخلية مصر يقفون في انتظاره محتمين بسياراتهم ومسددين أسلحتهم تجاهه.. سيصرخون في وجهه طالبين أن يستسلم لهم، وسيحاول هو أن ينطق بشيء ما لن يروق لأحد، ليفرغوا رصاصاتهم في جسده النحيل، قبل أن يتعثر ويهوي في أثناء القفز عليه بهم أحد في محاولة لتدميره!

لن يخرج من المدخل الرئيسي، وسيجد المخرج الخلفي يخرج منه إلى الأمان، وكل ما عليه الآن هو أن يبلغ الدرج و...

ـ توقف.

تصاعد الصوت هذه المرّة في رأسه، فتوقف يوسف مرعوبًا وحاول ينتفض بقوة كادت أن تسقطه.

فهذه المرّة لم يكن الصوت الذي تصاعد في رأسه هو صوت سوء حظه.. بل كان صوته هو.

صوت الشيء!

نبرة ذاتها الباردة العابثة، واللهجة ذاتها الآمرة، والسؤال الآن هو: لماذا؟

لماذا توقف؟!

ـ صعد إلى الأعلى.

فهم الشيء في رأسه فاستوعب يوسف الموقف في لحظة.. إنه الشيء يحاول منعه من مواصلة طريقه إلى سلالم الفندق، لأن من أتوا للقبض عليه في طريقهم إليه الآن.. إلى أين سيتجه؟ إلى الأعلى.. لماذا يساعده الشيء؟

لأن اللعبة لم تنتهِ بعد، والشيء لن يتركه إلى أن تنتهي.

وانحدر الآن أمام يوسف واضحًا بما أن يواصل طريقه إلى السجن فالأعلى هو الحل.

هكذا استدار يوسف وانطلق يعدو هذه المرّة بأقصى سرعته عائدًا إلى غرفته.

* * *

ثم بلغ عصفه الطابق الذي توجد فيه غرفة يوسف توقف فيه بدهشة قوة

لقد صعد الدرج إلى الطابق الخامس قفزًا وهو لم يتمتع يومًا ما بجسد رياضي قادر على بذل مثل هذا المجهود، ولولا الأدرينالين الذي يجري في دمه لما فعلها.. لهذا توقف وأمسك بصدره محاولًا السيطرة على أنفاسه، ومحاولًا تذكر رقم غرفة يوسف وسلاحه لا يزال يتدلى من يده الحرة.

لقد قرأ رقم الغرفة حين أتته نتيجة التحريات التي طلبها عن يوسف، بعد أن عرف أنه التقى سوسن قبل اختفائها، ومنها عرف عنوان الفندق، ومنها استطاع أن يباغت يوسف في المكتبة القريبة من المكان، لكنه لا عاجز تمامًا عن تذكر رقم غرفته، وهو لن يقتحم كل الغرف في الممر بحثًا عنه.. لن يخاطر بأن يشعر به يوسف ليحاول الهرب، فهو يريد أن يباغته ثانية.. وهذه المرَّة.. لن يرحمه!

انتظمت أنفاسه أخيرًا فاعتدل وتأمل أبواب الغرف التي تراصت على جانبي الممر، محاولًا تذكر الرقم المنشود مرَّة أخرى.. وبغتة شعر كأنه في أحد برامج المسابقات الشهيرة، والتي عليه فيها أن يختار الباب الصحيح الذي توجد خلفه الجائزة.. كل ما ينقصه الآن هو مقدم البرنامج صاخب، يصيح محمسًا الجماهير:

- ١٠ ثوانٍ هي ما تبقت للمتسابق عصام فتحي، وكل ما عليه الآن هو اختيار الباب الصحيح ليربح معنا الجائزة الكبرى.. فهل سيفعلها؟

فتتحمس الجماهير الوهمية في عقل عصام وتتعلق أعينهم به بترقب، بينما يبدو عليه التردد.. أمامه فرصة واحدة فقط للتجربة، فلو اختار الباب الخطأ فسوف تهدر سلاحه فيصرخ من فيه وسيشعر به يوسف وسيهرب، وحينها سيختفي وإلى الأبد.. تمامًا كما فعلت سوسن.. وفي رأسه يواصل مقدم البرامج

- ٨ ثوانٍ وينتهي الوقت المسموح به.. متسابقنا عصام فتحي قد فكر تمامًا في الأمر على سوسن.. وفي حل آخر قصيتين واجههما.. وهذه المرَّة عليه أن يختار الباب الصحيح لو أراد أن يحتفظ على منصبه في الداخلية.. وإلا...

كان بالطبع أن يهبط إلى الاستقبال وأن يعرف من صاحبة الفندق رقم غرفة يوسف ليصعد من جديد، لكنه لن يخاطر بترك المكان ولن يتحمَّل صعود خمسة طوابق ثم صعودها عدوًا من جديد.. ثم إنه يعرف رقم الغرفة! يعرفه كما عرف عنوان الفندق، وكما عرف أنها في الطابق الخامس، وكل ما عليه الآن هو أن يهدأ.. يركز.. يتذكر الرقم الصحيح.

المرحلة الأخيرة من المسابقة صعبة بالفعل.. أمام متسابقنا عشرة أبواب على الأقل.. وراء واحدٍ منها توجد الجائزة الكبرى، بينما يسيطر التشتل و لإقنة خلف باقي الأبواب.. و٥ ثوانٍ هي ما تبقت في زمن الاختيار.. فهل سيفعلها؟

سعة على مقدمي برامج المسابقات في كل زمان ومكان!

عصم عينه وحاول طرد مقدم البرامج والجماهير من رأسه ليركز، فلم يستطع سوى بصيص في رأسه يحتفظ به منذ كشف

سيتذكره.. لقد قرأه أكثر من مرَّة، وهو يعرفه.. فقط عليه أن يهدأ، يتذكره.. سيقتحم الغرفة.. سيجد يوسف في انتظاره وسيقتله من دون مناقشة.. فقط عليه أن يتذكره.. ليتجاهل كل الأصوات في رأسه وخارجها وليـ...

ومن غرفة يوسف دوى صوت تهشم زجاج نافذته، ليمنح عصام الحل الصحيح!

* * *

حين أسرع يوسف إلى غرفته لم يكن يعرف ما الذي سيفعله داخلها، تمامًا كما لم يكن يعرف ما الذي سيفعله لو خرج من الفندق حيًّا.. كان

مجرد رد فعل عربي لتحذير الشيء له. لقد أمره بالابتعاد عن السلم إذن ليستدِرْ عائدًا.. وبسرعة.

هكذا هرول عائدًا إلى غرفته، وهكذا مدَّ يده إلى مقبض بابها، بهدف أن يفتحها لكنه تجمَّد مكانه في اللحظة التي تعالى فيها الصوت في رأسه

ـ لكنه أمرك بالصعود إلى الأعلى.

قالها صوت سوء حظه فانتفض وقد ظن للوهلة الأولى أنه الشيء يحدثه من جديد.. لكنه لم يكن هو.. لم تكن النبرة العابثة تطل من صوت سوء حظه.. بل الخوف.. حتى سوء حظه يدرك ما سيحدث له لو قصر عنه

ـ الأعلى أيها الأحمق.. اسرع.

لكن يوسف ظل متجمدًا مكانه للحظة تعلقت فيها يده في الهواء أمام مقبض باب غرفته، قبل أن ينتزع نفسه من ذهوله، ليهرول من جديد متعدًا هذه المرّة عن سلالم الصدق وعن غرفته وفي حين صار المكان التي سطعت في رأسه ومصت كلمة «سلم الطوارئ» فأدرك أنها هدفه المقبل.

هناك سلم طوارئ في نهاية الممر البعيدة ولو بلغه في الوقت المناسب فسيحو.

لهذا أسرع إليه ليجد الباب الذي يقود إليه مغلقًا فألقى بجسده عليه ليفتحه، ولتستقبله السلالم المعدنية الباردة، فبدأ في الصعود قبل في اللحظة التي انفجر فيها زجاج نافذة غرفته بدويٍّ هائل.

انفجر وكأن قبضة هائلة خفية هوت عليه، فتحرك عصام على الفور

سحق بي عرفه يوسف الذي كان يعبث وهو يواصل فرمه على الدرجات المعدنية متجهًا إلى سطح الفندق.

ولو كان ما يحدث الآن جزءًا من فيلم سينمائي لانقسمت الشاشة إلى نصفين، لنرى في أحدهما عصام يقتحم غرفة يوسف بعنف، في اللحظة التي اقتحم فيها هذا الأخير باب السطح ليقف فيه حائرًا هلعًا عاجزًا عن معرفة الخطوة التالية.

النبرة ذاتها ارتسمت على وجه عصام الذي وجد أمامه الغرفة الخاوية وقد انسكب فيها كل شيء رأسًا على عقب، وقد خلت من الشيء الوحيد الذي أتى من أجله.. يوسف.

للحظة وقف عصام يرمق المشهد أمامه ذاهلًا للحظة، قبل أن تتوقف عيناه عند النافذة المهشمة، يسرع إليها ويلصق بجسده منها متوقعًا أن يجد يوسف يتدلى منها يحاول الهرب، لكنه لم يكن هناك.

لم يكن هناك لأنه لا يقف على سطح الفندق يتلفت حوله باحثًا عن مخرج، فتعالى الصوت العابث في رأسه يقول

ـ لا أن تقفز

تذكر صوت الشيء، لكنه لم يُفاجأ به هذه المرّة، بل فوجئ بما قاله.

يقفز؟!

ـ نعم أيها الأحمق!

أشار به الشيء إلى هنا ليطلب منه الانتحار قفزًا؟!

لكنه شعر بمن يدير رأسه ليرغمه على رؤية سطح المبنى المجاور

للفندق، ليلاحظ أنه لا يبعد عن السطح الذي يقف عليه إلا م
أكثر، ليفهم ما عليه فعله.. سيقفز إلى المبنى المجاور ومنه سيهبط
حيث سيواصل فراره.

ـ لكنني قد أسقط!

همس بها يوسف وكأنه يحدث الشيء في رأسه، لكنه لم يستق
إنه خياره كالمعتاد: إما أن يقفز وإما أن ينتظر مكانه حتى يبتعه عصه
أسرع مغادرًا الغرفة ليواصل بحثه عنه.

دائمًا ما يضعه الشيء في خيارات كهذه، ودائمًا ما يجد يوسف
نفسه أمام حلٍّ وحيد منطقي، لذا تراجع إلى نهاية السطح المجاور
عن المبنى المجاور قبل أن ينطلق فجأة بأقصى سرعته يجري نحو
المبنى، حتى بلغ نهاية السطح ليقفز بكل قوته من فوق سوره وليحلق
في الهواء للحظات مرّت عليه كأيام طويلة، قبل أن يرتطم جسده في
النهاية بأرضية سطح المبنى المجاور، لتصدر صرخة ألم من فمه وقد
شعر بعظامه تتهشم.

لكنها لم تتهشم.

لم تتهشم بدليل أنه تحامل على نفسه في النهاية ليقف متغلبًا على
الذي اكتنفه، ليسرع إلى باب السطح ومنه إلى سلالم المبنى المجاور،
في اللحظة التي بلغ فيها عصام سطح الفندق، ليجده قد اختفى، فصرخ
من حلقه صرخة غضب هادرة أصمت لها السماء المظلمة بلا
وهو

أما يوسف فكان الدوار الذي يشعر به يشتد أكثر وأكثر مع هبوطه
الدرج بأقصى سرعته، لينتهي به الأمر أخيرًا إلى مدخل البناية المجاورة

الفندق، فخرج منها سريعًا إلى الشوارع التي تصاعدت فيها أبواق سيارات
مرعبة تختلف
بينهم قدموا من أجله
لكنه نجا
نجا وعليه الآن أن يواصل طريقه.
أن يبتعد.. أن يبلغ سيارته.. وأن يقودها إلى أبعد مكان ممكن عن هذا
الفندق. أن يتغلب على الدوار الذي يشعر به وأن يهرب قبل فوات الأوان.
هكذا استدار موليًا ظهره للشارع وراء الفندق، وحث الخطى متجهًا
إلى سيارته التي تركها في أحد الشوارع الجانبية، فوجدها تقف هناك في
انتظاره تحمل له الخلاص ممّا هو فيه.
في هذه اللحظة شعر ولأول مرّة بالأمل ينصاعد في أعماقه مع الدوار،
ومع كل خطوة من سرعته وقد أخذت سيارته أمامه تقترب وتقترب و.. و..
وهوت فجأة ضربة على رأسه أفقدته الوعي وأرسلته إلى حيث
سيواصل هربه في زمن لا يمت إلى زمنه بصلة.

٢٢

ثم وجد يوسف نفسه على عربة تجرها الأحصنة تحمل فقط رفقته فيه امرأة يطلُّ من عينيها الجنون.

هكذا ومن دون مقدمات بدأ الفصل الثالث من اللعبة، ليجد يوسف نفسه يقبض بيدين غليظتين يكسوهما شعر أحمر غزير على لجام ثلاثة بثلاثة أحصنة انطلقت بسرعة لم يقد بها يوسف سيارته قطّ. ومن ورائه أخذت المرأة في القفص تصرخ بلا توقف:

ـ أسرع.. أسرع إنهم وراءنا!

لكنه لم يستجب لها ولم يكن ليستطيع حتى لو حاول.

عقله كان منهمكًا تمامًا في محاولة تشكيل صورة للموقف الذي وجد نفسه فيه.. والموقف هذه المرّة كان مثيرًا بحق

تخيَّل أن تجد نفسك فجأة وقد تحوَّلت إلى عملاق أحمر الشعر والأنف، تقود عربة تجرها أحصنة ثائرة على طريق شبه ممهد وسط غابة تعصف بأشجارها ريح عاتية، حتى لتكاد أن تقتلعها من جذورها، مصحوبة

صفير لا ينقطع في أذنيك إلا بصراخ المرأة المحبوس، فلا تعرف إن كان مرجعه هذا أم عصف

ـ أسرع.. أسرع ولا تخف سقوطًا!

من هم؟

سؤال سيعرف إجابته حين يعرف إجابات أسئلة أكثر أهمية. أين هو؟ متى هو؟ من هي؟

لكن الآن يجب أن يفكر أنك تهرب من هؤلاء الذين يحاولون اللحاق بك، من دون أن تعرف إلى أين أنت ذاهب أصلًا، وأن السماء الملبَّدة بالغيوم في وقت تنذر بوابل من الأمطار كافٍ لإغراق الأرض وما عليها، وأن العربة التي تجلس عليها الآن ترتجُّ بعنف محاولة اللحاق بالأحصنة التي تجرها، والمحفوظة على القفص الذي تقف فيه المرأة وهي تحدق في الظلام من خلفك، فترى ما لن تراه أنت، لتواصل الصراخ:

ـ لقد اقتربوا.. أيها الأحمق أسرررررع!

فدوِّي صراخها مؤلمًا في أذنيك، قبل أن تسقط على وجهك أول قطرة مطر.. وبعدًا في السماء يسطع برق هائل من البرق يعقبه دويٌّ عال لا تسمعه بوضوح، لكنك تشعر به يضرب.. تشعر به وتدرك أنك متجه في قلب العاصفة، وأنك يجب أن تستدير مبتعدًا عنها لولا هؤلاء الذين يطاردونك، ولولا أنك عاجز تمامًا عن التحكم في العربة التي تقودها

وفي النهاية تخيل أنك تقترب من تلك الحافة التي يكفي أن تنحرف معها سنتيمترًا واحدًا عن الطريق، لتجد نفسك تهوي إلى حيث ينتظرك موت يتثاءب في صبر

وفي السماء سطع البرق مرّة أخرى، أعقبه رعد اهتزت له الأرض.

* * *

لكن جسده هذه المرّة ضخم

هذا هو أول شيء لاحظه يوسف، وهذا هو الشيء الذي استمع به في أعماقه على الرغم من دقة موقفه وخطورته.. إنه ضخم مفتول العضلات. وهو الذي عاش حياته كلها في جسد نحيل واهن، والذي حلم من قبل جسدًا يموت وآخر ضئيلًا.

هذه المرّة هو يملك جسدًا قويًا قادرًا على التصرف له أحسن التحكم به، ولو تجاهل الأسئلة المنطقية كلها ليركز على ما هو أهم منها.. على النجاة.

لهذا اعتدل في جلسته، ولهذا أحكم قبضتيه على اللجام وحده ليخفف من سرعة الأحصنة التي لم تستجب له بسهولة، لتصرخ من وراءه:

- ما الذي تفعله أيها الأحمق؟ أسرع.. أسرع!

- اخرسي!

صاح بها.. فراقه صوته الجديد.. صوت أجش عميق النبرات أخرسها على الفور، ومنحه بضع لحظات ليقرر فيها خطوته التالية.

إنه يتجه بي حيث تقل على هاويته، والأمطار التي تهوي من السماء بغزارة تجعل الأرض من أسفله زلقة حقًا، ولو استمر بسرعته هذه فسيهوي به لأمر محتم تجاه الهاوية لتنتهي هذه القصة من بعده للشيء قبل أن يبدأ

[illegible] تتحكم وظيفتين: أن تجذبه لتخفف سرعة الأحصنة.. أو أن تستخدمه [illegible] لتزيد من سرعتها.. وهو اختار الوظيفة الأولى.

[illegible] على الرغم من أن الأحصنة لم تستجب له بسهولة، إذ كانت [illegible] بسرعة لا تعني إلا أنها تهرب هي الأخرى من المُطارِدين، لكنه [illegible] يبقيها تحت سيطرته ويخفف من سرعتها إلى حد معقول، في لحظة أخي [illegible] في فقدانه الطريق استواءه تمامًا سيدًا العربة من أسفله [illegible] لا تتحرك بعنف، على نحو أسقط المرأة في قفصها، وإن لم يسقطها من [illegible]

- سنسقط في أيديهم بسببك أيها الأحمق!

[illegible] يوسف في سرّه على أنها لو وصفته بالأحمق ثانية فسيتركها [illegible] العربة ليقتلها من يطاردونهما أيًا ما كانت هوياتهم.

[illegible] المرأة لاذت بالصمت وكأنما سمعت قسمه، لتصل جالسة في [illegible] تتشبث على قضبانه بقوة، وترمق الطريق المظلم من خلفهما تنتظر [illegible] يوسف أن يجد لأمثل لأن هو أن يتجاور هذه الحافة [illegible] بأي مكان من [illegible] في استجواب المرأة ليعرف منها ما يريد معرفته

[illegible] هي الوحيدة المتاحة أمامه الآن، وكل ما عليه الآن هو أن [illegible] بها كما التزمت المرأة بصمتها و.. و..

[illegible] فجأة ذلك الشيء المشتعل في العربة الخشبية، فلم يسمع [illegible] صفيره ومط العضلة.. فقط حدّق فيه ذاهلًا للحظة قبل أن تهمس [illegible] بحرف هذه المرة

- أحرمك بأنا سنسقط في أيديهم!

- !!!

* * *

ومن حينهما وعلى بعد عشرات الأمتار كان «مارسيل» يشد قوسه يستعد لإطلاق سهمه المشتعل الثاني

كان الأمير يسلم منه مهرة حصانه يحافظ على اتزانه على ضفة حصانه الذي يطلق كسهم غير مشتعل في قلب العاصفة، ويحكم سيطرته على العربة التي لم يستطع رؤيتها من الظلام والمسافة، لكنه حدس موقعها على الحافة وجذب نفسًا عميقًا سيطر به على توتره وغضبه.. وأطلق سهمه الذي انتهى به الأمر بجوار العربة التي يقودها يوسف هذه المرّة

وعلى الحصان المجاور له كان «لوران» يعدُّ له السهم المشتعل الثالث من دون أن يتبادل معه حرفًا واحدًا، وإن استبد به الغضب ذاته الذي كان يموج في أعماق «مارسيل».. إنه مثله يبغي الانتقام، ومثله لن تُطفئ نيران الغضب في روحه إلا دماءُ المرأة في القفص.

لهذا غمس السهم الثالث في الزيت وأشعله بالمشعل الذي نسه على صهوة حصانه، والذي أوشكت الأمطار المنهمرة على إطفائه، قبل أن يناوله إلى «مارسيل» الذي ألقم قوسه إياه.. جذبه بقوة.. أطلقه ليعترض هذه المرَّة بين ساقي المرأة في القفص، فدوي صراخها وسط العاصفة ليعلن لهما أنهما على الطريق الصحيح.

وأنهما يقتربان.

[illegible] كان «مارتوس» يتقدمهما وأضاءه البرق بنصف وجهه، وقد [illegible] لأمطار بوجنتيه الدموع التي سالت من عينيه بلا توقف والتي لم يكن [illegible] عنها سلطان.. إنه مثلهما يبغي الانتقام، لكنه كان يوقن أن انتقامه هذا [illegible] يعيد إليه «مارلا».. لا شيء في هذه الدنيا سيعيدها إليه، ولا أي انتقام [illegible] يحصل عليه سيسبب الألم الذي لن يزول محددًا، والذي يبحث عنه [illegible] ليلًا في وجوه من دون جدوى

«مارلا» التي كانت تنتظره أمام داره حين يعود إليها بعد كل معركة، [illegible] بسلامته بصفية قلبي كل الأهوال التي راها على مدى أشهر [illegible] بحثه المضنية

«مارلا» التي كانت تتحسس جراحه لتشفى على الفور ولينسى مع [illegible] الألم والحزن.. والموت الذي كان يقضي معه وقتًا أطول مما [illegible] معها.

«مارلا» التي كان يهمس في أذنها بكلمات حبه، ليتورد وجهها خجلًا [illegible] يهمس هي في أذنه ليحلق في سماء لا يحلق فيها سواه.

«مارلا» التي [illegible] آخر مرة مذبوحة وقد فقدت شعرها وأجزاء ضخمة [illegible] من جلدها وكل دمائها، من دون أن تفقد ولو ذرة واحدة من جمالها.

«مارلا» التي لن [illegible] والتي تركته في هذا العالم القاسي لمواجهته [illegible] وحيدًا كصقر فقد أنوثته وهو في أشد الحاجة إليها، والسبب في كل هذا [illegible] هذه المرأة في القفص.

نعم سيقتلها!

سيفتح [illegible] طريقه ممكنة، هي و[illegible] الذي يقود العربة يحاول

الهرب بها، لكن هذا لن يشفي غليله ولن يعيد إليه ما سيقضي ما تبقى له من عُمر يبحث عنه

سيقتلها لأنها تستحق، ولأن كل الغضب الذي يشعر به «فرسيوس» و«لوران» لا يوازي ذرة مما يشعر هو به.

سيقتلها.. وبعدها

لن تكون لحياته قيمة أو جدوى.

ومن حَلق «بارتوس» انطلقت صرخة طويلة ذابت في هدير العربة الذي ارتجت له السماء والأرض

* * *

ومع السهم المشتعل الرابع بدأت النيران تنتشر في العربة

ومعها اندلعت صرخات المرأة قبل أن تتحول إلى ضحكات هستيرية تقطر جنونًا، أصابت يوسف بالرعب أكثر من فكرة الاحتراق حيًّا أو السقوط في الهاوية.. وفي أعماقه أدرك أنه لو احترق أو سقط فسيموت فحسب، لكنه لو بقي مع هذه المرأة فسيكون في انتظاره مصير أسوأ بكثير، لكنه - ومع الأسف - لا يملك الخيار.

دائمًا ما يضعه الشيء في خيارين قاسيين، لكنه في هذه المرة لا يملكهما - أو أن وقتهما لم يحن بعد - وكل ما عليه فعله الآن هو أن يواصل طريقه، فعرارة الأسهم المشتعلة تؤكد أن مطارديه يقتربون أكثر فأكثر، وأن وقته في هذا العالم وهذا الزمن يتناقص وبسرعة ما لم يجد مخرجًا وبسرعة.. لكن..

أين هو هذا المخرج؟!

يصخور عن يمينه.. والهاوية عن يساره.. ومطاردوه وراءه.. الاتجاه الوحيد المتاح إذن هو الأمام، وهو اتجاه ينحني انحناءات حادة لن تسمح بها سرعته وهو يجر هذه العربة الثقيلة.. يمكنه بالطبع أن يقفز إلى أحد الأحصنة لينطلق أسرع تاركًا المرأة وراءه، لكن هذا يستلزم منه درجة من الجسارة لا يمتلكها مع الأسف، ثم إن قصته تعلق بها بصورة أو بأخرى، ومن ثم فلن يستطيع التخلي عنها.

أسهم مشتعلة جديدة تغرس في العربة، وضحكات المرأة تدوي مع كل غرس.. والأسوأ أن النيران تنتشر في العربة.

لحظات وسيتحول إلى «هليوس» يقود عربة الشمس، ما لم تنقذه لأقدر من الموت احتراقًا، أو لم تتوقف المرأة عن جنونها للحظة تساعده.. لهذا صرخ فيها:

- حاولي إطفاء النيران.

لكن المرأة لم تستجب له بالطبع، فقرر هو ترك الأحصنة تواصل طريقها ونوى خدعة ليحاول انتزاع أحد الأسهم المشتعلة من العربة، مجتهدًا للاحتفاظ باتزانه على العربة، وقد أخذت أصوات مطارديه تقترب، حاملة معها المزيد من الأسهم.

لو سمر الأمر بهذه الطريقة فقد يصيبه أحد الأسهم أو يصيب المرأة، وحتمًا ستنتهي المطاردة نهاية مؤسفة، إلا إذا أنقذه الشيء مما هو فيه.

إنه أمله الوحيد.

أن يتدخل الشيء بصورة ما لينقذه ويمنحه المزيد من الوقت في هذا العالم الذي لم تبدأ فيه لعبته بعد.. صحيح أن هذا يعني أن الأسوأ لم يأت، لكنه سيجنبه الموت ـ مؤقتًا ـ إلى أن يعرف أكثر.. إلى أن يحصل على جزء من الحقيقة كما تقول قواعد اللعبة.

انتزع السهم أخيرًا وألقى به بعيدًا لتنغرس ثلاثة أسهم جديدة بدلًا منه، فأدرك يوسف سذاجة ما يفعله، وعاد يعتدل في جلسته لتقبض على اللجام وقد قرر أن الحل الوحيد أمامه هو أن ينطلق بأقصى سرعة ممكنة، وليكن ما يكون.

بكثير من الحظ وبمعجزة ما قد يتجاوز الحافة إلى نهايتها، وحينها قد يصل إلى بر الأمان أو قد يجد الفرصة لمواجهة مطارديه، ولو نجح فيهما فسيستغل ما تبقى له من وقت في هذا الزمن في استجواب المرأة ليعرف منها كل شيء عنها وعمّا هو فيه

فقط عليه أن يسيطر على العربة وأن يمنعها من السقوط، وأن ينجو هذا المنحدر و

وحوار أدنه مباشرة حتى سهم مشتعل جديد انطلق من هذه المرة في صدر أحد الأحصنة، الذي أصدر صهيلًا شبه بشري أنهم حدة، قبل أن يسقط فجأة ليسقط معه رفيقاه، فتوقفت ضحكات المرأة على الفور وصرخت ليصرخ معها يوسف، قبل أن تنقلب بهما العربة فجأة.

وفي اللحظة التالية كانا يحلقان في السماء هابطين إلى الهاوية تحتهما

في صِغَره تعرَّض يوسف إلى حادث سيارة لم ينسَه قطُّ.

كان يوم عاديًا من أيام يوسف، وكانت عمته هي التي تقود السيارة عائدة به من جنازة والدته، وقد أخذت تردد:

ـ شهر واحد.. تموت أختي، ثم يمر شهر واحد فقط لتموت والدتك

ـ لا أريد أن أسمع شؤم!

فانسحب يوسف للأسفل حتى، وإن سالت دموعه على وجهه ساخنة بدلًا من باردة في برودة نسيرة أمام عمته فواصلت

ـ ولا أنصحك من نصيبي.. أين سأضعك؟ ومن أين سأطعمك؟ شؤم شؤم! أنت لا تحمل إلا الشؤم لمن يُبتَلى بك!

فوجه شد يزيد من سرعة السيارة وكأنما تفرغ توترها في دواسة البنزين، فجعل يوسف يحبس بحورها صامتًا يفرغ حزنه في دموع أخفاها عنها في حقيبته، في الخارج كانت الشوارع شبه خاوية، وكانت الريح تسابقهما بسرعة مخيفة بعض الشيء، فأغمض يوسف عينيه وتمنى أن تأتي بسرعة لتضربه

صاعقة من السماء ليلحق بوالديه.. سيكون هذا أفضل بكثير من أن يقضي ما تبقى له من عمر مع عمته التي تُردد كأنها تدندن بأغنية

- شؤم شؤم.. أنت شؤم

وهو كان يعرف أنه سيئ الحظ، لكنه لم يكن يعرف أن سوء حظه وشؤمه سيعدوان إلى قتل عمته

إذن لهذا مات والداه.. لأن سوء حظه أصابهما!

ومن ورائهما كانت تلك الشاحنة تقترب.

رأى يوسف في مرآة السيارة الجانبية وعرف على الفور ما سيحدث. لكنه لم يجرؤ على التصريح به.. فقط تركها تقترب بطيء وتدهسه بالمقعد الذي له عمته، ودفعها لأن تزيد من سرعتها أكثر بحثًا عن متنفس في الطريق لتفسحه له ولتتركه يتجاوزها بشاحته.

وهنا بدأ قلب يوسف الطفل يخفق في قوة.. إنه سوء حظه وقد بدأ العمل من جديد.. ستنقلب بهما السيارة في أي لحظة.. سيقتل وستصاب عمته مهشمة وسيصاب هو بعاهة مستديمة لو خرج من الحادث حيًا.. وسيكون هذا بسببه.

وفي المرآة أخذت الشاحنة تقترب أكثر.. نفيرها يتعالى، فأغمض يوسف عينيه بخوف هذه المرَّة وانتظر مصيره.

وكانت هذه هي المرَّة الأولى التي سمع فيها صوت سوء حظه في رأسه، إذ تعالى ليقول:

- بالطبع ستنقلب بكما السيارة.. لكنك ستنجو.. ستنجو لسوء حظك

صرخت يوسف الطفل بالصوت، وارتسم الذهول على وجهه، وهمَّ بالرد لولا أنه لم يجد الفرصة لذلك.

لم يجد الفرصة لأن سوء حظه لم يكذب عليه قطُّ، ولأن عمته رأت بأم عينيها تعبير الطريق فجأة، فانحرفت فجأة بمقودها بقدميه، فارتطم جانب السيارة بالجانب الأيمن، وارتدت عنه بقوة دارت بها السيارة حول نفسها قبل أن تنحرف إلى عتبة معدنية واقية لتهدأ أخيرًا في الطريق المقابل.

لم يستغرق هذا الحادث وقتًا، لكنه لم يتذكر أيًا منه في تفاصيله.. كل ما يذكره هو أنه كان يجلس في السيارة.. انقلبت السماء والأرض.. سمع صراخًا يأتي من بعيد.. ثم أظلمت الدنيا أمامه.

وحين استيقظ كان يرقد في فراش قذر في أحد المستشفيات الحكومية، تصاعدت آلام جسده.. وحين استعاد قدرته على النطق كان أول ما سأل عنه هو عمته، فتحت أنها لم تمت.. تنهدت أخت عطفها، لكنها ومضت بحزن وهي تقول إنها قد ابتعدت.

لكنها لم تبخ فحسب، بل تركت المستشفى كذلك، مُصرَّة على أن تكمل علاجها بعيدًا عنه وقد أخذت تردد في ذعر:

- شؤم شؤم.. إنه شؤم

وإلى يومنا هذا لم يلتق يوسف بعمته ثانية.

ولم يحاول.

* * *

تذكر يوسف ذلك الحدث في اللحظة التي حلّق فيها جسده في الهواء.

التفاصيل تشابهت والسماء احتلت مكان الأرض أمام عينيه، ثم فقد شعوره بالجاذبية الأرضية، قبل أن تتذكره هي، ليَهوي بسرعة لا تصدق، فحاول الصراخ من جديد، لكن النهر المظلم في نهاية الهاوية سبقه، ليجد يوسف نفسه يغوص أسفل أطنان من ماء مثلج ابتلعه رعشة تمهيدًا للغرق.

عظيم.. لقد كان يخشى الموت سقوطًا أو احتراقًا أو رميًا بالأسهم، وها هو الآن سيموت غرقًا!

المياه الباردة تجثم على صدره، والظلام يحيط به من كل صوب، وجسده يغوص إلى أعماق النهر بانتظام لن تُجدي معه أي مقاومة، لكنه لن يستسلم بهذه البساطة.. إنه لا يجيد السباحة، لكنه يعرف أن عليه أن يضرب الماء بذراعيه محاولًا الصعود إلى السطح حيث ينتظره الأكسجين ليملأ به صدره.. سمعها من أحد زملائه في المدرسة قديمًا.. أفضل طريقة لتعلم السباحة هي أن تلقي بنفسك في الماء لتحاول البقاء على سطحه، وها هو يوسف الآن يحاول تطبيق نصيحته مضطرًا، ليكتشف أن قدمه انحشرت بين قضبان القفص الذي كانت العربة تحمله.

حاول تحريرها بقوة لكنها لم تستجب له.. غاص إليها وقبض عليها بيديه محاولًا تحريرها من بين القضبان، لكن محاولته باءت بالفشل، ثم بدأ الظلام من حوله في التعاظم، فأدرك أنه نفض الأكسجين في جسده، وقد بدأ يؤتي مفعوله.. تذكر أن جسده هذه المرّة أقوى من جسده الأصلي بمراحل، فأمسك بالقضبان وأخذ يحاول توسيع المسافة بين القضيبين

بينما انحشرت قدمه بينهما، لكنهما لم يتزحزحا من مكانهما، ليدرك أنه وقت الاستسلام.

شؤم شؤمه به شؤم

وهذه المرة سيدفع ثمن شؤمه!

لكن يدًا أنثوية قبضت على شعره فجأة لتجذبه بقوة هائلة، لتتحرر قدمه فجأة وليشعر بجسده يصعد بسرعة، فترك نفسه تمامًا لصاحبة اليد إلى أن بلغ السطح، ليشهق بقوة محاولًا إدخال أكبر كمٍّ ممكن من الأكسجين في صدره.

وعلى ضوء القمر رأى منقذته، فكانت المرأة ذات الضفيرة المحنونة التي كانت داخل القفص، لكنها كانت تبتسم.

وحين تمالك يوسف نفسه أخيرًا قالت هي:

- والآن.. لنواصل الهرب.

* * *

وعلى الحافة وقف الرجال الثلاثة يرمقون النهر بحَيرة.

الثلاثة أو العربة وهي سقطت قبل أن تسقط هاوية إلى النهر، والثلاثة شعروا بأن ما حدث غير كافٍ.. لقد سقطت المرأة بالقفص لكن من يضمن أنها لم تلجأ لقوة أخرى؟ وكيف سيتحقق لهم انتقامهم إن لم يقتلوها بأيديهم؟

لهذا أشار «مارسيل» إلى النهر، وقال:

- يجب أن نهبط

- أتظن أنها تحت؟

- لن أعرف حتى أرى جثتها وأمرقها بيدي

- هيا بنا إذن

ثم بدأ الثلاثة رحلة هبوطهم إلى حيث ستستمر المطاردة

* * *

وحين بلغ يوسف الشاطئ أخيرًا ألقى بجسده الضخم على رمله وأخذ يلهث بعنف

لكن المرأة ركلته بقوة أمرة

- لا وقت للراحة.. إنهم قادمون.

فاعتدل يوسف وتحامل على نفسه ليقف أمامها مواجهًا بطريقها المجنونة، ليسأل:

- قبل أن نتحرك هناك شيء يجب أن أعرفه أولًا.. من أنتِ؟

فتراقصت ابتسامة وحشية على شفتي المرأة إذ أجابت:

- بالطبع أنت تعرفني أنا مولاتك «إليزابث».. «إليزابث باثوري»

* * *

وبالطبع كان يوسف يعرف «إليزابث باثوري».

يعرفها ويعرف كل شيء عنها مما قرأه عنها قبل أن يسقط إلى رمسه

بعد نفسه يقف أمامها على شاطئ سهر يرتجف بردًا وهلعًا، وكيف له لا يرتجف وهو يقف أمام من سمّاها التاريخ «كونتيسة الدم»؟

لقد عرفت بها سريعًا.. فأمامه وقت طويل، ولأن قصتها تستحق أن تحكى قبل أن نواصل حكاية يوسف.. وأول ما عليك معرفته هو أنها ولدت في المجر، وفي عام ١٦١٠ تحديدًا، أي أننا نبعد عن زمن «فلاد» ثلاثة وثلاثين سنة، وهو زمن يبعد عنه جغرافيًا كثيرًا

وقصة «إليزابث باثوري» كما تحكيها كتب التاريخ هي الهول ذاته

أول ما ستعرفه عنها هو أنها سليلة عائلة «باثوري» التي لم تنجب إلا ملوكًا وأمراء حكموا المجر وبولندا وترانسيلفانيا وامتلكوا مساحات شاسعة من أراضيها، وأن جدها الأكبر «ستيفان باثوري» كان أحد قادة جيوش «فلاد الوالاشي» شخصيًا ـ مصدقة؟ رسميًا.. وأن «إليزابث» ذاتها وُلدت هي عام ١٥٦٠ لتنشأ كما يجب للنبلاء أن ينشأوا.. حياة مرفهة في قصر والديها.. تعليم راقٍ أجادت معه أربع لغات بطلاقة مدهشة.. ورسم صورة على تعقيد وتنقيد المنكية، ثم سهي بها الأمر بزيجة هي أقرب إلى صفقة سياسية منها إلى كونها قصة حب.

زوجها كان «فرنسيس نادساتي» سليل عائلة «نادساتي» الشهيرة، وقائد جيوش المجر لاحقًا، وهدية زواجها كانت قصر «كيجتة» الذي بناه لها خصيصًا ليعيش فيه، بينما تركها هو ليواصل دراسته في فيينا، قبل أن تشغله الحرب ضد العثمانيين عنها طويلًا، لتعاني «إليزابث» الشيء الوحيد الذي يعانيه النبلاء في كل زمان ومكان.

الملل.

داء الملوك والأمراء في كل مكان وزمان.. ووحدهم من يعلمون أنهم لا يضطرون لمواجهة هذه اللعنة!

لكن «إليزابث» عانتها طويلًا وحاولت التغلب على مللها بالحفلات والزيارات ومتابعة أخبار الحرب الدائرة، من دون أن يفتح هذا كله ولو في التخفيف من حدة مللها الذي انضمت إليه الوحدة، وهي التي كانت لا ترى زوجها إلا أيامًا معدودة تفصل بينها أشهر طويلة تفصل الحرب الدائرة

ولقد كان «نادساي» يعرف مشكلتها فأراد مساعدتها بأن علمها طريقة الترفيه الوحيدة التي اكتشفها في الحرب.

للتعذيب.

الرجل كان يحب تعذيب أسراه حقًا، وكانت شهرته في ميدان المعركة تقارب شهرة الموت ذاته، وحين عاد إلى زوجته ووجدها تعاني الملل قرر الترفيه عنها بأن علمها ما كان يعرف باسم «ركلات النحو» الطريقة سهلة ويمكنك أن تجربها في المنزل ـ وإن كنت لا أنصح بهذا ـ وكل المطلوب منك هو أن تقيّد خادمة من ذراعيها إلى سقف إحدى الغرف تدس لفائف الأوراق المغموسة في الزيت بين أصابع قدميها.. تشعل هذه اللفائف لتبدأ الرقصة!

حين جرّبت «إليزابث» هذه الطريقة أول مرّة وحين بدأت الخادمة المسكينة في الصراخ وركل الهواء محاولة إسقاط لفائف الأوراق المشتعلة، أشار إليها «نادساي» قائلًا:

ـ هكذا يبدأ الركل.. ولفرط الألم سترى النجوم.

ولم تكن «نادساي» يعرف سببها أن تسميته «الريئة» لزوجته ستكون بداية لكل الأهوال المقبلة.

و«إليزابث» التي عادت إلى وحدتها ومللها بعد أن تركها زوجها لمواصلة حربه، كررت التجربة مرات ومرات حتى سئمتها، وحتى قررت البحث عن اختراع طرق «تسلية» أخرى، أشد قسوة وأكثر ابتكارًا ولن أشرح لك كل الطرق الجديدة التي ابتكرتها «إليزابث» هنا، لكني سأكتفي بذكر أن الكثير من الخادمات دفعن ثمن هذه الابتكارات عذابًا، ومن أجسادهن ومن دمائهن لاحقًا.

في البدء كان التعذيب محاولة لطرد الملل ثم تحوّل إلى هواية ثم تحوّل إلى هوس حقيقي وقصص أقرب إلى الأساطير يرددها الجميع من دون أن يجرؤوا على تصديقها.

ثم بدأت الخادمات في التساقط واحدة تلو الأخرى، لتكتشف «إليزابث» أن مخزونها من الخادمات يوشك على النفاد، وأنها في حاجة إلى المزيد.. هكذا أرسلت طالبةً المزيد منهن، عارضة ما كان يكفي لإغراء الفتيات الصغيرات والذين كانوا يبيعون فتياتهم بيعًا إلى قصرها، سمعن قصر «إليزابث» بالخادمات من جديد، ولتبدأ مرحلة جديدة من التعذيب بعد أن اكتشفت أنها ـ على الرغم من كل الشائعات التي تحدث عنها ـ تملك سيطرة مطلقة لن يجرؤ أحد معها على معارضتها أو محاسبتها.

ولأنها كانت تتمتع بالقسوة الكافية، أحدثت «إليزابث» في تحويل

هوايتها إلى طريقة لعقاب من يخالف أوامرها، ثم إلى طريقة لشغل وقت فراغها لا أكثر، ومع الوقت بدأت الخادمات في الاختفاء في قصرها، فلم يجرؤ أحد على الاستفسار.

ثم مرت السنوات على «إليزابث» لتجد أن الشيخوخة تشق طريقها إلى وجهها وسحرها.

«إليزابث» التي كانت مفتونة بجمالها، والتي كانت تملأ قصرها بالمرايا لتستمتع بوجهها في كل نقطة تنظر إليه، وجدت أن الشيب وجد طريقه إلى شعرها، وأن التجاعيد عرفت طريق ملامحها.. ومع الوقت أدركت أن جمالها سيذوي وأنها تتحول ببطء.. ولكن بثبات.. إلى امرأة عجوز، فقررت أن على أحدهم أن يدفع الثمن، وفورًا.. من الخادمات بالطبع!

هكذا أصبح تعذيب الخادمات.. وأغلبهن من المراهقات.. عذابًا على ذات لم تعرفه.. وهكذا اتجهت «إليزابث» لتتحول إلى السحر تبحث فيه عن طريقة للخلود والحفاظ على جمالها، ليدلها أحدهم على طريقة الحفاظ على شبابها باستخدام دماء العذراوات.

هنا يتحرج التاريخ ذاته عن ذكر الأهوال التي حدثت في قصر «إليزابث باثوري»، لكنه يعلن وبصراحة أنها لم تتردد وسعت للحصول على دماء خادماتها بأبشع الطرق الممكنة.. الطريقة الوحيدة المتفق عليها أنها كانت تهوى تعليق الخادمات فوق حوض استحمامها، لتذبحهن وتغتسل في دمائهن طلبًا للصحة والنضارة!

ومع توقف تحول قصرها إلى ما يشبه «مشتل» لمورد الخادمات

العذراوات.. كلهن كن يذهبن إلى قصر «إليزابث».. ثم كان الاختفاء هو مصيرهن.

وحدث فقط بعض من [illegible] كانت «إليزابث» تركتها، لتخرج من قصرها وتملأ الدنيا صراخًا قبل أن يجتمع حولها أهل المدينة يساعدونها على [illegible] تحكي فيها كل ما رأته على يد الكونتيسة الجميلة [illegible] يصدقونها في بداية الأمر، لكنهم اقتحموا قصر «إليزابث» ليجدوا جثث كل من [illegible] في انتظارهم، وفي أسوأ حال ممكنة

كل الجثث كانت قد فقدت دماءها.. بعضها كانت تحمل آثار تعذيب يفوق قدرتك على التخيُّل.. وبعض الجثث كانت قد فقدت أجزاء كاملة من لحمها بعد أن التهمتها «إليزابث».. كم جثة عثروا عليها؟ ما يقارب ستمائة جثة!

لينتهي تحولت كل القصص والأساطير التي كانت تتردد إلى حقيقة دامغة [illegible]، وينتهي أمر «إليزابث» من قصة لأهالي غاضبين سحبًا إلى النبلاء الذين قرروا القبض عليها في محاولة منهم لاحتواء الغضب الذي شبَّ في المجر حتى أوشك على التهامها.. وما حدث بعدها كان مرعبًا إلى حد ما.

محاكمة صورية أعلن فيها حكم الإعدام على كل مساعدي «إليزابث»، أما هي فحُكم عليها بالسجن في غرفة في أحد قصورها كنوع من العقاب على كل جرائمها التي ارتكبتها.. لتصبح لم يكن سجنها هذا سجنًا بالمعنى المفهوم.. لأن النبلاء والأمراء لا يُسجنون ولا يُحاكمون ولا تعرف العدالة إليهم طريقًا.

هكذا انتهت قصة «إليزابث» في التاريخ، لكن قصتنا نحن لم تنته بعد

نحن الآن في الليلة التي ستُنقل فيها «إليزابث» إلى قصرها حيث ستقضي ما تبقى لها من عُمر.. هذا إن بلغته.

وإن نحا يوسف!

* * *

وقد عرف يوسف كل هذا، ولهذا ارتجف.

لقد فهم الآن الموقف كله وأدرك ـ متأخرًا ـ أنه الشيء وضعه في أسوأ موقف ممكن كالمعتاد: إنه المسؤول عن حماية لملكه «إليزابث باثوري» ونقلها.

هذا هو دوره في هذا الفصل من لعبة الشيء، والمطلوب منه الآن هو أن ينجو بها من مطارديهما.. مَنْ هم؟ ربما هم من رعايا وقد أراد تطبيق العدالة بأنفسهم، وربما هم أهالي الفتيات اللاتي اغتسلت «إليزابث» في دمائهن ويريدون القصاص، وربما هم من رجال المملكة ويريدون التخلص منها من دون محاكمة أو ضوضاء.. لا يهم.. المهم الآن أنه أصبح طريدًا معها وأنه أمام خيارين كما هي العادة في فصول لعبة الشيء: أن يترك «إليزابث باثوري» وينجو بنفسه.. وإما أن يساعدها على الهرب.

لكن السؤال الآن: ما علاقة الشيء بكل هذا؟

وكأنما قرأت هي السؤال في عينه، فأجابت

ـ لو قتلوني فسيحصل هو على جسدي.

ـ هو؟!

ـ الشيء.. أنت تعرف ما أقصده.. لقد أخبرني بأنك ستفهم.. لقد نفذت طقوس استدعائه وكنت أظنها ستمنحني الخلود من دون أن أعرف أنها ستمنحه جسدي.. وهو الآن ينتظر أن أهلك ليحصل عليه.. وحينها سيواصل هو وجوده عبري، وستخسر أنت.

ففهم يوسف الموقف كاملًا.. لقد سقطت «إليزابث» ضحية الخدعة نفسها التي سقط فيها «فلاد».. خدعة الخلود.

الحمقاء فعلت كل شيء لتحيا إلى الأبد، لينتهي بها الأمر تواجه [illegible] معه إما على يدي الشيء وإما على أيدي مطارديها، ولو تركها [illegible] شيء فسيخسر حتمًا.. وحينها سيواصل الشيء وجوده عبر الأزمنة إلى [illegible] سيغ زمنه ليبدأ الشيء لعبته معه.

[illegible] سنصير عليه في هذا الزمن فمن يدري؟ ربما انتهى الأمر بالشيء [illegible] هذا الزمن، ينجو هو من مأساته

والخيار أمامه الآن واضح ومرير ككل مرَّة: إما أن يُنقذ من قتلت حتى، وإما أن يتركها للشيء ليقتل هو الآلاف قبل أن يبلغه.

صحيح أن إغراء قتلها لا يقاوَم، لكنه كان قد اتخذ قراره ليسأل:

ـ كيف سنواصل طريقنا من دون عربة أو أحصنة؟

فأجابته هي بلهجتها الملكية الآمرة:

ـ [illegible] سنسير على قدمي [illegible] لا يوجد أمامك سوى حلٌّ واحد.

[illegible] صلاة ندي حتى تصفه أخرى من شهر، مردفة

ـ يجب أن تحصل على أحصنة مطاردينا.. ولتفعلها عليك أن تو حيمه

وابتسمت قبل أن تختم عبارتها:

ـ وأن تقتلهم.

وكانت هذه هي بداية أطول ليلة في حياة يوسف على الإطلاق

وفي هذه اللحظة كان «أوريوس» يقف عند ضفة النهر يرمق ما تفعله

بصره على سطح النهر بعيني لا تصدقان

كانت دموعه قد جفّت وإن لم ينقص غضبه بمقدار ذرة، حين انضم

«أورتوس» و«أورانوس»، ليبدل لثلاثة بقرة صامته سريعة، قبل أن يشير

«أورتوس» إلى النهر، ليقول:

ـ لقد نحت.

لم يبقَ لهم يحتج لتصريحه، فلم يجادله رفقاه وقد شعروا بما يشعر

به ذاته على الرغم من المشهد أمامهما.

«البيرنث» نحت

عرشها تستقر الآن في أعماق النهر الذي تتدفق أمواجه لأن بقياها،

لكنهم كانوا يشعرون بأنها لا تزال هنا.. هنا في عالم الأحياء ترسل نظراتها

المحزونة إلى الوجود من حولها، وتُذكي نيران الانتقام في أعماقهم

لا توقف.. إنها هنا وهذا لا يعني إلا أن عليهم البحث عنها و..

فتلهم

كان المقصف يقترح عليهم أنه من الأفضل الانتظار حتى الصباح لبدء رحلة البحث عنها، حيث ستكون العاصفة قد توقفت وسترسل إليهم الشمس ما يلزمهم من الضوء والدفء ما يعينهم على مهمتهم. لكن «بارتوس» تحدى المنطق، معلنًا:

ـ سنعبر النهر

فلم يلق معارضة، وإن لاح التساؤل في عيني «مارسيل» و«لوران» كيف سنعبر هذا النهر الهائج في مثل هذه العاصفة؟ فلم ينتظر «بارتوس» إلى أن تتحول نظراتهما إلى سؤال منطوق، بل اتجه إلى حافة النهر ليحاول أن يخترق الظلام بعينيه إلى الضفة الأخرى في محاولة لتقدير المسافة التي ستقصيهم في أعماقه قبل أن ينتصب إليهم ليكرر

ـ سنعبر النهر

ومن دون أن ينتظر موافقتهما خطا إلى الماء المثلج ـ والذي لم يكن أحصنتهم لتقوى على الاقتراب منه ـ فتبادل «لوران» و«مارسيل» نظرة أخيرة قبل أن يتبعاه صاغرين.. الرجل يفوقهما عمرًا بسنوات لا بأس بها، ولو كان قادرًا على فعلها فلن يعجزاهما

وها هي الأحظات معدوده حتى كانوا قد فقدوا شعورهم بالأرض من أسفلهم ليصبحوا تحت رحمة الأمواج المتسرعة، لكنهم لم يتوقفوا لبرهة بل إنهم لم يشعروا ببرودة الماء حتى بلغ عمقه كتفيه بتدفقهم. وارتسم في رؤية «البرابث» ممزقة تأييدهم لمحاولته

وقوته لا حد لها، فو صعوا طريقهم بسرعة لا بأس بها إلى أن بلغوا الضفة الأخرى من النهر، ليقفوا هناك بأجساد باردة وقلوب تلتهب.

وعلى الرغم من عزارة الأمطار فوق عيني «بارتوس» الحيرتين التقطتا الأرض الناضبة على مقربة منهم، فأشار إليه وقال

ـ لقد نجت.. وأخذت حارسها معها.

وهي مهارة لم يمتلك «مارسيل» ولا «لوران» القدر الكافي منها، لكنهما كانا يدركان جيدًا أنه حين يتعلق الأمر بمقصي الأثر فلا مجال لـ«بارتوس» في هذا المضمار.. ما دام قال إنها قد نجت وأخذت حارسها معها، فهي قد نجت وأخذت حارسها معها.

وهذا يعني إذن أنهم سيواجهونه معها.

هذه النقطة تحديدًا دفعتهما إلى الابتسام، فالحقيقة الآن واضحة كالشمس أمامهم ثلاثة رجال أشداء في مواجهة حارس وحيد مذعور وامرأة استبدت بها الجنون، فمَن الرابح في هذه المواجهة؟ لكن «بارتوس» محا ابتسامة الثقة على شفتيهما، فصاح منذرًا:

ـ إنها أخطر مما تتخيلان.. هي وحدها كفيلة بنا.

وهذه المرة لم يشعر بموافقتهما على قوله، بل قرأ وبوضوح ملامح الاستنكار على وجهيهما، لكنه لم يرد على قوله شيئًا، إذ لا يحتاج إلى تأكيد، لكنه يحتاج إلى حذرهما، فهو أكثر منهما دراية بقدرات «البرابث» فعله

رد في روحته «مارلا»

زه وس يمتلكه ما تبقى له من عمر لقد

- ولكن .. إلى أين؟

فقد "نوران" بحيرة ردت من انسكاره، فأتته الإجابة من اسمه في صورة برق سطع لبضعة لحظات كانت كافية ليضيء لهم الأطلال القريبة من سهل، فأشار "درتوس" إليها، وقال

- هناك .. سنجدهم هناك

وهذه المرة أيضًا لم يكن "درتوس" مخطئًا

* * *

وكانت هذه الأطلال هي أغرب شيء رآه يوسف في حياته

لا.. لم ير يوسف عشرات الأطلال على مدى حياته ليميز الغريب منها من الطبيعي، لكنك حين ترى حشرة خضراء تصدر ضوءًا أزرق وتصدر هسيسًا كالأفاعي، لن تحتاج لأن تكون خبيرًا في علم الحشرات لتعلن أنها حشرة غريبة.. بالمنطق ذاته كانت أطلال المدينة التي وجد فيها يوسف نفسه غريبًا.

لم تكن حصراء تشع بضوء أزرق، ولم تكن تصدر هسيسًا، لكنها كانت تبدو كأنها خرجت من باطن الأرض للتو، وقد عصف بها وحدور الأشجار التي نبتت من جدرانها، وبنى نسوج حول نفسها محاولة الانتصاب بأوضاع عجيبة، وقد انتشرت بقعها في ثغرات صخور الجدران كأنها سرطان انتشر في جسد مريض.. وكانت الأعشاب ذات جافة لا أثر فيها للون الأخضر وقد تغطت هي الأخرى بالطين ذاته الذي كسا الجدران، والذي لم تستطع الأمطار المنهمرة إزالته عنها بعد .. ومن مزيج الصخور والأشجار هذا كانت هناك العشرات من القطع البيضاء

منتشرة في كل صوب، فلم يجتح يوسف إلى حيرة في عدم التشريح يعرف أنها عصفت بأهلها، وأنها تعود إلى سكان هذه الأطلال، والذين يبدو أنهم دُفنوا مع مدينتهم في زمن بعيد قبل أن يخرجوا معها من باطن الأرض يستنتج ذلك من حنين عشب منه لانضمام إليهم

ويتسرب من الرهبة والامتعاض وقف يوسف يرمق المشهد أمامه وقد امتلأ ذهنه بعشرات الأسئلة التي تحتاج من هذه الأطلال مستقرًا له، قبل أن يدوي هزيم رعد ليستفز رعشة عنه، ويتصحح "إلبرانث" ساحرة قبل أن تقول

- أتخشى الموت؟

فالتفت إليها يوسف معترضًا وإن عجز عن الرد.

- لا يطمع هو يخشى الموت .. أنى عاقل يخشى الموت، وعلى استعداد لفعل أي شيء ممكن لاجتنابه، فما بالك وهو الآن يقدم على أطلال أشبه بمقبرة خرجت من باطن الأرض خصيصًا لتضمه إلى داخلها" مقبرة بدت كأنها بوجه الشاربه رسمتها فرشاة محزون .. مقبرة أشارت إليها "إلبرانث" بسطة وكأنها حديقة غنّاء، لتقول:

- سنختبئ هنا.. هم سيلحقون بنا بعد قليل لكنك ستستعد لمواجهتهم. وستقتلهم.

وكان هذا يختصر الموقف أمامه تمامًا.

سيدخل هذه الأطلال برفقة الحُرة .. سيحتمي مع هذه الشطآنة فيها سيضر من يضر دونهما حتى يفترسوا بعد فيه الكفاية لتنقض عليهم وتقتلهم أو يقتلوه.

ـ ما الذي تنتظره؟

قالتها «إليزابث» ثم خطت إلى داخل لوحة الموت المتجسدة أمامهما، فتردد يوسف للحظة قبل أن يتبعها صاغرًا من دون أن ينبس ببنت شفة نعم.. لقد لخصت له الموقف جيدًا، لكنه في أعماقه أدرك الحقيقة كاملة حقيقة أنه لن يخرج من هذه الأطلال حيًا.

* * *

لكنها كانت أطلال مدينة لا مجرد مقبرة جماعية

أدرك يوسف هذه الحقيقة حين خطت خطواته الأولى داخلها. بشعر كأنما ابتلعته بغتة بمساحتها الشاسعة وحدتها التي احتلت محل أصوات العصور للأشجار التي اخترقتها تترديها فتبدو متهدمة على الأرض أسفلها مدينة يسهل أن تضل فيها طريقك لو كنت في حالتها الطبيعية، فما بالك وهي أنقاض متشابكة تتلوى بينها طرق لا تعرف إلى أين ستقودك وكأنها متاهة لا خروج منها إلى يوم الدين؟! فما بالك لو وجدت نفسك فيها مطاردًا من عاصفة لا ترحم ورجال يعزمون على قتلك لا لشيء إلا لأنك سيئ الحظ بما يكفي لتجد نفسك الحارس الشخصي لـ«إليزابث باثوري»!!

مدينة يبدو أنها ستكون مسرحًا للأحداث الأخيرة في هذه الليلة التي لا تريد أن تنتهي.

وفي عين خياله رأى يوسف المدينة قبل أن تتحول إلى أطلال كما تضربها الأمطار وتنخر في جدرانها جذور الأشجار وأغصانها.. رأى مدينة أسطورية ترقد أسفل شمس دافئة مرحبة، وسكانها يحوبون شوارعها وابتسامات بلهاء تتراقص على وجوه الجميع.. رأى المنازل والشوارع

بحساء الشهي تنبعث من نوافذها، ورأى السوق والباعة يقفون فيها يدون على بضائعهم التي تناثرت بقاياها الآن بجوار عظامهم.. رأى لأصص يبهون في الطرقات، ورأى الأشجار في أماكنها الطبيعية على جانبي طرقات صخرية شبه ممهدة تسير عليها عربات تجرها الأحصنة حتى الخير للجميع.. ثم رأى في عين خياله الأرض وهي تبتلع المدينة بمن فيها قبل أن تلفظها أطلالًا باردة يسكنها الظلام والموت.

ـ ما الذي حدث هنا؟

قالها وقد توقف فجأة، فالتفتت إليه «إليزابث» وأجابت:

ـ الموت زار المدينة.

وهي إجابة فسيفه تليق بالموقف حقًا.. الموت زار المدينة ورحل تاركًا أثره في كل مكان.. كيف؟ لماذا؟ لن يعرف أبدًا! فقط واصلت هي

ـ سيصلون في أي لحظة.. يجب أن تستعد.

توقف يوسف عن تأملاته وتذكر مطاردهم بأسلحتهم المشتعلة ورغبتهم الصريحة في قتلهما.. وتذكر أن عليه أن يقتلهم أولًا.. تذكر فسرت تلك الرعدة في جسده وقد أخذ سؤال منطقي يتصاعد في رأسه مزيحًا لنفسه مكانًا وسط كل الأسئلة هناك: كيف سيواجههم؟

إنه بلا سلاح، فسيفه الذي كان يتدلى من حزامه حين بلغ هذا الزمن سقط في النهر.. وحتى لو كان معه فهو لن يجيد استخدامه.. بل إنه لا يملك أي مهارات قتالية من الأساس.. فما الذي سيفعله؟

صحيح أن جسده في هذا الزمن ضخم يصلح لتلقي اللكمات

والركلات، لكن من قال إن مطارديهما سيواجهونه بأيدٍ عارية؟ ماذا لو استخدموا سيوفهم؟ ماذا لو أطلقوا عليه أسهمهم ليردوه قتيلًا قبل أن يجد الفرصة حتى ليرى وجه واحد منهم؟ ماذا لو تكالبوا عليه ومزقوه إربًا أمام عيني «إليزابث» التي لن يهتز لها طرف، بل ربما وقفت تتابع ما سيحدث به باستمتاع مرسمة ضحكتها المجنونة إلى جدران الأطلال التي ستضمه إلى موتاها؟

إنها مجنونة.. يجب أن يبتعد

يجب أن يظل حيًّا بعيدًا عنهم.. يجب أن يضع نهاية للشيء في هذا اليوم، أو سيأخذ قطعته من الحقيقة على أسوأ تقدير.. فقد تمزق قطعة من جسده والأهم.. يجب أن تنجو «إليزابث»!

مرَّة أخرى القرارات الفورية هي الوحيدة المتاحة، ومرة أخرى وجد يوسف نفسه يسيطر على حيرته وتردده، ليقول:

- سنختبئ إلى أن يصلوا.. بعدها سنحاول تفريقهم ومواجهتهم واحدًا تلو الآخر.. هذا هو الحل الوحيد.

- وكيف ستواجههم من دون سلاح؟

قالتها هي فجال يوسف بعينيه بين الأنقاض باحثًا عن شيء ما يصلح كسلاح، لا أن يستخدم نفسه لأدميه فهو لن يصيب منهم ولن تنفعه هي في مواجهة سيف في يدَي متمرس.. لا توجد قوائم معدنية، وبقايا الأخشاب المتناثرة لن تصلح كسلاح مؤذٍ، لكنها تصلح لشيء آخر.. لشيء يحتاج إلى إحدى الأشجار التي تنبت بين الجدران، و«ستخدم قوة جسده الجديد ليقتلع غصنًا ما.. أنه سيصمد إلى حين، قبل أن يصل إلى «إليزابث» يقول

- سأواجههم بهذا.

وتبسمت هي بسخرية ولم تُجب.. فقط قرأ يوسف في عينيها أنه هالك لا محالة، لكنه تجاهل هذه الحقيقة مؤقتًا وحث الخطى مشيرًا إليها بأن تتبعه.

وسعيه بحثًا عن قطعة خشب وقد أحدث ترميق المشهد حوله في تألق من وجدت نفسها في مكان لا يليق بمكانتها.. وأمامها أخذ يوسف يتحرك بسرعة محاولًا استغلال المزية الوحيدة التي يملكها في هذا الموقف.. هذه الأطلال شاسعة حقًّا.. أطلال تصلح للاختباء والتخفي على قيد الحياة بل أن تتوقف الخصلة على الأقل.. وربما إلى أن يأتي الصباح، وحينها سيختفي الموقف قتيلًا.. حينها - وعلى الأقل - سيتمكن من الرؤية بوضوح أمامه، ليقرر إلى أي اتجاه سينطلق.

لو تحققت أمنيته فسيحيا حتى الصباح، وحينها سيدور حول الأطلال و«إليزابث» معه، إلى أن يحرجا منها ليعودا إلى أحضان مطارديهما، وحينها سيأخذانها من دون مواجهة مباشرة وسيحيا بقيته وبها من هذا المأزق، بكل

أتتحقق أمنياته في هذا الزمن؟

سؤال لن تتأخر إجابته كما سترى بنفسك بعد قليل.. فالآن وفي هذه اللحظة تحديدًا كان «أرتوس» ورفيقه يدخلون الأطلال شاهرين سيوفهم وقد استعدوا للمواجهة التي لن يطول انتظارها.

* * *

وكان «بارتوس» قد زار هذه الأطلال سابقًا في طريقه إلى إحدى المعارك التي خاضها

زارها ويألفها ويعرف مداخلها ومخارجها ويعرف أنها تمتلئ بكل مكان ومكان يصلح للاختباء، فالترقب، فالهجوم المفاجئ عليه وعلى من معه. لهذا توقف والتفت إلى «لوران» و«مارسيل»، وقال

ـ سنتفرق هنا.

فلم يملك «مارسيل» نفسه هذه المرّة، ليعترض:

ـ لماذا؟

ـ لأن الأطلال شاسعة كما ترى، ولن نجد الوقت الكافي لنبحث فيها معًا قبل أن يحلّ الصباح، وحينها قد يكونان هربا إلى حيث لن نلحق بهما

ـ وماذا لو عثر أحدنا عليهما؟

ـ حينها ستبدأ المعركة وسيجذب صوتها الجميع إليها. لكن خذا الحذر وحاولا ألا تُصدرا أي صوت، فهما قد يكونان في انتظارنا وراء أي حجر أو في ظلام أي جُحر.. خطأ واحد ولن نجد الفرصة لتصحيحه

قالها «بارتوس» ثم أشار بسيفه إلى جهة، وبذراعه الحرة إلى جهة أخرى، مواصلًا

ـ ستنطلق يا «مارسيل» في هذا الاتجاه. وأنت يا «لوران» انطلق في هذا الاتجاه. وتذكّرا جيدًا، إنها فرصتنا الوحيدة للقضاء عليهما فلو بلغت قصرها فلن نتمكن من الوصول إليها أبدًا.

ومن دون أن ينتظر منهما ردًا حشر درعه وانطلق في اتجاه ثالث بخطوات حذرة تكتسب العضلة بالتعطية على صوتها، فانتظر «لوران» حتى ابتعد بما فيه الكفاية، ليلتفت إلى «مارسيل» متسائلًا

ـ أتظن أننا سنعثر عليهما؟

فأجابه «مارسيل» بحماس لم يشعر به

ـ سنعثر عليهما وسنقتلهما. لن نخرج من هنا إلا بعد أن نقتلهما

فأومأ «لوران» على قوله بهز رأسه قبل أن ينطلق كل منهما في اتجاهه بالخطوات الحذرة ذاتها، وإن حافظ «مارسيل» على عدم اقتناعه بقرار «بارتوس» في أعماقه.. لو كانت «إليزابث» خطرة كما يزعم، ولو كان خطرها معهما ـ ومعاً ـ صالحًا لنفسه ـ فالمنطقي هو أن الأفضل أن يواجههما مجتمعين.. لو واجههما بمفرده فستتضاءل فرصته في النجاة، وربما تغلبا عليه قبل أن يبلغه «بارتوس» و«لوران»، وحينها سيتحول الموقف إلى اثنين في مواجهة اثنين، وسينهدئ هو قبل أن يصفر سقامه

وهو هنا لينتقم.

هو هنا لأنه رأى ما حدث لأخته الصغرى، والذي لم يختلف كثيرًا عما حدث لـ«مارلا» زوجة «بارتوس». فقد كانت أخته أكثر حظًا من «إليزابث» كفت بذبحها وإسالة دمائها في حوض لتغتسل بها.. و.. لن.. لن يسمح نفسه بتخيل ما حدث بعدها فهو يحتاج إلى تركيزه كاملًا.

يكفيه أنه رأى وجه أخته حين عثروا على جثتها ويكفيه أن يعرف أنها لم تتألم طويلًا.

لكن «إليزابث» ستألم.

هذا ما وعد به أخته حين وقف أمام قبرها قبل أن ينضم إلى «بارتوس» و«لوران» لينفذوا ما اتفقوا عليه.. لقد أخبرهما «بارتوس» بأن «بيرنث» لن تُعدم، فالملوك لا يُعدمون ولا يدفعون ثمن جرائمهم، لكنهم سيتركونها تبلغ قصرها الذي ستسجن فيه كملكة.

سيعترضون طريقها وسيحصلون على انتقامهم منها كاملًا، وليد هو هنا الآن.

ليعثر عليها وليقتلها بأبطأ الوسائل الممكنة وأكثرها إيلامًا. ولا أحد حارسها الأحمق أن ينقذها منه فسيقتله هو الآخر من دون ذرة تردد أو شفقة.. سيقتله وبعدها سيذبحها وسيستحم في دمائها تمامًا كما فعلت مع أخته التي روت له يومًا ما يحدث في قصر «إليزابث» فلم يُصدقها.

ويا ليته صدقها!

* * *

أما «لوران» فكان موقفه مختلفًا عن «بارتوس» و«مارميل»، لكن غضبه لم يقل عن غضبهما إن لم يزد.

«لوران» لم يفقد زوجته أو أخته الصغرى، لكنه كان هناك في قصر «إليزابث» يحرسه رغم أنفه، ويشهد الجرائم التي ارتكبت فيه من دون أن يجرؤ على الرفض أو الاعتراض.. ومن الذي كان يجرؤ على الاعتراض؟

بل إنه كان يعتبر نفسه محظوظًا.. ففي الوقت الذي كان من في مثل عمره يقتادون إلى الحرب مع العثمانيين فلا يعودون منها إلا قتلى أو وقد فقدوا بعضًا من أطرافهم، اختاروه هو ليكون حارسًا في قصر

«بيرنث الثوري»، فرقص يومها طربًا وشكر السماء التي اختارته لهذه المهمة قبل أن ينطلق إلى القصر حيث كان يتوقع أن تنتظره أسعد أيامه.

ما كان يظنه حينها أنه سيعمل حارسًا في قصر لا تسكنه إلا ملكة وحيدة تحيط نفسها بمئات الخادمات الجميلات، وعدد قليل من الحراس الرجال.. والمنطق الذكوري هنا يقول: مكان مغلق.. عدد محدود من الرجال.. سيطرت إليزابث تلاي لا يخرجن من القصر إلا بإذنها فما الذي تتوقع حدوثه، خصوصًا وكانت تلك محبّبة «لوران» الذي لم يبحر سنوات المراهقة إلا بعام أو عامين؟

لكن الواقع الذي كان سيطر «لوران» كان هو القفص الذي لم تحبه يومًا. وكانت هذه الحقيقة هي أول شيء تعلمه حين بدأ عمله في القصر، وتحديدًا أنه ممنوع منعًا باتًا من التقرب بحرف واحد مع أي خادمة تعمل فيه، ومهما كان السبب.. إنها القاعدة الصارمة التي وضعتها «إليزابث»، والتي سيقوم بها الجميع هنا، وإلا فالموت هو جزاء مَن يخالفها.

غير مسموح بالحديث مع الخادمات.. غير مسموح بالنظر إليهن.. غير مسموح بالتعامل المباشر أو التعامل غير المباشر معهن.

وغير مسموح لأحد مهما كان السبب أن يتساءل عن سرّ اختفائهن واحدة تلو الأخرى!

وكانت هذه النقطة الأخيرة هي أكثر ما أثار انتباهه وفضوله وشغل تفكيره طويلًا.

أين تختفي الخادمات؟

لأمر ما مع تلك الشقراء التي بدأت عملها في القصر بعد أن أتى هو به

نايم، والتي كانت تبدو كزهرة عباد شمس تستحق أن توضع في إناء بيتأنيق روار القصر بإعجاب، لكنها كانت - على الرغم من جمالها - مجرد خادمة أنت لتلبي أوامر «إليزابث» التي تورعها على الجميع بلا توقف. خادمة زهر «لورا» وأدرك أنها ستكون أنسب في طرده من القصر إن لم يعدموه حر له على محادثته لأمر بعدم الحديث مع الخادمات هذا لكنها كانت تستحق

راها «لورا» أول مرّة في حديقة القصر. كانت تجمع الأزهار، وقد وقفت منها تتأمل جمالها وعبيرها، فاندفعت الدماء الحارة في عر وهمّ بترك موقعه قرب بوابة القصر لينحاها إليها ويسألها عن اسمها، لكن نظرة تحذير من عيني قائد الحرس أجبرته على التراجع. نظرة هي أقرب إلى التوسل، فقائد الحرس رأى بنفسه ما الذي يحدث لمن يخالف الأوامر، ولن يتحمل رؤيته ثانية

هكذا لزم «لورا» موقعه في هذه المرة، وإن أصمر شيئًا في نفسه سيحاول أن يلتقي بتلك الخادمة سرًّا وبعيدًا عن أعين الجميع. سيحاول وسينجح وسيكون له ما إن يخرج من هنا. لكن ليس الآن

بماذا سيفيد هذا وتلك العذبة ستظل هنا دائم المحلة؟

قراره هذا اختفى من حياته مؤقتًا وإن ظلّ مكانه يرمقها بانبهار. ثم تحد هي الفرصة لتشعر به، إذ أطلّت «إليزابث» يومها من نافذة غرفتها لتر هناك وسط الأزهار، فتحول انبهار «لورا» إلى توتر لا مبرر له حين رأى تلك النظرة في عيني «بيرانث» إذ أحدث برمق الخادمة الشقراء في ثبات مخيف

وفي عيني «بيرانث» رأى «لورا» الحيرة والصحة وصوح الشمس نعم. بها ملكة هذا القصر لكنها امرأة رأت من هي أجمل منها تقف

وسط الأزهار كأنها جزء من لوحة جميلة لا يمكن لـ«إليزابث» فيها.. امرأة جرؤت على استعراض جمالها في قصرها، ويجب عليها أن تدفع الثمن!

يومها تعمقت عين «لورا» بـ«إليزابث» التي وقفت طويلًا في نافذة غرفتها ترمق خادمتها الشقراء التي لم تشعر بها، قبل أن تعب «إليزابث» داخل غرفتها كشبح ابتلعه الظلام، وقبل أن يخرج من القصر من أتى يستدعي الخادمة الشقراء إليها، فأخذ توتر «لورا» في التحول إلى هلع حقيقي وقد تصاعد شعور عجيب في أعماقه بأنه لن يرى هذه الخادمة الشقراء مرّة أخرى. ليست مجرد شعور بأن هذا ما سيحدث، وليست مجرد شعر برغبة عارمة تجتاحه وتدفعه لأن يأخذها ويهرب بها من القصر، لكنه لم يجرؤ على فعلها قط، بل ظلّ هناك في موقعه قرب بوابة القصر يلقي نظره وداع تجاه الشقراء التي - وقبل أن تغيب داخل القصر - توقفت لتنظر إليه مبتسمة وتبتسم

ابتسامة سريعة خاطفة راها «لورا» فلم تنقص من خوفه بل زادته

لقد رآه. لقد شعرت به. والآن لن يراها هو مجددًا

وفي لمحة لمح التي عادت فيها الخادمة الشقراء داخل القصر شعر «لورا» كأنما فقد قطعة من روحه لن تعود إليه مجددًا

وصحيح أن تلك الخادمة الشقراء كانت من أوليات من اختفين في قصر «بيرانث» الملعون، إلا أن «لورا» رآها لاحقًا في بيته لن يشاهد أبدًا.

* * *

وفي تلك التحويطة بين الأطلال حيث «إليزابث» وسط ميدان الأمطار التي ملأت التحويطة، وعلى مقربة منها وقف يوسف ينتفت حوله بتوتر

وقد أدرك أن الشيء لم يختر له هذا الجسد الضخم عبثًا.. إنه أضخم من أن يختبئ.. أضخم من أن يتحرك من دون أن يصدر ضوضاء كافية لفت الأنظار إليه.. وأضخم من أن يحاول الهرب فيحاو

لكنه ضخم بما فيه الكفاية ليواجه فيقتل.. أو يُقتل

لكن «الميراث» في مأمن هنا على الأقل.. هذا ما أخذ يحاول إقناع نفسه به وهو يحبس قوته فيقفز على غصن الشجرة الذي أصبح ملاذه الوحيد في المواجهة المقبلة.. مهما حدث.. لأن كل ما عليهم هو البقاء في مخبئهم، وربما ستنجو هي مما سيحدث.. سيواجه هو مصيرهم بمفرده.. إما أن ينجلي عنهم وإما أن يمنحها الفرصة للهرب

حينها ستصبح هي تحت رحمة الشيء، لكنه لن يظل معها ليحصد ما تبقى له من عُمر.. إنها لعنة الشيء أن يفقد هذه الميزة من مطاردتيه، أيًا ما سيحدث لها بعدها فهو لن يشعل بالها به الآن

الآن عليه أن ينظم أفكاره وأن يقرر ما عليه فعله

لقد حسّن عدد مطارديه، وقرر أنهم ثلاثة أو أقل.. لكنه سيفترض أنهم ثلاثة أو أكثر.. تحسبًا للأسوأ.. وعليه الآن أن يفكر في الطريقة الصحيحة لقتلهم بغصن شجرة، متجاوزًا حقيقة أنهم لا ذنب لهم فيما سيفعله بهم، وهذا إن نجح فيه أصلًا

إنهم مثله.. في المكان غير المناسب في الوقت غير المناسب.. إنهم هم يريدون قتله وهذا يريد هو قتلهم.. تمامًا كما حدث مع الذكورة البيضاء، وتمامًا كما حدث مع المتحور في عرفه «فلاد» والأشياء

لكن الموقف الآن مختلف

الذكورة البيضاء كانت مرأة محبوسة تقفز على سكين لا تجيد استخدامه، والمتحور في عرفه «فلاد» كان لا حول له ولا قوة، وكان هو المسلح ليلتها بالخنجر الذي أودعه في قلبه.. لكن مطارديه هذه المرة يحتفظون

بهم رجال أشداء يجيدون القنص وإطلاق الأسهم المشتعلة، وهم يمتلكون أعصابهم على حافة هاوية، فقد يدرك أن يتحمل ما هم قادرون عليه بسهم في أيديهم في مواجهة مباشرة مع رجل يقفز على غصن شجرة لا يصلح إلا للتلويح به مهددًا.. ستكون مواجهة مؤسفة لسنج حقًا، والقاعدة الأولى التي وضعها عقل يوسف كانت

يجب أن تواجههم واحدًا تلو الآخر

هكذا سيريد فرصته في النجاة، وإن كانت لن تصل إلى حد الأمان الكامل، لكنها قاعدة تبدو سؤالًا منصفًا، وهو

كيف سيتمكن من تفريقهم؟

هنا تركز عقل حسنه الحديدي للإجابة لأول مرة في هذه الليلة، معتمدًا على الأصوات هي الحل

لو أصدر عدة أصوات في أماكن متفرقة من الأعلى فسينشتت انتباههم وسيضطرون إلى التفرق للاتجاه إلى مصدر كل صوت.. كيف سيصدر أصواتًا متفرقة؟ سيُلقي بالحجارة في ثلاثة اتجاهات مختلفة

خطة بدائية لكنها الوحيدة التي تصلح في هذه الليلة، وكل ما عليه الآن هو العثور على ثلاثة أحجار قابلة للتحمل، وقذف إلى أبعد مكان ممكن عن التجويف الذي تختبئ فيه «الميراث»، والذي تصاعد منه صوتها بريئًا غاضبًا، إذ بدأت فجأة

ـ لقد كنت وحيدة.. وحيدة أكثر من قدرتك على التخيل.

قالتها فبوغت يوسف بقولها وتجمد في مكانه للحظة، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة ساخرة.

إنها تحدثه هو عن الوحدة!

هو الذي لم يعرف دفء العلاقة البشرية في حياته قطُّ، وقضى أيامه بين جدران منزله ومكتبه وفي سيارته، فغرفته الحقيرة في الفندق، بعد أن اقتحم الشيء حياته.. لكنها واصلت وقد بدا أنها تحكي لنفسها لا له

ـ سنوات طويلة وأنا أعاني من دون أن يشعر بي أحد.. كنت أملك كل شيء كملكة، لكني لم أكن أملك شيئًا كامرأة.. كنت أسيرة بحيرة لم أخترها، وكانت الأيام تمرُّ عليَّ فأدفع ثمنها من جسدي.. من جمالي الذي أخذ يضلُّ طريقه عن مرآتي يومًا بعد يوم.

هنا ذابت الابتسامة الساخرة عن شفتي يوسف، وبدأ نفاد الصبر في الارتسام على ملامحه.. لقد بدأت الشكوى، والمرأة حين تبدأ الشكوى لا سبيل لإخراسها أبدًا، وهو ليس هنا ليتعاطف معها.. إنه هنا لحمايتها مرغمًا، ولهذا همس

ـ توقفي وإلا فسيجذبهم صوتك إلينا و...

لكنها تجاهلته مواصلة:

ـ كنت أعرف أن زوجي سَيَتمني، وأنه يلوذ بحربه ليظل بعيدًا عني كان يواجه الموت كل يوم لمجرد أنه لا يريد البقاء معي. وكنت أقضي الليالي في انتظاره موقنة أنه لن يأتي.. لن يأتي لأنه هناك

في حرب لا طائل من ورائها، أو في مخدع عاهرة تمنحه ما لم أعد أملكه.. بكيت كثيرًا حتى فقدت قدرتي على البكاء.. ثم قررت فعل أي شيء لأنقذ نفسي.. لم أكن أريد أن أموت قبل أن أحيا.. أتفهم؟ لم أكن أريد أن أغادر حياةً لم أحظَ منها بشيء بعد.. وكان الثمن هو دماء كل العاهرات اللاتي عملن في قصري.. إنهن عاهرات.. عاهرات!

صاحت بكلمتها الأخيرة بصوت عالٍ انتفض له يوسف ودفعه لأن يسرع إليها ينحني على حافة التجويف الذي حبسها فيه، ولصرخ فيها

ـ اخرسي أيتها الحمقاء.. اخرسي!

لكن المرأة حين تبدأ في الشكوى لا تتوقف.

ومن ظلام التجويف تعالى صوتها أكثر وأكثر، إذ واصلت:

ـ دماء العاهرات لم تمنحني الخلود.. أتعرف لماذا؟ لأنهن عاهرات.. كنهن عاهرات، وكنهن دفعن الثمن.. وفي النهاية لم يعد أمامي إلا أن أجرِّب تلك الطقوس الملعونة.. كنت أظن أنها ستمنحني الخلود.. كنت أظن أنها ستمنحني فرصة لأحيا.. لكنها بدلًا من هذا منحتني له!

قالتها ثم لادت بالصمت أخيرًا، فنقَّب يوسف حوله ليتأكد من أن صوتها لم يجتذب مطارديهما إليهما، ثم انتظر لبضع ثوانٍ تأكد فيها من أنها كفت بهذا القدر.. عصم.. لقد خرست!

الآن يمكنه أن يعتدل وأن يبحث عن الأحجار التي سيلقيها.. والآن يمكنه أن يستعد للحركة، فالموجهة اقتربت بما فيه الكفاية ليشعر بها آتية لحملة الموت معها.. ولا يمكنه أن يتفرغ للتفكير في الطريقة التي سيقتل بها ثلاثة رجال بغصن شجرة و.. و..

وفجأة انبعث صوت «إليزابث ثوري» من صلاح محتشد إذ صرخ بصوت ارتجفت له جدران الأطلال:

ـ نحن هنا!!! ... ما الذي ستصرونه؟

* * *

وفي لحظة واحدة توقف «بارتوس» و«مارسيل» و«لوران» في أماكنهم وقد بلغهم صوت «إليزابث».

وللحظات رددت جدران الأطلال صدى ندائها قبل أن يحتمي الصوت في الظلام، لكنهم كانوا قد حددوا مصدره ليتخذ كل واحد منهم قرارًا مختلفًا، وليشرع في تنفيذه على الفور.

«بارتوس» قرر التوقف مكانه والانتظار، وقد بدا له أن الأمر أشبه بفخ ينتظره ليسقط فيه.. «إليزابث» لن تحاول اجتذابه إلا لو كانت قد أعدت له فخًّا، وهو أذكى من أن يسقط فيه.. أذكى إلى الحد الكافي ليصل مكانه ولينتظر الصوت التالي.. والذي سيمنحه تصورًا أفضل لما عليه فعله

و«مارسيل» كان قراره مختلفًا، لم يتوقف مكانه.. بل قرر الابتعاد عن مصدر الصوت وإلى أقصى حدٍّ ممكن، فانطلق يعدو على الجسور وكأن أشباح الأطلال تطارده! لكنه لم يكن خائفًا، فلا صوت «إليزابث» ولا أشباح الدنيا قادرة على إخافته وهو الذي أتى ليقتل من قتلت أخته فقط افترض أنها محاولة ساذجة منها لجذبه إلى اتجاهٍ ما، قبل أن تنقض هي هاربة في اتجاه آخر.. لهذا انطلق يعدو قافزًا فوق أي شيء يعترض طريقه، في اتجاه دائري يحيط بمصدر الصوت، مفترضًا أنها لو حاولت الهرب في اتجاهٍ فسيصل إليها أولًا.

وحده «لوران» الذي سمع الصوت فأسرع إلى مصدره وسعه يشق الأمطار المنهمرة عليه شقًّا.

لم يفترض أنه فخ، ولم يفترض أنها خدعة.. فقد مرّ صوت «إليزابث» وأسرع إليه وقد أخذ قلبه يتوثب في صدره، وقد أعادت له ذكرى أحداث عاشها في قصرها، حاول نسيانها طويلًا من دون جدوى.

* * *

كانت الخادمة الشقراء هي أول امرأة لاحظ «لوران» اختفاءها في القصر، لكنها لم تكن الوحيدة.

بعض الصور ظلّا في حديقة القصر لكنهما لم تأتا قطّ.. بدأ البحث عنهما بعينين صامتتين في جنبات القصر فلم يجدهما.. ثم تحولت لهفته وقلقه إلى قصوى حتى بدأ السؤال عنهما صراحة، فأخذه قائد الحرس المحور إلى حيث لا يسمعهما أحد وقال:

ـ «لوران».. توقف عن البحث عن تلك الخادمة وإلا لقيت مصيرها.

ثم تركه يحاول استيعاب ما قاله ليستنتج «لوران» في النهاية أنهم صردوها من القصر وأنها لن تعود إليه أبدًا.. استنتج لم يقنع به «لوران» فقد كان لا يثق فيه.. فيما استنتج ـ إن صحّ ـ يعني أنها لا تزال حية، عكس ما أعلنته نبرة الهلع في صوت قائد الحرس، إذ حذره من البحث عنها.

هكذا حاول «لوران» أن ينسى الأمر كله وقد أدرك أن طول التفكير فيه لن يورثه إلا الحزن والاكتئاب، فلم يتذكره أبدًا إلا حين اختفت تلك الخادمة التي كان يحمل طعامه إلى غرفة «إليزابث» التي لم تكن تفارقها إلا نادرًا.. وإن كان اختفاء الشقراء قد شغله لأنه تعلق بها، فإن

اختفاء الخادمة النحيلة كان مثار همسات كلّ من عملوا في القصر طويلًا. فما حدث يومها هو أن تلك النحيلة حملت الطعام إلى غرفة «إليزابث» ودخلتها لتغيب فيها طويلًا قبل أن تتصاعد صرختها فجأة تزلزل جدران القصر، ثم.. ثم..

ثم اختفت تلك الخادمة النحيلة تمامًا.

لم تخرج من غرفة «إليزابث»، ولم يرها أحد بعدها، ولم تسأل نزيلة الحجرات عنها، بل وتم بعد اسمها بذكر، وكأنها لم تكن

كأنه اتفاق رهيب غير معلن قرر كلُّ من في القصر أن الخادمة النحيلة اختفت، وأن هذه هي نهاية قصتها، إلا «الوران» الذي بحث عنها في الأخرى بفترة قبل أن يصل إلى النسخة الثانية التي وصل إليها مع شقرائه

لقد غادرت القصر لتعود؟ إلى أين؟ لن نعرف أبدًا!

بعدها اختفت تلك الخادمة ذات الشعر الطويل، والتي كانت تُدعى مدعورة طوال الوقت من دون سبب مفهوم. ثم اختفت تلك الخادمة التي كانت تحاول لاستمالة كل رجل من دون أن يشعر هو باستمالتها ثم اختفت طفلة إحدى الخادمات، والتي كانت تلهو في ممرات القصر، فلم تحرؤ أمها حتى على السؤال عنها أو ذكر اسمها، وإن لم تتوقف الدموع عن الانهمار من عينيها بعدها

ثم اختفت تلك البدينة، وتلك طويلة، وتلك النحيلة، وتلك القصيرة

ثم لم يعد استنتاج «الوران» السديد بأنهن كلهن طُردن من القصر يصلح لإخراس الأسئلة التي ألهبت تفكيره طويلًا، فعاد ليسأل عنهن بمزيج من الفضول والخوف هذه المرّة، ومرة أخرى أخذه فرط الحرص

العجوز إلى حيث لا يسمعهما أحد ليجيب عن أسئلته بقولٍ لم ينسه «الوران» قطّ:

ـ مَن يُستنفد الغرض منها لا يَعُدْ لبقائها مبرر.. ولهذا تختفي!

ثم تركه من دون أن يفسّر له جملته، ولم يكن «الوران» يومها يحتاج إلى تفسير، إذ لم يكن يومًا ذكيًّا، ولم يكن يملك من الفراسة ما يكفيه ليحصل على عمل أفضل من مجرد حارس لقصر مملكة غريبة الأطوار بكل الربط بين اختفاء الخادمات وتلك الأشياء التي كانت تُفعل في قبو القصر حينما تُوقف في سرية تامة لم يكن يستدرم ذكاءً مبتكرًا فيه

بعد تتبع «الوران» أسئلته وضعف قصوره في مقتل، وقرر أن ينسى الأمر كله إلى أن تنتهي فترة خدمته في هذا القصر المشؤوم، ينصدم من دون أن يعرف إلى أحضان ذلك الانزلاق غير المعلن الذي يقدم إليه جميع من في قصرها قبله.

الخادمات هن يختفين، ولا داعي للبحث عنهن، فهو بحث لن يؤدي إلا إلى هلاك الباحث

لم يكن «الوران» قد تجاوز أعوامه المراهقة إلا بقليل، لكنه في هذا القصر تعلم سريعًا الصبر، فالحكمة، فلم يعد لسانه يتحرك في فمه إلا نادرًا، ومع الأيام اختفى وجهه الصغير الذي يعرف أكثر مما ينبغي له أن يعرف ومع الوقت بدأ ينسى شقراءه التي شغلت باله طويلًا حتى أصبح عاجزًا عن تذكر ملامحها أو اسمها أو وحدة التي منحته له من دون مقابل.

نسيها إلى أن رآها ثانية في ليلة انقلبت فيها حياته رأسًا على عقب.

* * *

وقبل أن نحكي ما حدث لـ«لوران» في الليلة التي رأى فيها حدمه الشقراء، دعنا نَعُدْ للحظة إلى يوسف الذي وقف ذاهلًا أمام صخر الذي اختبأت فيه «إليزابث»، يحدِّق في ظلامه من دون أن يراها، عاجزًا عن تصديق ما فعلته لتوِّها.

لقد نادتهم!

في اللحظة التي انحنى فيها على الأرض لينتقط أول حجر سيقذفه بعيدًا عنهما، أدركهم هي بسمع حصة لواهبه قبل أن تمنحه الفرصة ليحرمها حتى لكن

ـ لماذا؟!

ـ لأنني لن أقضي ليلتي هنا.. هيا استعد.

قالتها وقد استعادت نبرة الجنون في صوتها، فاستبد بيوسف غضب جارف ودَّ معه لو هبط إليها ليهشِّم رأسها بغصن الشجرة الذي يقبض عليه، لكنه كان يدرك ـ مع الأسف ـ أنه لن يستطيع فعلها، فزاح غصنه جانبًا وأخذ يتلفَّت حوله بتوتر لا حد له، محاولًا الاستعداد للهجوم الآتي، مطوحًا غصنه تجاه أي ظل تحرك أمامه.

إنهم قادمون

لم يستعد لهم، ولم تتوصل بعدُ إلى الطريقة المثلى لتعقب عبثهم، لكنهم قادمون، فلا بد أن صوت تلك المأفونة قد بلغهم، ولا بد أن تتحد الآن قواه وبسرعة قبل أن يصلوا إليهما.

إنهم قادمون.

وهو لن يتمكن من الهرب، ولن يحاول حتى.. لقد قضى ليلته كاملة يهرب.. يهرب من الشيء، ثم من عصام، ثم من أسهم مشتعلة، ثم من الموت في أعماق النهر.. وهذا يكفي.

إنهم قادمون.

وكل ما على يوسف فعله الآن هو انتظارهم لتبدأ المواجهة.. لا يهم أن ينجو هو، لكن المهم ألا تنتهي هذه الليلة إلا و«إليزابث ثوري» على قيد الحياة.. هذا ما اختاره في هذا الفصل من لعبة الشيء، والذي لو نجح في تحقيقه فقد ينتهي هذا الكابوس الذي عاش فيه طويلًا

إنهم قادمون.

وليكن ما يكون!

* * *

وبالفعل كان «لوران» قد اقترب منهما إلى الحد الكافي ليشعر يوسف بقربه، لكنه في هذه اللحظة كان يتذكر الليلة التي رأى فيها خادمته الشقراء للمرَّة الثانية.. والأخيرة.

كانت ليلة باردة.. وكل الليالي في قصر «إليزابث» كانت باردة حتى في شهر الصيف.. وكان «لوران» يرقد على فراشه عاجزًا عن النوم وقد أخذت أسنانه التي يحتها تحتها كل يوم في الإنشداد الحماسي في رأسه ترجوه أن يحاول الإجابة عنها، لكنه كان قد أغمض عينيه مقررًا تجاهلها حتى أن يغيب في النوم كما يفعل كل ليلة، فمرَّت عليه ساعات طويلة قبل أن يفقد اتصاله بأرض الواقع ليغيب في عالم الأحلام.

وكعادة أحلامه في الفترة الأخيرة رأى «لوران» الخادمتين اللاتي اختفين من القصر يخرجن واحدة تلو الأخرى من جدران القصر ليتجمعن هناك في النهاية.. قرب مدخل القبو.. هناك كن يقفن قبل أن يبدأن البكاء الحار، ومن دون أن يصدر منهن أدنى صوت. وكان «لوران» يجد نفسه في أحلامه يقف قربهن يرمقهن عاجزًا عن فعل أي شيء إلى أن يخنقه شعوره بالعجز هذا ليستيقظ في فجر اليوم التالي يلهث ويتصبَّب عرقًا.

لكنه في هذه الليلة لم يجد الوقت الكافي ليخوض كابوسه حتى النهاية، إذ انتزعه صوت أنثوي خافت تصاعد بجوار فراشه مباشرة من عالم الأحلام، إذ قال:

ـ لماذا لم تبحث عني؟

كان الصوت خافتًا لدرجة قد لا تشعر بها وأنت مستيقظ وفي قمة انتباهك، لكنه كان كفيلًا ليتنفض «لوران» مستيقظًا وليعتدل على فراشه محاولًا البحث عن مصدر الصوت الذي تعالى في ظلام غرفته بكرة

ـ لماذا لم تبحث عني؟

فاحتاج «لوران» إلى لحظات ليتأكد من أنه لا يحلم، وأنه قد سمع صوتًا بالفعل، ثم على ضوء القمر المتسلل من نافذة غرفته رأى صاحبة الصوت، فشهق كرجل اخترق سيفٌ قلبه.

فأمامه كانت الخادمة الشقراء تقف ترمق القمر بنظرة حزينة، لكنها لم تكن كما رآها أول مرة على الإطلاق.. بل إنها لم تكن تمتُّ بأي صلة لتلك الغادة التي رآها في حديقة القصر منذ أشهر طالت.

مَن وقفت أمامه في تلك الليلة كانت امرأة فقدت شعرها، وقد بدا أن أحدهم انتزعه من رأسها انتزاعًا، تاركًا خصلات تلونت بلون غامض هو لون الدم لو امتزج بشعر أشقر وحد لشيب لمكر طريقه إليه.. وبين تلك الخصلات الشقراء كانت تدوب هالة الحجم تبدأ من قمة رأسها لتسهي في وجهها الذي لم يعد يحوي أي تفصيل معلوم، ولا شفة سفلى.. حتى أسنانها التي كشفت عنها يوم ابتسمت له لم تعد هناك، وبين بقايا منها قطع صغيرة سقطت في حلقها كأنها وحش أسطوري يستعد للإطباق على فريسته

وأسفل هذا الرأس المشوَّه كان جسدها قد أوشك على التحول إلى هيكل عظمي بسيط معه أن يعرف إن كان صاحبه رجلًا أو امرأة، حتى إن «لوران» احتاج إلى دقيقة كاملة ليميّز أنها لم تكن ترتدي أي شيء يستر عظامها، وإن لم يمنحه هذا الاكتشاف إلا مزيدًا من الرعب، وقد تحولت عيناه إلى دائرتين مكتملتين ذاهلتين في وجهه.

ـ لماذا لم تبحث عني؟

ذلتها هي للمرة الأخيرة، ثم هوت بجوار فراشه جثة هامدة تحدق عيناها في القمر في السماء بنظرة حزينة.

ولا داعي هنا لأن نضيع المزيد من الوقت في وصف ما شعر به «لوران» بعدها.. يمكنك أن تصنع بقسك مكانه وأن تتخيل ما ستشعر به، ثم يمكنك أن تتفهم تمامًا هرب من القصر ليلتها، وقد كاد يفقد عقله، لتحتمي في أبعد مكان ممكن عنه، وليقضي بعدها ليالي طويلة يبكي ويرتجف من دون توقف.

وبعد ثلاثة أشهر كاملة تمالك «لوران» نفسه أخيرًا ليخرج من مخبئه

وليعرف أنهم اكتشفوا حقيقة ما كان يحدث في القصر الملعون، وأنهم سينقلون «إليزابث باثوري» إلى قصر جديد لتُسجن فيه، بعد أن امتلأ قصرها الحالي بجثث كل الخادمات اللاتي اختفين طوال الفترة الماضية. هو كان قد قرر أن يترك المدينة كلها وأن يقضي ما تبقى له من عُمر يحاول أن ينسى ما مرَّ به ـ وإن أدرك أنه لن يتمكن من النسيان أبدًا ـ إلى أن التقى بـ«بارتوس» و«مارسيل»، وإلى أن عرف منهما أنهما سيحاولان قتل «إليزابث»، قبل أن تبلغ قصرها الجديد.. حينها كان هو الوحيد الذي قرر بعد أن استمع إلى خطة «بارتوس»:

ـ أن معكم

وهذا ما حدث بالفعل

وها هو الآن «لوران» كما تراه، يقفز فوق تلك الكومة من الصخور وسيفه في يده يلمع مع وميض البرق في السماء، وقد أصبح على بُعد خطوات معدودة من يوسف الذي قبض على غصنه بكلتا يديه و لأمر تضربه بلا هوادة، وقد شعر بمن يقترب منه وبسرعة.

في أي لحظة الآن سيبدأ الهجوم وستبدأ المعركة.. إن الصوت يقترب إنه قادم من هذا الاتجاه.. من خلف هذا الجدار تحديدًا.. إنه يشعر الآن باقتراب الموت إلى الحد الذي يكاد قلبه معه أن يتوقف طواعية.. إنه به

وفي اللحظة التي دوى فيها هزيم الرعد خرج «لوران» من قلب ضلاء الأضلاع يسقط على يوسف وتبدأ المعركة

ن يمكنك تخيل عنف ذلك ما تخصه، ولن يمكنك أن تحارب محاربًا في أضلاع تنمي إلى القرن السادس عشر بعض شجرة لكي تخوض التجربة، لكن أرجوك حاول أن تتخيل معي المشهد التالي.

ن يمكنك أن تجد نفسك في جسد ضخم، لا يملك لك نصفة، تحارب، من أجل البقاء، رجلًا لا تعرفك، لكنه يحاول أن يقتلك من أجل الانتقام، لكن أرجوك.. أرجوك.. حاول فستجد أن الأمر ليس بالصعوبة التي تتخيلها

المشهد أمامك الآن كالتالي:

يوسف في جسده الضخم أحمر الشعر يستقبل ضربة سيف «لوران» لأولى على غصن شجره، يتعرض السيف فيه وقد صرح الاثنان في لحظة ذهول وألم حول ذلك الغصن

يسقط يوسف أرضًا من عنف الضربة، لكنه يقف بسرعة في اللحظة التي يترع فيها «لوران» سيفه من الغصن، يحاول عزمه هذه المرة في صدر

يوسف الذي يقفز عربيًّا إلى الوراء، مطوحًا عصاه في وجه «الوران» الذي استقبل الضربة القاسية على جانب رأسه بتفجر الدماء منه، وليضاعف الألم من عصاه أضعافًا وأضعافًا، قبل أن يتراجع ليستعد لانقضاضه التالي الرياح تزأر بين جدران العاصفة مهللة، والأمطار تزداد كثافة فجأة، كأنها تستعد بغسل الدماء التي ستراق على أرض الأطلال، لكن «الوران» الذي كاد يبرلق على أحد الأحجار سيطر على نفسه بسرعة، وينقض للمرة الثالثة على يوسف الذي وجد أنه ـ وإن كان عاجزًا عن القتال ـ يمتلك جسدًا يصلح له بالفعل.

لقد أصابته ضربة سيف «الوران» الثالثة في ذراعه، لكن الألم الذي تصاعد منها لم يكن بالدرجة التي توقعها، ولو كان قد تلقى ضربة مماثلة على ذراع جسده الأصلي لبُترت.. لكنه الآن لم يشعر إلا ببعض الألم وبسخونة الدماء التي سالت على ذراعه وهو يرفع غصنه الضخم ليهوي به على رأس «الوران» الذي انزلق هذه المرّة، لينجو من ضربة كادت أن تهشم رأسه لو أصابته.

برقٌ يسطع في السماء يعقبه هزيم الرعد، والمعركة مستمرة.

والاثنان الآن يلهثان، وقد وجد كل واحد منهما أن خصمه لم يكن هشًّا كما تمنى.. «الوران» وجد أن غريمه أضخم وأخطر من اللازم، ويوسف وجد أن غريمه ـ وإن كان بمفرده ـ قادر على قتله فعلًا لو صدر منه أدنى خطأ.. اثنان لا يعرفان بعضهما بعضًا، لكن لا مجال هنا للتعارف أو تبادل التحيات.. وفي اللحظة التي انقض فيها «الوران» للمرّة الرابعة كان سؤالان متماثلان يسطعان في عقل كل واحد منهما: *أين اختفت «اليزابث»؟ أين باقي مُطارديهما؟*

لكن سؤال «الوران» لم يمنعه من إصابة يوسف في ذراعه التي تقبض على الغصن مرّة أخرى، وسؤال يوسف لم يمنعه من الصراخ ألمًا هذه المرة، وهو يحاول التمسك بسلاحه الوحيد لهذه الليلة، قبل أن يُلقي بجسده بضخامته تجاه «الوران» في انقضاض لم يتوقعه هذا الأخير، ليرتطم به يوسف وليسقطا لاثنين أرض أسفل حدور مبهدم اعترض على إزعاجه بأن ألقى عليهما بحجارته.

البرق يسطع في السماء يعقبه هزيم الرعد، والمعركة مستمرة.

تحرّك يوسف في بحيرة التي كادت فيها أحجار الجدار المهوي عليهما أن تقضي عليه، وانسل «الوران» من أسفله مستعلًا حفرته، ثم انقض «الوران» للمرة الخامسة وقد أدرك أنه لن يستطيع طعن جسد يوسف في مقتل، لكنه يستطيع أن يقصه بما يكفي من الجروح لينهكه، فاخترق سيفه فخذ جسد يوسف هذه المرّة، وصرخ يوسف الذي لم يتوقع هذه الضربة وهو يهوي بغصن الشجرة على ذراع «الوران» ليصدر صوت تهشيم عظام امتزج بصوت تحطم الغصن.

هنا سقط «الوران» يتلوى ألمًا عاجزًا عن تحريك ذراعه، وبجواره انهار يوسف على ركبته وقد أخذت الدماء تتفجر من جروح ذراعه وفخذه بلا توقف، وقد فقد الاثنان سلاحيهما.. لكن المعركة لم تتوقف عند هذا الحد.

البرق يسطع في السماء يعقبه هزيم الرعد، والاثنان يتحاملان على نفسيهما ليقفا وليواصلا المعركة!

فقط هذه المرّة أصبح الاثنان على درجة متساوية من الخوف، وقد

شعر «الوران» بأن نهاية المواجهة قد لا تكون لصالحه كما يتمنى، بعد أدرك يوسف أنها فرصته للتخلص منه قبل أن يبلغهما من هما معه.

فقط هذه المرَّة انقض الاثنان بعضهما على بعض وقد جمعت بينهم الرغبة في البقاء على قيد الحياة، لتبدأ اللكمات، فالركلات، فالصرخات التي حملت الألم والغضب والرغبة في الخلاص.

ولدقائق لم تقل ستقلت حدة الأطلال دماء هما المتناثرة في بهو قبل أن ينهار «الوران» أخيرًا، وقد فقد قدرته على التنفس بعد الضربة التي سددها يوسف في منتصف صدره، فلم يُضِع يوسف الفرصة التي على أضخم حجر وجده ورفعه بكلتا يديه وهو يصرخ عازمًا على أن يَهوِي به على رأس «الوران» الذي أغمض عينيه منتظرًا الموت، لولا أن قفز «مارسيل» فجأة على يوسف ليسقطه أرضًا بالحجر الذي يحمله.

البرق يسطع في السماء يعقبه هزيم الرعد، والمعركة تشتد ضراوة

يوسف كان سيقتل «الوران» لأنه «مضطر» ـ وهي ليست أول مرَّة يجد نفسه فيها في مثل هذا الموقف ـ لكن «مارسيل» الذي هبَّ واقفًا سرعه شاهرًا سيفه كان يريد قتله بغضب تضاعف حين رأى ما أصاب رفيقه «الوران» الذي رجف جسده وهو يعض على شفته محاولًا كتم صرخة ألم أرسلها له ذراعه المهشمة. ويوسف أنقذ وقت بسرعة، لكنه أدرك على الفور أنه لن ينجو من غريمه الثاني الذي يفوق «الوران» حجمًا ومهارة، وقد تحولت كفة المعركة هذه المرَّة إلى رجل مصاب بلا سلاح أمام رجل بسيف يجيد استخدامه بمهارة.

انقض «مارسيل» صارخًا بغضب فألقى يوسف بجسده إلى الوراء

ليسقط، ولتلتقط جروحه، لكنه هب بسرعة ليتفادى سيف «مارسيل» الذي غرس في الأرض في الموضع الذي كان رأسه يحتله منذ لحظة. هتف وهو يغتاظ على حفنة من الطين ألقاها في وجه «مارسيل» الذي استقبلها بابتسامة ساخرة، وهو ينقض من جديد بسيفه، فلم يستطع يوسف التحرك بالسرعة اللازمة مع ضخامة جسده، ليشعر بالمعدن البارد يمزق لحم صدره ناثرًا دماءه في وجه «مارسيل».

وهذه المرَّة انهار يوسف على الأرض ألمًا وقد أخذ يلهث بعنف وجروحه ترسل لهبًا قاسيًا إلى رأسه، لم يلبث أن تحوَّل لدوار اهتزت معه الموجودات من حوله، لكن «مارسيل» اقترب منه ببطء ووجه غطاه الطين والدم وهو يرفع سيفه مستعدًّا لتسديده للمرَّة الأخيرة.

وهذه المرَّة لم يحاول يوسف أن يقاوم.

[illegible] مع «الوران» أنهكه [illegible] جروحه منحته ما تكفيه من الألم ليهدأ إليه.

والدماء التي فقدها تركت مكانها صقيعًا اجتاح كيانه كله، فمال هامدًا على الأرض يحدق في دعر في سيف «مارسيل» الذي سيطير عنقه في اللحظة التالية و.. و..

وفجأة شهق «مارسيل» غير مُصدق حين اخترق سيف «الوران» ظهره ليخرج من صدره!

شهق وتحولت نظرة الذهول في وجهه إلى ألم، فحزن من سيموت قبل أن يحقق هدفه في هذه الدنيا، ودار حول نفسه نصف دورة قبل أن يسقط أرضًا جثة هامدة، لتظهر «إليزابيث» من ورائه تبتسم في صفاء، ابتسامة راها يوسف وتنقض قلبه في صدره رعبًا [illegible] ابتسامة ثم تبدَّلت آدميته على الإطلاق

لكنه.. ولأنه لم يكن يملك من ترف الوقت ما يكفيه لتأمل وتحسس ابتسامتها.. قرر استغلال الفرصة ليدفع بما تبقى من جسده من طاقة، وليقف ملتفتًا إلى غريمه الأول «الوران» مستعدًّا لمواجهته و..

ولكنه لم يكن هناك!

مخلفًا دماءه على جدران الأطلال هرب «الوران»، ليترك يوسف يغط يرتجف أسفل الأمطار التي لم يعد يشعر بها لفرط الدماء التي تسيل من جسده، وبجواره وقفت «إليزابث» ترمق جثة «مارسيل» في رضا قبل أن تتجه إليها لتنتزع السيف من ظهره ولتمد به يدها إلى يوسف، قائلة:

ـ هيا بنا.

فاحتاج يوسف إلى لحظات طالت قبل أن يتمالك نفسه ليأخذه منها.

البرق يسطع في السماء يعقبه هزيم الرعد، وأطول ليلة في حياة يوسف لم تنتهِ بعد!

* * *

وبعدُ هو أقرب إلى الزحف انطلق يوسف وسط الأطلال مع ممكنه التي فقدت عقلها وإن استعادت وحشيتها مع رؤية الدماء.

كانت قد أخذت خنجر «مارسيل» من ملابسه قبل أن تتركه ليحتفظ نوعًا من التعادل في المواجهة المقبلة التي قد تحدث في أي لحظة امرأة مجنونة مسلحة ومصاب.. ضد مصاب آخر ومقاتل اسمه «بارتوس» يود الانتقام لحبيبته «مارلا».

«بارتوس» الذي لم يكن مخطئًا حين أخبر «مارسيل» و«الوران» بأن

صوت المعركة سيجذبهما إليه، وهذا ما حدث له بالفعل، لكنه حين بلغ جثة «مارسيل» أخيرًا أدرك أنه تأخر.. المرأة وحارسها هربا، و«الوران» نجا، لكنه يرقد الآن مصابًا جانبًا في مكان ما في هذه الأطلال، وهو لا يمتلك وقتًا ليبحث عنه.

إنه هنا من أجل «إليزابث باثوري».

ومن أجل «مارلا».

بعينيه الخبيرتين.. وفي الآثار التي تبقّت أمامه رأى المعركة وكيف انتهت، وحمّن الاتجاه الصحيح الذي انطلق فيه يوسف و«إليزابث»، وانطلق خلفهما بأقصى سرعته هذه المرّة، وقد أدرك أنه لو تأخر هذه المرّة فلن يلحق بهما أبدًا.

صحيح أنه لم يعد شابًا يقوى على قضاء ليلته في التعدو، لكنه كان يعرف أن يوسف مصاب، وأنه فقد من الدماء ما يكفي ليخفف من سرعته، ولجعله شبه عاجز عن مواجهته، لكن «إليزابث» بمفردها خطرة.. ولقد أخذت خنجر «مارسيل» معها كما رأى بنفسه.. هذا يعني أن المواجهة المقبلة لن تكون أفضل الحلول أمامه.. وهذا يعني أن عليه أن يعثر على حل بديل وأن يضعه موضع التنفيذ فورًا.

لهذا توقف عن التعدو في اتجاه يوسف و«إليزابث»، ولهذا انطلق إلى تلك الكومة البعيدة من الأطلال ليبدأ تسلقها بسرعة، ليتهي به الأمر على قمتها يلهث، لكنه سيطر على أنفاسه بسرعة، وأخذ يحوب بعينيه ظلام الأطلال بحثًا عن فريسته، وقد منحه موقعه الجديد مشهدًا بانوراميًّا للأطلال من حوله.

لقد انطلقا في هذا الاتجاه.. لن يمكنهما المواصلة في هذا الطريق لأنه مسدود.. سيضطران إلى الدوران حول هذا المنزل المتهدم، وفي هذه الحالة سيصلان إلى... ها هما!

على مسافة ليست قريبة رآهما «بارتوس» يخرجان من وراء ذلك المنزل المتهدم، ورأى أنهما يحاولان العودة إلى النهر، فاستنتج حظوتهما بسببه في لحظة.. إنهما يريدان أحد حصانيه.. سيمتطي واحدًا وسيأخذ الآخرَيْن، وحينها لن يعود هو حتى إلى قريته إلا بعد أن تمر أيام ستتعبه «إليزابث» في قصرها الجديد.. هذا هو ما سيحدث.. إلا إذا..

وعلى الرغم من غضبه وإرهاقه استحضر «بارتوس» هدوء الدب في أعماقه واستلَّ قوسه وألقمه سهمًا ليصوبه تجاههما.

ستكون أمامه فرصة واحدة الآن.. سيصيب أحدهما وسيدفع هذا الثاني للهرب، لهذا عليه ألا يخطئ وأن يصيبها هي.

إصابة لن تقتلها ولكن ستعجزها عن الهرب، فهو يريد أن يقتلها بيديه وبأبطأ وسيلة ممكنة.

إنها فرصته الوحيدة في هذه الليلة، وكل ما عليه الآن هو أن يفعلها ألا يخطئ في إصابة هدفه وأن يُسقط «إليزابث».

[illegible] ملأ صدره بالهواء البارد، ثم همس

ـ من أجل «مارلا»!

وأطلق سهمه.

* * *

ولنعد للحظات إلى «لوران»، وأعدك بأننا لن نقضي معه سوى لحظات، لكنها ضرورية.

لقد رأيناه آخر مرَّة على الأرض حين كان يوسف يهمُّ بأن يَهوي بحجره على رأسه، قبل أن ينقض عليه «مارسيل» لينقذه.. وصحيح أنه نجا في اللحظة الأخيرة كما نعلم، لكنه كان أول مرة يشعر فيها «لوران» من الموت إلى هذا الحد.

أول مرَّة يدرك فيها أنه لا يزال شابًّا وأنه لم يكتفِ بما قضاه على وجه البسيطة، وأول مرَّة يشعر فيها بأنه يريد تحقيق أكثر من أي شيء آخر.. أكثر من انتقامه حتى!

لهذا ـ وحين فتح عينيه ليجد أن حارس «إليزابث» منهمكًا تمامًا في [illegible] مع «مارسيل» ـ كان غريزة البقاء قد تمكنت تمامًا لتدفعه للزحف هربًا إلى حيث سينجو بنفسه، فاستجاب لها على الفور، ومن دون لحظة [illegible] فقط حين بعد المسافة كافية بدأ يشعر بالأمان بنى نفسه لتحيته عن «مارسيل»، لكنه بعث عنه بالأسى بمصارعة من ذراعه لمهشمة، وقرر أنه حتى لو كان لا بد أن يفر معه بمفرده فلن يستطيع بإصابته هذه [illegible] من دون سيفه وبذراع مهشمة وبكل الدماء التي فقدها.

[illegible] يحب أن يهرب لأنه لا يملك إلا الهرب.. وحين تصاعدت شهقة «مارسيل» الأخيرة في الأصلان من حوله أيقن أن قراره هذا ـ وإن كان يمنحه بعض الأمل لا بأس به من التعاسة ـ هو القرار الصحيح

فقط احتاج إلى مزيد من الوقت ليدرك أن ذراعه هي التي تهشمت لا ساقه، فنهض على نفسه، ليقف ويبدأ العدو متعدًا بأقصى سرعة

ممكنة، ومع كل خطوة كان يعدوها كانت رغبته في البقاء تقل تدريجيًّ لصالح شعوره بالذنب، قبل أن يتوقف أخيرًا يلهث ليعترف لنفسه بحقيقة أنه تخلى عن «مارسيل» وعن خادمته الشقراء وعن وعده لـ«بارتوس».. لماذا؟

ـ *لأنك لست رجلًا يا عزيزي.. الرجال لا يهربون من الموت.*

تصاعد الصوت العابث في رأسه فجأة فانتفض ذاهلًا قبل أن يتلفت حوله باحثًا عن مصدره.. لكن الصوت تصاعد مرّة أخرى داخل رأسه ليواصل وبالنبرة العابثة ذاتها:

ـ *«مارسيل» أتى ليتفقدك.. وأنت تخليت عنه.. لهذا قتلته «إليزابث» قتلته بسيفك يا «لوران».*

فاحتاج «لوران» إلى وقت أطول هذه المرّة قبل أن يتيقن من أن الصوت يتصاعد من رأسه هو، ليتوقف عن التلفت حوله وليقف مكانه ذاهلًا عاجزًا عن الاستيعاب.. تُرى.. أهذا هو صوت تأنيب ضميره؟ لو كان هو.. فلماذا تلك النبرة العابثة؟

لكن الصوت تصاعد في رأسه مجددًا، ليقول:

ـ *إنهما سيهربان.. «بارتوس» العجوز لن يتمكن من إيقافهما.. وأنت لن تخرج من هنا حيًّا.. إلا إذا...*

قالها الصوت فلم يحتج «لوران» إلى مزيد من التفسير ليفهم ما يعنيه لقد أخطأ وأمامه فرصة لتصحيح خطئِه.. لكن.. كيف؟

هنا شعر بقوة خفية تدير رأسه إلى جهة محددة من الأطلال، لتمنحه الإجابة.. انطلق في هذا الاتجاه.

وهنا تردد للحظة قبل أن يتغلب شعوره بالذنب على رغبته في البقاء حيًّا، ليصرخ في دبٍّ لائحة وأقصى سرعة استطاعها مع الألم الذي يمزق جسده وذراعه المهشمة.. فليكن الصوت العابث هو صوت ضميره أو فليكن صوت أشباح هذه الأطلال.. لا يهم.. المهم أنه محق، وأنه يجب أن يمنع «إليزابث» من الهرب.

والأهم.. ألا يكون قد تأخر أكثر من اللازم.

* * *

والآن يمكنك استنتاج ما حدث.

الآن يمكنك أن ترى كل شيء وهو يحدث في اللحظة ذاتها.. يوسف يجهد ليواكب سرعة «إليزابث» التي أخذت تبتعد بسحر بحيائها التي لا يستحقها.. «لوران» يعدو منحنيًا إليهما وذراعه المهشمة يتأرجح بجواره ليزيد الألم من سرعته.. و«بارتوس» على تلك القمة العالية يسدد سهمه ليُطلقه.

الآن يمكنك أن ترى كيف توقفت «إليزابث» فجأة وكأنما شعرت بما سيحدث ليتوقف معها يوسف متعجبًا.. كيف تجاوز «لوران» ذلك الحد الذي تقفر عنده في المحطة التي اكتشف فيها أنه يهاجمهما بذراع واحدة ومن دون سلاح، لكنه لم يعد يملك وقتًا للتراجع أو التفكير.

وكيف شقَّ سهم «بارتوس» الهواء بصفير متصل لينتهي به الأمر في ظهر «لوران» الذي لو كان تأخر لحظة واحدة لأصاب «إليزابث» في عنقها.

الآن يمكنك أن تتخيل نظرة الذهول على وجه يوسف والألم على

وجه «الوران» وتلك الابتسامة الظافرة على وجه «إليزابث»، ثم بعدها يمكنك أن تتخيل كيف دوت صرخة «بارتوس» في ظلام الأطلال تحمل من الغضب والعجز والقهر ما يكفي لأجيال قادمة.

صرخة رجل خسر وفي لحظة واحدة كل شيء، ولم تعد أمامه الفرصة لتعويض خسارته.

صرخة بدت كهزيم ألف رعد، تعالت فترددت فتلاشت في الظلام، ليَهوِي «الوران» بعدها جثة هامدة أمام يوسف الذاهل و«إليزابث» التي ألقت بنظرة امتعاض سريعة على الجثة، قبل أن تقول:

ـ هيا بنا.

ثم انطلقت تواصل طريقها إلى النهر، فتبعها يوسف بمجرد أن استعاد سيطرته على جسده الجديد.

وعلى الرغم من كل شيء كان الشعور الوحيد الذي اجتاح يوسف لحظتها هو أنه نجا.

وهو شعور سيضحك حين يتذكره لاحقًا!

* * *

ولم يكن عبور النهر سهلًا كما لك أن تتوقع.

كانت العاصفة قد فقدت أكثر حماسها مع انتهاء المطاردة والمواجهات التي دارت في الأطلال الليلة، لكن مياه النهر حافظت على برودتها وعلى تسارع أمواجها مهددة من سيحاول عبورها بتمزيقه إربًا، وأمامها توقف يوسف و«إليزابث» وقد أخذ يلهث هو بينما وقفت هي ثابتة بجواره تبحث

بعينيها عن أفضل نقطة لعبور النهر.. وجدتها فأشارت نحوها وقالت مستعيدة لهجتها الآمرة:

ـ من هناك.

لكن يوسف اعترض قائلًا:

ـ لن يمكنني عبور النهر في هذه الحال.

ـ بل ستعبره.. أنت لم تحصل على قطعتك من الحقيقة بعد.

قالتها وألقت بجسدها في النهر من دون أن تمنح يوسف الذي بوغت بقولها فرصة للرد.. لم يحصل على قطعته من الحقيقة بعد!

إنها تعرف قواعد لعبة الشيء كاملة!

في كل مرّة سأمنحك قطعة.. وسآخذ منك قطعة.

لكن.. أهي التي ستمنحها له هذه المرّة؟ سيعرف على الضفة الأخرى من النهر.

لهذا تبعها إلى مياه النهر المظلمة التي استقبلته وقد تذكرت أنه نجا من الغرق منها مرّة، لتزيد من برودتها ومن عنف أمواجها كأنها تبغي النجاح فيما فشلت فيه سابقًا، لكن قدم يوسف لم تكن بين قضبان هذه المرّة، ولم يكن هو يحاول عبور النهر لينجو من مطاردة لا أمل فيها.. لقد أدّى دوره كاملًا في هذه الليلة وأنقذ «إليزابث»، والآن من حقه أن يحصل على قطعته من الحقيقة، وإن كان هذا يدفع بسؤال جديد في رأسه يستحق إجابة فورية: لقد أنقذ «إليزابث».. لن يقتلها مطاردوها، فاثنان منهم انضمّا لموتى الأطلال، والثالث لن يلحق بهما أبدًا.. أنقذها ولن يظفر الشيء بجسدها،

وهذا يعني أنه نجح في هذا الفصل من اللعبة، وبالتالي.. هل سيجد الشيء في انتظاره حين يعود إلى زمنه؟

المفترض أن تكون الإجابة: لا.

لقد أحسن الاختيار في هذا الزمن، ولقد واجه الموت بكل صوره ونجا، وأنقذ «إليزابث باثوري» من موت محقق.. المفترض الآن أن تواصل هي طريقها إلى قصرها الذي ستقضي فيه ما تبقى لها من حياة، وأن يعود هو إلى زمنه ليجد أن قصة الشيء قد توقفت عند هذا الحد.

أن يجده وقد فشل في الحصول على جسد «إليزابث» ليظل معلقًا في زمنها، وليترك زمن يوسف بكل من فيه، وفي هذه الحالة سيعود يوسف ليجد أن الشيء لا يطارده، وأن مجدي لم يقتل ابنه، وأن سوسن لم تختفِ، وأن ليلى تعيش حياة طبيعية مع زوجها وطفليها بدلًا من أن ترقد جثتهم في قبو فيلّتها.

سيعود كل شيء إلى طبيعته، وسيستعيد هو عمله في مجلة «المجلة»، وسيقضي أيامه فيها ـ لأن سوء حظه لن يفارقه ـ وستنتهي قصة الشيء في حياته.. وإلى الأبد.. هذا هو المفترض، لكن..

لماذا يشعر بأن هذا لن يحدث؟

لماذا يشعر كأن هناك نقطة أخيرة غابت عن تفكيره طويلًا وها هي الآن تتقافز في رأسه محاولة الإعلان عن نفسها؟

ولماذا أخبرته «إليزابث» بأنه سيحصل على قطعته من الحقيقة وكأنها تؤكد له أن كل ما سينتهي هذه الليلة هو هذا الفصل من لعبة الشيء، تمهيدًا لعودته لمواجهة باقي الفصول؟

أسئلة حملها يوسف معه في رحلته في ظلام النهر إلى أن اجتازه أخيرًا ليخرج إلى حيث وقفت «إليزابث» وأحصنة مطارديه، لتمنحه هي إجابات عن بعضٍ منها.. لهذا.. وحين وقف أمامها يرتجف من البرد والألم.. ابتسمت «إليزابث» لتقول:

ـ والآن.. يجب عليَّ أن أشكرك.

لكن يوسف، الذي لم يكن ينتظر امتنانها، تساءل على الفور:

ـ ما الذي كنت تقصدينه بحصولي على قطعتي من الحقيقة و...

ولكنه لم يكمل سؤاله هذا.

فبسرعة لا تمُتُّ للبشر بصلة انقضَّت «إليزابث» عليه لتغرس خنجر «مارسيل» في جَنْبِه، قبل أن تتراجع مبتسمة وقد توهجت عيناها بقوة وبالصورة ذاتها التي رآها يوسف في عيني الطفل إذ زاره الشيء أول مرَّة.. يوسف الذي لم يجد الفرصة حتى ليشعر بالألم أو بالمعدن البارد الذي اخترق جسده.. فقط فقد شعوره بنصفه السفلي وقد تراخت ساقاه فجأة فهوى أرضًا ووجهه يحمل أقسى نظرة ذهول من الممكن أن تراها على وجه رجل، أمام «إليزابث» التي أطلقت ضحكة عالية ماجنة، قبل أن يخرج من فمها صوت الشيء بنبرته العابثة ليمنح يوسف قطعته من الحقيقة:

ـ *أيها الأحمق.. لقد كنت تنقذني طوال الليل.*

فلم يُجب يوسف، ولم يجد في جسده من طاقة الحياة ما يكفيه للنطق.

فقط حاول تحريك يده لإيقاف نزيف جرحه الجديد، لكنه لم يستطع

فتركه يفرغ ما تبقى في جسده الضخم من دماء، وأخذ يحدق ذاهلًا في «إليزابث» ـ التي هي ليست «إليزابث» ـ والتي واصلت بالصوت الرهيب ذاته:

ـ *«إليزابث» انتحرت يوم أن اقتحموا قصرها ليقبضوا عليها.. انتحرت وتركت لي جسدها.. تمامًا كما كنت أريد.*

الآن تَسْطَعُ الحقيقة كاملة في رأس يوسف المحتضر، والآن تتضح الصورة كاملة.

لقد خدعه الشيء!

لم ينقله إلى هذا الزمن ليمنحه الفرصة للقضاء عليه.. بل لينقذه!

ـ *كنت أعرف أنهم سيحاولون قتلها وكنت أكره أن أخسر جسدها وأنا لم أفعل به شيئًا بعد.. لكنك أنقذتني يا عزيزي.. كان أمامك الخياران ولقد اخترت.. والآن...*

ولم تكمل هي ـ والتي ليست هي ـ بل اتجهت لتضغط بقدمها على مقبض خنجر «مارسيل» المغروس في جسد يوسف الجديد، لتغرسه فيه أكثر فأكثر، فلم يقوَ يوسف على الصراخ حتى.

وفي السماء سطع البرق للمرَّة الأخيرة في هذه الليلة، لكن يوسف لم يسمع هزيم الرعد بعده.. لقد فقد من الحياة ما يحتاج إليه لتعمل حاسة السمع في جسده.. وها هو الآن ظلام الموت يحيط به من كل صوب، وبسرعة، لكنه ترك له بصيصًا رأى فيه الشيء في جسد «إليزابث» وهو يتجه إلى أحد الأحصنة ليمتطيه بمهارة قبل أن يلتفت ليلقي نظرة أخيرة عليه بعينين توهجتا بقوة، قبل أن ينطلق مبتعدًا بحصانه ليبتلعه ظلام تلك الليلة التي أوشكت على الانتهاء أخيرًا.

وأحاط الظلام بيوسف أكثر وأكثر.. لكنه رأى الحصانين المتبقيين يَهويان فجأة على الأرض، وكأنما فقدا رغبتيهما في الحياة فجأة، فأدرك يوسف ـ وعلى الرغم من احتضاره ـ أن دورهما في هذه الليلة قد انتهى، ولم يعد هناك مبرر لبقائهما.

تمامًا كما انتهى دوره ولم يعد هناك مبرر لبقائه.

الظلام يحيط به أكثر فأكثر، وعقل جسده المحتضر لم يعد يقوى على الاحتفاظ بالمزيد من الأفكار أو الأسئلة.. فقط كان آخر شيء سمعه يوسف في هذا الزمن هو صوت «مارسيل»، الذي انبعث قربه يقول بمرارة من خسر كل شيء:

ـ أنت السبب!

ثم تلاشى كل شيء في لحظة.

٢٧

وفي اللحظة التالية وجد يوسف نفسه قد عاد إلى زمنه، ووجد ألمًا حادًا يخترق جنبه، فأدرك على الفور أنه فقد كليته اليمنى.

إنها الثمن الذي دفعه مقابل قطعة الحقيقة التي حصل عليها في هذا الفصل من لعبة الشيء، لكنها ليست مشكلته الآن.

الآن.. وبعد لحظات احتاج إليها يوسف ليسترجع إدراكه كاملًا بكل ما يحدث له، وجد أنه يرقد على المقعد الخلفي لسيارته قرب الفندق الذي يقف الآن عصام على سطحه يصرخ غاضبًا، لكنه لم يكن بمفرده هذه المرَّة.

سوسن كانت معه!

سوسن التي اختفت طويلًا حتى فقد الأمل في العثور عليها تجثم الآن فوق صدره وقد ارتسم على وجهها غضب امتزج بالمرارة والحزن واليأس والجنون الذي رآه سابقًا في وجه الدكتورة ليلى.. وكانت تبكي!

كانت الدموع تسيل حارة على وجنتيها، وكانت تقبض على سكين انغرس نصله في لحم عنقه لتسيل دماؤه ساخنة في خيط تلوَّى في طريقه إلى صدره، وكانت تهمس من وسط دموعها:

ـ سامحني.. لكن.. لكن يجب أن أقتلك!